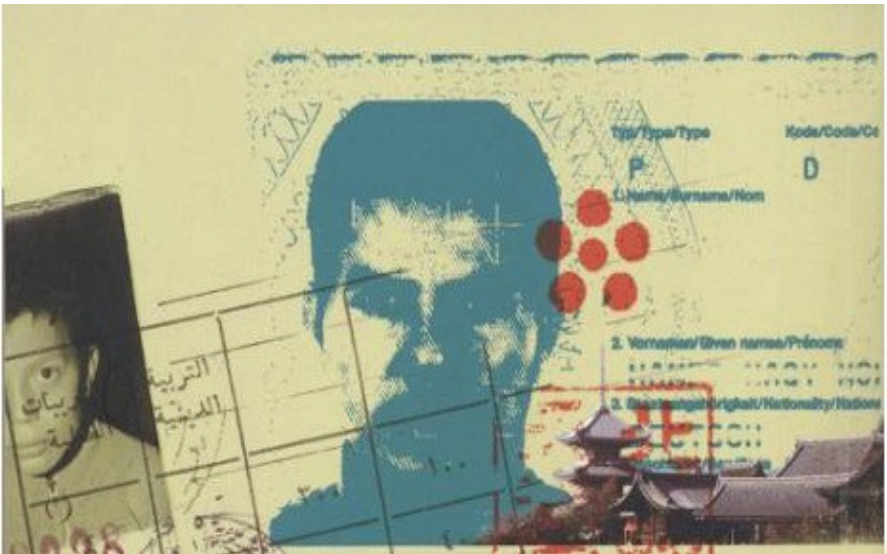

ميريت

وداعا أيتها السماء

حامد عبدالصمد

تلك النسخة من إعداد: سالم الدليمي

وداعاً أيتُها السَماء

رواية

حامد عبدالصمد

أَعَدَّ تلك النسخة الألكترونية :سالم الدليمي

.الطبعة الأولى 2008 دار ميريت (C)

(ب) شارع قصر النيل، القاهرة 6 تليفون / فاكس: 25797710 (202)

www.darmerit.net

merit56@hotmail.com

الغلاف : أحمد

المدير العام : محمد هاشم

رقم الإيداع: 2008/9242

X الرقم الدولي: 977-351-420

حامد عبدالصمد

وداعاء أيتها السَماء

رواية

دار ميريت القاهرة 2008

{وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً }سورة الجن الآية 10

الإهداء

إلى "كوني".. الزهرة الأخيرة في صحرائي ...

سفارة الخلاص

قبل أن أسافر إلى ألمانيا كان إسم هذا البلد مرتبطاً بذهني بأسماء وأحداث متناقضة: ألمانيا "جوته" و"ريلكه" وألمانيا "هتلر"وجورنج".. ألمانيا المحطّمة بعد الحرب، وألمانيا المعجزة الإقتصادية وإعادة البناء. ألمانيا المقسَّمة لشرق وغرب، وإعادة التوحيد بدون قطرة دماء. ألمانيا العمل والنظام وعلامة الجودة "صنع فى ألمانيا". وبالطبع أيضا المنتخب الألماني لكرة القدم الذي كان يكسب كل مباراة حتى ولو لم يلعب جيداً. ألمانيا أرض "مارتين لوثر" وأرض التحرر والمجون..

ألمانيا بلد "الفرنجة".. أقربائي... بلد الشعراء والفلاسفة والأبطال.. والبلد الذي لم يَعُد مسموحاً "له أن يكون له أبطال..

كانت الصور الوحيدة التي رأيتها عن ألمانيا عبر التليفزيون هي صور مظاهرات النازيين الجُدد في الشواع وصور إحتراق بعض بيوت اللاجئين هناك، وصورة إنهيار حائط برلين في سلام تام. وصورة أخرى تلقيتها عن ألمانيا من فيلم "النسر الأسود" الذي

تطمنا منه أن أي جاهل مصري يمكنه أن يسافر إلى ألمانيا فيصير مليونيراً في غضون سنوات ويتزوج أجمل النساء..قرأتُ الكثير عن الأدب الألماني، ولكنني لم أكن أعرف شيئاً عن الظروف السياسية والآجتماعية في ألمانيا اليوم. ولكن صورة ألمانيا بشكل عام كانت إيجابية في أذهاننا، فلم يكُن لهم تاريخ إستعماري في منطقتنا.. حتى "المحرقة" وهي النقطة السوداء الكبيرة في تاريخهم كانت تزكّيهم عندنا ولا تُخزيهُم.. فعَدوّ عَدوّي هوَ صديقي وكان أول لقاء مباشر لي بالمانيا لقاء مليئاً بالخزي والمرارة. ذهبت إلى سفارة ألمانيا بالزمالك لتقديم طلب الحصول على تأشيرة، ففوجئت بحشود من الشباب تقف أمام بوابات السفارة وكأنهم يطوفون بالكعبة. ولكن السفارة كانت تسمح فقط لخمسين متقدم بالدخول من بين الآلاف المُنتظِرة.

وكان أقل القليل ممن يدخل يحصل بالفعل على تأشيرة الدخول لـ "أرض الميعاد".

وعرفت أن هؤلاء الخمسين يُعسكرون أمام السفارة منذ ليلة أمس قبل وفود الحَجيج.

كان موظفوا الأمن بالسفارة يُحاولون "هش" الغوغاء بعيداً ولكن ذلك لم يأتِ بنتيجة.. ففد كان هؤلاء الشباب . يقفون أمام السفارة لأن ليس لهم وجهة أخرى، وكان من الأسهل عليهم أن يتعقبوا سراباً خيراً مِن أن يواجهوا واقعهم الأليم ..

عدتُ مرة أخرى للسفارة في المساء قبل التاسعة، فوجدتُ أول عشرين قد شكلوا طابوراً وقالوا لي إني رقم 21. كان أحدهم يرغب فى زيارة أخيه فى برلين ثم "يغطس" هناك.. وكان إثنان مثلي يرغبان في الدراسة، وآخر أراد الزواج من سائحة المانية عجوز تعرّف عليها في الفندق الذى كان يعمل به "جارسون".

أمّا الآخرون فلم يكن لديهم فكرة ماذا يريدون ان يفعلوا بالمانيا ولماذا ألمانيا بالذات . كان بعضهم يقف أمام سفارة ألمانيا لسبب واحد: لأن الطابور أمام سفارة المانيا كان لا يزال أقصر من الطابور أمام سفارات أمريكا وفرنسا وإنجلترا ..

كلنا كُنّا شباباً متفتحاً يمكن لمصر أن تحتاجه، ولكن بلدنا تجاهلتْنا.. أعطتنا التعليم أفيوناً وسَلَّمتنا الشهادات منظراً ولكن "كان من بين المجموعة الأولى أيضا رجل يفوق السبعين، وكنتُ أتعجَّب ٠ ماذا يُريد هذا العجوز في ألمانيا.

كان يلبس جلباباً بسيطاً ولم يدو عليه أنه من رجال الآعمال أو من راغبي السياحة العلاجية.. "ربما أراد أن يذهب لزيارة أحد أبناءه هناك"، قلتُ لنفسي..

راح الشباب يتسامرون ويمزحون لكي يقتلوا الوقت، بينما جلس الرجل العجوز مُتكئاً على سور السفارة ولم ينطق بكلمة ..

كان معظم الشباب جاهزاً للسهرة الطويلة وقد أحضرو معهم بطاطين ومخدات. وقد عرض أحد الشباب على الرجل العجوز بطانية ومخدة ولكن الرجل رفض متذمّراً، لفت إنتباهي أن الرجل لم يكن بحوزته ملف تقديم الطبليا ت، فاردتُ تنبيهه لذلك ولكني خشيت أن القى منه نفس الرد العنيف. وفجاة ومن اللاشيء جاء رجل في الأربعنيات ظن أن إسمه كان "خميس" ونصب في غضون دقائق كشكاً أمام السفارة وراح يبيع للمنتظرين الشاي والساندويتشات. أتذكّر أن شاي خميس كان لذيذاً جداً رغم قذارة الكوب الذي كان يصب فيه الشاي كانت تعجبني دائما مرونة أبناء شعبنا في تعاملهم مع الوظائف، فهم لا يقبلون "تسمية "عاطل". فإذا ضاقت الدنيا أمام أحدهم فإنه لاييأس ويجلس في بيته وإنما يحمل بعض المناديل ويبيعها في إشارات المرور ويُسمي نفسة "رجل أعمال". ويبدو أن "خميس" كان قد وجد فرصة عمل لأن آلاف من شباب مصر لم يجدوا هذه الفرصة، فمصائب قوم عند قوم فوائدُ ..

راح الشبا ب يتحدثون عن ألمانيا وما سيفعلون هناك وكأنهم قد حصلوا علي التأشيرة بالفعل، على الرغم من أن كل منهم كان يعلم أن فرصة حصوله على التأشيرة محدودة جداً. أيقظت ضحكات الشباب الرجل العجوز المتكيء على سور السفارة، فراح ينظر إلينا بنظرة حادة مليئة بالمرارة. كنتُ أتسائل في نفسي:

* ماذا يظن هذا الرجل بنا؟ هل يلوم علينا إننا نحاول أن نُغادر البلد في هذا السن المبكر؟ هل يعلم إننا نلعن الغرب في ضمائرنا ولكننا لا نجد أملاً إلّا على أبواب سفاراته؟ أو ربما نذكّره بإبنه الذي تركه وذهب إلى ألمانيا؟

إتكأ الرجل من جديد على السور وواصل النوم جالساً. وبدأنا نتساقط الواحد تلو الآخر في نوم عميق لم توقظنا منه إلّا أشعة الشمس الأولى.

وزّع خميس أكواب الشاي وبعض السندويتشات للفطور ثم فك كشكه وإختفى كما جاء قبل أن يراه أحد من السفارة أو من رجال الشرطة ..

كان أول رجل في الصف لا يزال تائها وهو يمسك بباب السفارة الحديدي حتى يثبت أولويته. فتح الرجل العجوز عينيه وحلّق بهما في اللاشيء، ثم وقف في مكانه في الصف أمامي. وقبل أن تفتح السفارة أبوابها بدقائق جاء رجل أنيق في متوسط العمر يحمل حقيبة سوداء ووقف في الصف أمام الرجل العجوز. ثارت ثائرتي فذهبت إليه وقلت: "يا أستاذ إحنا منتظرين هنا من إمبارح بالليل. إيه مش عاجبك الحاج اللى عايز تاخذ مكانه دا؟" قلت وإنتظرت نظرة عِرفان من الرجل العجوز. ولكن نظرة الرجل المتحجّرة البائسة تحولت لنظرة خزي وحسرة .

حضرتك فاهم غلط. إصبر عليا بس، قالها الرجل الأنيق وأعطى الرجل العجوز مبلغ خمسة جنيهات وقال له: "روح أنت بئه يا عم أحمد"

أخذ الرجل الدراهم البخسة وذهب بخطىً مُتعبة وهو يهمس لنفسهِ بكلمات غير مفهومة. لم يكن الرجل يرغب في الذهاب إلى المانيا وربما لم يكن يعلم أين المانيا من الأصل.. "لقد كان فقط يحجز المكان "لرجل "أفضل" أحسستُ بغضب شديد عندما رأيت هذا المنظر، بل أحسست بالعار، هل إستغل هذا الأنيق الرجل العجوز أم أنه فقط قدم له فرصة لكسب خمسة جنيهات؟

لم أجد وقتاً للتفكير في قضايا الظلم الإجتماعي هذه، فقد كان دوري قد جاء لكي أدخل إلى "سفارة النجاة"، فدخلت من باب الحصن الحصين ووقفتُ أمام موظف السفارة المصري الذي بدا يتحدث إليَّ بالألمانية آسف.. لغتي الألمانية لسّه مش...." قلتُ مملوئا بخيبة الأمل لأن مستقبلي كان لا يزال في أيادي مصرية. سلّمتُ الموظف المغرور كل الأوراق اللازمة لسفري وإقامتي في ألمانيا شاملة خطاب موافقة جامعة "ميونخ"على دراستي بها وأوراق إعتمادي في دورة تعلم اللغة الألمانية بنفس الجامعة وأوراق الضمان الصحي.. إلخ.

فحص الموظف أوراقي بعناية وكأنه كان يبحث عن ثغرة ليرفض طلبي، ولكنه في النهاية قبل ملفي وقال إن إجراءات التأشيرة تستغرق ستة أسابيع.

خرجتُ من باب السفارة وأنا أرتل من القرآن "رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا" وبعد أسابيع ستة ذهبت إلى السفارة وحصلتُ على تأشيرة الدخول لبلد كارل ماركس والمرسيدس، وكنت من أقل القلائل الذين نالهم هذا الحظ "السعيد".

خرجت من السفارة ورحت أجوب شوارع القاهرة، فقادتني قدماي بطريقة غير إرادية إلى الشارع الذي كان جدّي يسكن فيه والذي لم أدخله لمدة 19 سنة.

لم أكن أدري لماذا ذهبتُ إلى هناك وعن ماذا كنتُ أبحث في هذا المكان الذي قضيتُ فيه أسعد وأتعس لحظات طفولتي.

ربما كنتُ أبحثُ عن جرح آخذهُ معي تذكاراً من مصر، أو ربما كنتُ أبحث هناك عن عذر لهروبي. كان بيت جدي قد إنهار منذُ سنوات ووقفتُ مكانه أساسات بيت جديد. كانت الأساسات تُبشِّر ببناء أعلى وأفخَم من البناء الذي إنهارَ ولكنها كانت أيضاً تُبشِّر بأنه سيكون بناء بلا روح. وقفتُ أمام المكان طويلاً أُراقب المخبز والمقهى وورشة الميكانيكي.

لم أبكِ ولم أشعر حتى بألم، راحت ذكريات جميلة وأخرى رهيبة تتبادل في رأسي، دون أن يرد عليها وجداني بالسلب أو بالإيجاب. ذَهَبتُ لقريَتي لأودع عائلتي

******

كانت آثار رياح الخماسين لا تزال واضحة عند الأفق وتحجب قرص الشمس خلفها. غطَّت العاصفة قريتنا لليوم الثاني على التوالي بالرمال .كل شيء بدا مهزوماً..فانياً..مغبوراً.

كان جواً إسطورياً يتوافق مع مشاعري ويليق بيوم الوداع. ولكن لا شئ ولا أحد كان يشعر بالخوف الغاضب الذي تملَّكني وأنا أبدأ أول خطوات طريقي إلى المجهول. سارت السيارة ببطء وراحت تبعدني تدريجياً عن مسقط رأسي ومقبرة أحزاني. مَرَرتُ على حقل الموز الذي كنت أزوره أيام مراهقتي وأتخطى فيه حدود المسموح. مررتُ على النيل الذي بدا هادئاً رغم شدة الرياح.

نظرت إلى النهر الصامت وقرأتُ على صفحته قصته التي هي قصتي: قصة ملك لا يملك ومعبود لا يُعبَد.. قصة أسد مَخصي محبوس خلف سدٍ عالٍ، فصار بلا طمى ولا فيضان. وبعد قليل إستقبلتنا القاهرة بضبابها وسحابتها السوداء. ولكن الزحام القاهري لم يكُن بالحِدّة المعهودة، وكأن عاصمة بلادي كانت تريد أن تطردني بأسرع ما يمكن .

"خَلّي بالك يا إبن عمّي ما تجبلناش العار!" أنا سمعتُ أن البنات في المانيا فُجَّر وبيمشوا عريانين في الشوارع "" قال لي محمود إبن عمي مُحذّراً قبل أن أدخل لصالة السفر بالمطار. "وإلّا أقولّك: هات لإبن عمك معاك وإنت راجع بنت ألمانية شقرا ووظووظة كده بتاعت بلدها!" ، قال محمود مُبتسماً ..

إنهال فوق رأسي هواء شديد البرودة من فوهات أجهزة التكييف. إقتربت مني مضيفة مصرية كانت "تحاول عبثاً أن "تُخفي عمرها خلف صبغات "المكياج" الكثيفة، وطلبت مني أن أربط حزام مقعدي. بدأت المواتير في الجعير وتحركت الطائرة إلى الـ "الران واي". إرتفع صوت المواتير ومكيفات إلهواء.

فقدت عجلات الطائرة ملمس الأرض وراح الطائر الحديدي يُحلّق في سماء القاهرة. "إلى أرض بلا أبطآل!" راح خليط من نشوة الحريّة وقبضة الخوف يهز كياني: التحرر من قيود مجتمع أعرفه والخوف من خفايا مُجتمع لا أعرفه.. الشرر من عيون المراقبين والخوف ألّا أجد في غُربَتي عين "تحرسُني" الخوف من أن أصير سفينة بلا ميناء، أترك ضفة دون أن أصل إلى ضفّة أخرى، فأصبح حائراً بين ضفَّتين ،الحياة في أوروبا مش لأمثالك. إنت ضعيف أكثر من اللازم وحسّاس أكثر من اللازم وملش حَتِتحمّل برد أوروبا ولا "برود الأوربيين!" راحت ترن في أذني آخر كلمات أبي لي. وكان أبي يرفض فكرة سفري إلى أوربا معارضة تامة وتنبأ لي بأن أعود من سفري مهزوماً مكسوراً " بإيد ورا وإيد وُدّام".

لم يستطع أبي "إمام القرية" أن يفهم لماذا يفضّل إبنه الحياة مع "الكفّار" على الدراسة في الأزهر. ثار أبي لأنني لم أُخبِرْهُ بموعد سفري إلّا بيوماً واحداً قبل رحيلي، فأخذ جواز سفري والتذاكر وخبأهم حتى لا أتمكّن من السفر، ولكن أمي إقنعتهُ في نهاية المطاف ان يُخلّي سبيلي ..

كان وداعاً بلا عِناق ولكنه كان مليئاً بالتوتر والدموع، رأيتُ حُزناً كبيراً في عينَي أمي ورأيتُ الهزيمة في عيون أبي. كانت كلمات الوداع الوحيدة التي صدرت منه لي هي "لاحول ولا قوة إلّا بالله!" تصاحبها زفرة يأس عميقة ..

نظرتُ من خلال نافذة الطائرة إلى القاهرة وكأن عيوني شُدَّت بخيوط إلى الأرض، راح بحر البيوت الحجرية ينسال من تحتي حتى إختفت العاصمة الصمّاء . ثم ظهرت دلتا

مصر العملاقة يحتضنها النيل بساعدين فتيين وكأن الجميع محبوساً في قبضة صحراء لا ترحم..كنتُ أظن الألمان أزرقو العيون أشقرو الشعر وطويلو القامه !!

لكن جاري في الطائرة كان قصيراً مكوَّراً وكان شعرهُ خفيفاً وغير مهذَّب وكأنه خليط من شعر الإبط وشعر العانة .

* "هذهِ أول زيارة لك لألمانيا ؟" سألني جاري بلغة إنجليزية متواضعة .

* نعم..رددتُ في برود ،فلم أكُن أرغب في الخوض معه بحديث عقيم فقط من أجل كسر مَلل سفرهُ الطويل .

* "هل مسموح لي أن أسألك ماذا ستفعل في المانيا" سألَ الجار العَرقان.

* "إنه مسموح لك" رددتُ بسخرية لم يفهمها فكرَّرَ سؤاله..

* " سادرس في الجامعة هناك"

* وماذا ستدرس؟

* "العلوم السياسية"

* العلوم السياسية؟.. رائع.. "ولكن لماذا في ألمانيا بالذات؟" واصل الجار الممل سؤالاته..

* "إخترتُ ألمانيا بسبب المنتخب الألماني الذي كسب كأس العالم كل مرة رغم أن خصمه يلعب أفضل!" قلت" ..بسخرية وظننت أن ردّي هذه المرّه سينقذني من فضول ذلك الشخص المثير للإشمئزاز..

* " لا ..لا.. لقد كان ذلك في الماضي فقط. أما الآن فلأ يكسب فريقنا حتى زُهرية ورود واحدة !"..

لم أجد في النهاية حلاً إلّا إصطناع النوم.

نظرتُ من النافذة من جديد قبل وصول الطائرة لمطار "فرانكفورت". رأيت –خضاراً بكل أشكاله ودرجاته.. خضار غير مُتناهى وكأنه الصحراء الكبرى. كانت دلتا مصر

مقارنة بهذا الخضار الممتد مجرد ضيعة صغيرة أو مجرد بصيص أمل للنمو. بدا هذا اللون الطاغي يملأني بالخوف، فقد كان يحمل بداخله ثقة المغرور وتخمة الشبعان الذي لا يعرف شيئاً عن معاناة الأشقياء. كان هذا اللون يرمز لقوة لا تُقهَر وجيش لا يُهزَم.
ثم بدأت مدينة " فرا نكفورت" في الظهور تحيط بها مُرتفعات جبلية صغيرة وسحابات بيضاء، فبدت وكأنها وعاء تصب فيه الحياة من جهة وتهرب منه الحياة من جهة أخرى. هبطت الطائرة شيئا فشيئا فرأيت أبراجاً وبنوكاً ومصانعاً يشق نهر "الراين" طريقه بينهم بصعوبة، وكأن وظيفته الرئيسية كانت إنعاش مدينة مريضة .
صَرخَت عجلأت الطائرة عندما أرغمتها الفرامل على الوقوف أمام صالة الوصول.
خرجتُ من الطائرة الباردة ومررتُ خلال خرطوم شفط المهاجرين.
وقفتُ في الصالة الكبيرة تبهرني الأضواء وتزكم أنفي الروائح غير المالوفة.
شَمَمْتُ رائحة قهوة أوروبية وعرق مشبَّع بالكحول وروائح عطور قوية ولكنها بلا روح.
وطغت على كل ذلك رائحة مواد مُعقِّمة ومُطهِّرة وكأن المكان كله مرحاض نظيف..
وقفتُ أمام ضابط الجوازات فراح ينظر إلى صورتي في جواز السفر ثم يُمعِن النظر إلى وجهي وكأن لسان حاله يقول:
* "راعي جِمال أخر يُريد أن يستمتع بحريتنا ورفاهيتنا؟" لو كانت عيونه تنطق باللهجة المصرية لقالت: هيّه المشرَحَه ناقصه قُتَله !؟"
وجدتُ حقيبتي بمجرد وصولي إلى مكان الأمتعة وخرجتُ من بوّابة الخروج كالمسطول. كانت "أنطونيا" 'تنتظرني أمام صالة الوصول، زاد وزنها على ما يبدو بعض الشيء مقارنة بأخر مرّة رأيتُها فيها، وبدا على وجهها انها تقترب من الاربعين.
عانقتني بحرارة وهي تقول "!لقد فعلتها بالفعل! أنا فخورة بك جداً يا شاكر"
لم أدرِ لماذا كانت فخورة بي فما فعلتَهُ هو مجرّد هروب لا أكثر،

* "أنا أعمل الآن كمدرسة، وقد إشتريت سيارة جديدة" قالت لي وإبتسامتها لا تريد أن تُفارِق وجهها. كانت كلتا"- المعلومتين بلأ قيمة بالنسبة لي، فقد كتبت لي في رسالتها الاخيرة انها عادت لوطيفتها القديمة، وكانت رائحة الجلد الجديد في سيارتها تُثير غثياني منذ أن إمتطينا السيارة كانت طريقة كلامها وملابسها تختلف تماماً عن ذلك الوقت حين التقينا أول مرّة في مطار القاهرة منذ ثلاث سنوات.. كانت نظراتها وكلماتها اليوم فقيرة وخاوية ..

سفر طويل عبر الطريق السريع ، شارع خالي من البشر تماماً .. منزل جميل على بعد 15 كلمتر من حافة إحدى الغابات من مدينة "أوجسبرج" دخلنا إلى شقه واسعه يتدفّق النور إليها من كل مكان.

موبيليا غالية ذات تصميم حديث، لقد كنت أنتظر غرفة صغيره تليق بإمرأة يسارية ذات ميول صوفية مثل أنطونيا .

كل شيء في بيتها كان ناصع البياض وشديد النظافة والترتيب .كيف يمكن لفَوْضَوي مثلي أن يُطيق هذا النظام ويحافظ عليه !؟

* أرجو الّا يكون الجو بارداً عليك كثيراً هنا " قالت أنطونيا بعطف"

* "لا أبداً" قلتُ وأنا أكاد أتجمّد بجوارِها على الكنبة الجلد"

لا أحَد حُر سوى" زيوس"

كانت ليلة رأس السنه عام 1992 ليلة غريبة. كنت أعمل في وردية الليل في مطار القاهرة عندما أتاني ضابط شرطة وسألني إن كنت أتكلم الفرنسية. فقد كانت هناك سائحة بصالة الوصول ترفض مغادرة المطار، وببدو أنها لا تفهم الإنجليرية. ذهبتُ مع الشرطي لصالة الوصول ورأيتُ إمراة جميلة في متوسط الثلاثينات تجلس على أحد المقاعد وقد وضَعَت ساقاً فوق الأخرى في كبرياء .

* هل تتكلمين الفرنسية؟ " سالتها بالفرنسية"

* نعم أتكلم الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإسبانية" جائت إجابتها بالانجليزية مما أثار دهشة الشرطي.

* أحسستُ أن قصة هذه المرأة طويلة، فطلبتُ من ضابط الشرطة أن يُغادر المكان ووعدته أن أحكي له فيما بعد قصة السائحة المتمردة ..

كانت المانية، جميلة وأنيقة جداً، كانت تعقد جبينها بشريط أحمر أبرز جمال عينيها الخضراوتين.كان شعرها أحمر وقصير، وبدت على وجهها علامات الإرهاق وخيبة الأمل.

* هل هناك شيء يمكن أن أفعله من أجلك يا سيدتي ؟ "سألتها بأدب"

* المصريون أُناس يصعب الثقة بهم " قالت بمرارة"

* نعم أنا أعلم ذلك" قلت دون تردد"

* إنفرجَت شفتاها بإبتسامة حزينة عندما سمعت إجابتي.. إبتسامة تخلط "الميلانكولية" بالأمل: نفس الخليط الذي كنت أشعر به دائماً وأنا أقرأ الأدب

الألماني. ورغم أني كنت أعمل في مكتب سياحة بالمطار منذ فتره فقد كانت هذه أول مرة أتحاور فيها مع المانية ، قالت لي إنها من عُشّاق النيل وإن هذه هي المرة العاشرة لها في مصر، وقالت إنها حجزت رحلة لتحضر ليلة رأس السنة بالقاهرة ودفعت المبلغ لشركة السياحة، ولكن أحداً لم يأتِ لإستقبالها.

خطر ببالي عذر معقول لشركة السياحة، فقد كانت ليلة رأس السنة ليلة مزدحمة جداً وربما لم تستطع حافلة شركة السياحة الوصول للمطار، أو ربما لم يصلهم تأكيد الحجز في الوقت المناسب، ولكنني لم أقُل لها شيئا من ذلك، فلم تكُن لديَّ رغبة في الدفاع عن أبناء بلدي في هذا الوقت ..

رحنا نتسامر لفترة طويلة، وأعجبني الإنصات لحديثها، فلغتها الإنجليزية كانت منمّقة وبليغة على الرغم من إنها لم تكن لغتها الأم، حكت لي أنها كانت متزوجة من طبيب مشهور بالمانيا وإنها أنجبت منهُ طفلين جميلين، ولكنهما إنفصلا منذ شهور، فقد صارت "تمل الحياة "السعيدة" الخالية من المفاجئات توقفت عن الحديث فجاة وفتحت جعبة سفرها وأخرجت بعض الهدايا وأرادت أن تُعطيني إياها ولكنني رفضت بأدب.

* "كنتُ أظن إن المصريين يلهفون كل ما يقابلهم، ولكن يبدو أن هناك بعض الإستثناءات!" قالت مُبتسمة.

* كنتُ لا أريد أن أفشي لها إنني تماماً مثل كل أبناء بلدي.. مُشبّع بنفاقهم وأُعاني من كل مرض منتشر بينهم. فلم تكن تدري على سبيل المثال أنني كنتُ أنوى أن أحجز لها فندقاً غالياً في القاهرة وأحصل بذلك عمولة 25% من الفندق ولكنني كنت مهتم كثيراً بهذه المرأة الغامضة وكان يجذبني الحديث اليها.

كانت مختلفة تماماً عن السائحات العاديات،فهي لم تأت بحثاً عن ترفيه أو لذّة، ولكنها كانت على ما يبدو تهرب مثلي من ألَم عميق. عندما سألتها لماذا تقضي

هذه الليلة وحدها،شرعت في البكاء وقالت: "طفلتي الصغيرة قالت أنها لاتريد أنتقضي أي وقت معي لأنني لست أماً جيدة، هذا بالطبع ما علّمها أبوها لها بعد أن تركت العائلة.. ولكن يبدو أنهُ مُحق. فأنا لستُ أماً جيدة.. نعم ..لا يوجد إنسان كامل " راحت تُكرر هذه الجملة حتي ظننت إنها لن تتوقف .

* "لا يوجد إنسان كامل" كانت تقولها مرة بنبرة إعتذار ومرة بنبرة حسرة وخيبة أمل، وكا نهاء تندم أنها لم تلاقي إنساناً كاملاً في حياتها وتأسف أنها لم تكن هي أبداً هذا الإنسان ،ثم أخرجت من حقيبة يدها صورة صغيرة رسمتها بنفسها وقدمتها لي كهدية. وقد قبلتُ الهدية هذه المرّة وسألتها عن معنى الرموز التي وردت فيها كانت دائرة كبيرة لها ثقب في القع وكانت الدائرة مليئة بالرموز التي تشبه رموز الأديان ورمز علامة النارية مقلوباً. وكانت بعض الرموز قد سقطت من الثقب الموجود بقاع الدائرة. كانت رموز كل الأديان صغيرة مما جعل من المنطقي أنها سوف تسقط من إلثقب، ولكن رمز النازية المقلوب كان كبيراً بدرجة تسمح ببقائه في الدائرة.

فسألتها عن هذا الرمز فقالت :

* هذا الرمز كان يرمز في الماضي لله وقد أساء النازيون إستخدامه، وقد فسرت لوحتها كالتالي:

* إن الله قد خلق العالم واهياً ضعيفاً حتى يسقط كل شيء في النهاية – حتى الإيمان به – فلا يبقى عند ذهابة الكون غير الله فقط .

* ولماذا يفعل ذلك؟ "سألتها بفضول"

* لأنه لا يوجد أحد حر إلا "ريوس" قالت بزفرة حزينة"– أثارت هذه المقولة إهتمامي الشديد بالأساطير الإغريقية، وهي مقولة لـ"بروميثيوس". وقد كان نصف بشر ونصف إلـه وأراد أن يتحدى إرادة الآلهة ويسرق منهم النار ولكن الإلـه الأكبر "ريوس" عاقبه بثلاثين عاماً من العذاب يأكل الطيور الجارحة من قلبه المفتوح. فراح

يبكي حظه التعيس ويشكو.. وفي نهاية المطاف لم يتسع له إلّا أن يعترف : لا أحد حُر غير "زيوس" وعندما قال ذلك إنتهى ألَمه الطويل ..

ذكّرتني هذه الروح التمرديّة بـ " دكتور فاوستوس" الذي باع روحه من أجل الحرية ولكنه لم يحصل في مقابل ذلك إلّا على بعض اللذات الرخيصة والقدرات السحرية البهلوانية، فإعترفَ بحدوده كبشر قبل أن يسلّم روحه للشيطان حسب الإتفاق.

رحتُ أُفكّر كثيراً في لوحة المرأة الألمانية الحسّاسة.

* هل يسقط الجميع إلّا الخالق؟

لوحتك تدعو إلى تفسيرات كثيرة، هل من الممكن أن كل شيء سيخرج من سجن الحياة ويختفي في بحر"العدم" ، ويبقى الخالق وحدهُ في النهاية في الدائرة التي خلقها؟ كانت إبتسامة عذبة هي الإجابة الوحيدة التي صدرت منها .

كان إسمها "أنطونيا" ورحنا نتسامر طول الليل أثارت هذه المرأة إعجابي وإحترامي كان كل شيء تقوله فيه رقّة وحكمة وحزن. حتى القصيدة التي تَلَتْها عليَّ كانت جميلة ومؤلمة في نفس الوقت حكمت على الناس وحكم عليَّ النا س، رأيت الخير والشر، دخلت الجنة وخضت الجحيم. وفي النهاية عرفت أن كل شيء بداخلي وإنني بداخل كل شيء..

أثار دهشتي كم كان فكري وإحساسي قريب من هذه المرأة التي نشأت وتربَّت وعاشت في بيئة أخرى غير بيئتي... نشأت بيننا صداقة عميقة دامت حتى بعد عودتها إلى ألمانيا. كنا نتراسل بإستمرار ونلعق جراح بعضنا عبر مسافة تزيد عن 3000 كم ..

عرضَت عليَّ "أنطونيا" أن "تساعدني لتقديم أوراقي بإحدى الجامعات الألمانية، فوجدتها فرصة جيدة لمغادرة مصر. ولكن كان عليَّ أن أنهي عامي الدراسي الأخير وأن أقضي الخدمة العسكرية الإجبارية لمدة سنة وبعد ثلاثة أعوام كانت أنطونيا قد

عادت إلى الحياة "الطبيعية "من جديد، وصارت تقود سيارة "تويوتا كورولا" وتنتخب الحزب المسيحي المحافظ لأنه يطالب بخفض الضرائب عن الطبقة المتوسطة.

كان كل شيء غريب على حواسي في الأيام الأولى في ألمانيا: الناس ، الروائح، الألوان والطعام ودرجات الحرارة.

رحت أفتقد الأصوات والأشياء والألوان المألوفة التي كانت تساعدني على التعرّف على نفسي وعلى محيطي.. رحت حتى أفتقد الصور النمطية التي كانت مرتبطة في ذهني بألمانيا.. فقد أصبتُ حتى بخيبة الأمل لأنني أبداً لم أَرَ شباب النازيين الجدد يجوبون الشوارع ويهتفون مطالبين بطرد الأجانب.. وأصابني أكثر من ذلك بخيبة الأمل أنني لم أَرَ شقروات عاريات في الشوارع على الإطلاق... لاحظتُ أن معظم الألمان لهم شعر بُني وعيون داكنة .

أنا راجل مسلم ولا أستطيع أن أنام مع إمراة في سرير واحد إذا لم تكُن زوجتي.. قررنا الزواج بين عشيّة وضُحاها دون أن نفكّر كثيراً في تبعات هذا القرار.

كانت أنطونيا تحاول أن تُثبت لنفسها بعد فشل زواجها الأول إنها لا تزال قادرة على خوض الحياة الزوجية وكنت أنا أبحثُ عن حنان إمراة تفهم مشاعري وبالطبع كنتُ أطمع أيضاً في الحصول على الإقامة ا لدائمة في المانيا من خلال هذا الزواج ..

تزوجنا كطفلين متمردين دون أن ندري أي مستقبل سيجمعنا.

كانت تحاول أن تكون حنونة ورقيقة ولكن الفارق كان شاسع بين أمزجتنا وإيقاع حياتنا وثقافتنا، وهكذا كان الصراع بيننا مُبرمجاً مسبقاً... علمتني السباحة ولكنها لم تستطع أن تعلمني القيَم الألمانية الغربية كالنظام والإنضباط والدقة. فقد كانت أمراض "النظام" الذي نشأتُ فيه قد هاجرت معي في حقائب سفري وصارت جزءاً لا يتجزأ من شخصيتي، ومع ذلك حاولتُ التأقلم بقدر المستطاع ..

* "ماذا عليَّ أن أفعل حتى أصير مثل الألمان تماماً؟"

* "عليك أن تتقن الألمانية جيداً"

* "وماذا بعد؟"

* "قيادة السيارات"

بعد إسبوعين:"!شاكر، أعتقد أن قيادة السيارات ليست لأمثالك، أنت مجازف وأرعن"..

عندما رأيت الثلج لأول مرة كدتُ لا أصدّق عيني. لففتُ نفسي في أسمك ملابسي وأخفيت كل شي ما عدا عيوني وفتحتى أنفي ورحتُ أسيرُ فوق الثلج تملؤني سعادة طفل

* ما رأيك في رحلة لجبال الألب؟ ستجد هناك ثلج أكثر!" إقترحت على أنطونيا" ..

* آآآآه يا ظهري!! إنزلاق غضروفي".. !هذا جزاء كل مصري تسوِّل لهُ نفسُهُ أن يتعلم التزحلق على الجليد ..

* هل يوجد هناك أي نشاط الماني لبس فيه خطورة على الحياة؟"

* "أكيد!! الاستماع للموسيقى الكلاسيكية مثلا"

* "والله فكرة! انا أعز موتسارت جداً"

* بس موتسارت كان نمساوي مش الماني .

* آه بس أبو موتسارت إتولد في "أوجسبرح" والمدينة "تفتخر به كثيراً ..

تفتخر "أوجسبرح" اليوم أيضا بإثنين من أبنائها المقبورين "رودولف ديزيل" مخترع الموتور و"برتهولد بريخت" الشاعر والمسرحي اليساري، ولكن "أوجسبرج" تنكَّرت لديزيل بعد وفاته لأنه مات مُنتحراً ورفضت دفنه في مقابر المسيحيين. أما "بريخت" فقد تنكّر لمدبينته وقال عنها "إن أجمل ما في أوجسبرج هو القطار السريع إلى"ميونخ"

حاولت أنطونيا كل ما في وسعها كي أشعر أن بيتها هو بيتي ولكن دون جدوى إكتشفت بعد قليل أن هذا الشاب المصرى الحساس المثقف الذي التقت به في مطار القاهرة لم يكن إلا واجهة حسنة لكيان "قبيح"..

لم يكُن إلّا لفافة جميلة حول شخصية مهروزة ونفس مريضة. بدأتُ أشعر ببرودة أكبر وغُربة أعمق وبدأت أنطونيا تشعر بأنها تسرَّعت في إتخاذ قرار الزواج. لم أستغل الهجرة في تفكيك ثقافتي وإعادة النظر فيها بل قادتني الوحدة إلى تعظيم الذات وتصوير حضارتي على أنها أرقى حضارات الأرض .

ورحتُ أُصلى كثيراً أمام "أنطونيا" وأسمع القرآن في حضرتها، وحاولت إقناعها بإعتناق الإسلام كنت أتظاهر أمام أنطونيا بالتديّن، ولكنني كنت أنتظر حتى تنام وأُشاهد أفلام "السكس" التي كانت تعرضها القنوات الألمانية الخاصة بعد منتصف الليل.

كان يُدهشني أن العاهرات في ألمانيا يتمتعن بحرية كبيرة تسمح لهن حتى بالإعلان عن أنفسهن في التليفزيون.

أهكذا بهذه البساطة يحصل الألمان على إمكانيات الترفيه الجنسي؟ والله الشعب دا الظاهر إن ربنا راضي عنه!! رحتُ أتذكّر أول أيامي في القاهرة بعد أن إنتقلت من القرية للمدينة بغرض الدراسة. كنت أقف كالتائه بجوار سور الأزبكية أُراقب جموع البشر، فجاء إليَّ أحد باعة الصحف وسألني: "أيش عايز مجلة سكس؟" ..فرددتُ بتلقائية "بكام؟"

* "بعشرين جنيه"

كان في جيبي فقط خمسة وثلاثون جنيها كنت أنوي أن أشتري بها قميصاً جديداً، ولكني قبلت العرض. إختفى البائع لدقائق وعاد بالمجلة ملفوفة في ورق صحف وطلب مني الّا أفتحها إلّا بعد أن أترك المكان حتي لا يراني الشرطة. فأخذت المجلة وسرتُ في الشارع التفتُ حولي كسارق مبتديء ورحت أبحث عن مكان آمن أتصفَّح فيه

الصور العارية دخلتُ "جروبي" وكان شبه خالي من الزبائن، فطلبتُ عصيراً غالياً وفتحتُ اللفافة بحذر وترقّب فوجدتُ بداخلها مجلة "آخر ساعة" ..

رحتُ أتصل بعاهرات الهاتف بعد منتصف الليل وأُمارس معهن "السكس" عبر التيليفون وأنا أفك ضيقي بيدي.

وكانت انطونيا تتعجب في نهاية كل شهر من غلاء فاتورة التليفون. وكنت أذهب في الصيف لإحدى البحيرات وأتلصص على الفتيات عاريات الثدي الراقدات تحت الشمس. كنتُ أراقبهن وهُنَّ يُقبلن أصدقائهن الأولاد فأقول "يا بختكم!" كنتُ أتمنى أن أولد في مجتمع كهذا من جديد فالتقي بواحدة من هؤلاء الصبايا في سن السادسة عشر فأبدأ معها علاقة جنسية غير معقدة..

أَكانت هذه هي الحرية التي فَرَرْتُ إليها من مصر؟ حرية التلصص ومبدأ "عشرة باليد ولا الحوجة لحد"؟ اليس ذلك ما كنتُ أفعله في مصر أيضاً؟ أم اني قد هربتُ من عبودية إلى عبودية أخرى.. أم انها حرية مثل حرية "فاوستوس" الذي باع روحه للشيطان مقابل لَذّات رخيصة؟ وجدتُ في أيامي الاولى بالمانيا "تفرّداً" ولم أجد "فردية"، وجدتُ "تحرراً" ولم أجد "حرية".

حريتهم لم تكُن لي إلّا إمكانية الإختيار بين "كوكا كولا" و"بيبسي كولا" ..

وكان النظام الدراسي في الجامعة مختلفاً "تماماً عن النظام المصري، فلم تكن هناك مقررات ولا جداول للحصص، فكان عليَّ أن أختار دروسي وأساتذتي بنفسي. وكان ذلك صعباً على من إعتاد النظام السلطوي في كل شيء. ولكنني تعلمتُ اللغة الألمانية في زمن قياسي، حتى كتبت عني كبرى الصحف الألمانية مقالة طويلة بعنوان "معجزة لغوية من أرض النيل!".

بعد فترة غيّرت الجامعة وإلتحقت بجامعة "أوجسبرج" بدلاً من "ميونخ" لأوفّر مصاريف السفر. ولكن دراستي هناك كانت مملة للغاية، فكانت معظم الدروس

المعروضة تدور حول نظام الأحزاب في ألمانيا وسياسة منظمة "الناتو" ومخططات توسع أوروبا في إتجاه الشرق. وإشتريت "بدلة" جديدة و"كرفتّة" لكي أذهب بها للجامعة وفوجئت بأستاذ جامعي يأتي بـ "شورت" قصير على دراجة.. كانت معظم الطالبات غير جميلات.. وكنتُ لا أجرؤ على مصادقة إحداهن فقد كنتُ متزوجاً وكانت البنات لا تقترب من الرجل المرتبط حتى لو كانت علاقة بدون زواج ..

إصطحبتني أنطونيا بسيارتها إلى الكثير من الأماكن الجميلة ولاشك أن الطبيعة في جنوب ألمانيا خلّابة. ولكنني نادراً ما كنت أستمتع بهذه اللحظات. كنت أشعر دائماً بالوحدة والكآبة إذا توقفنا عند أي مكان جميل، وكان الجمال يُثير بداخلي مشاعر الحزن..

بدأتُ أشعر تدريجياً بالكراهية تجاه هذا البلد وشعبه رغم أن أحداً هناك لم يضايقني مباشرة. كان فقط يضايقني أن الألمان يُحللون كل شيء وينتقدون كلشيء وخاصة ذاتهم. قلّما رأيت منهم مَن يشعر بالرضى فمعظمهم يشكو ويتذمّر.

ولكن أحداً منهم إذا دخل مطعماً للأكل وقُدِّم له طعام سيء الطعم، ثم جاء "الجرسون" لأخذ الحساب وسأل الضيف "كيف كان طعامك؟"يرد الألماني دائماً:

* "كان شهياً للغاية شكراً!" وكأنها إجابة مقدسة لا يمكن تغييرها. فوجئتُ بوجود ملايين من العاطلين وآلاف المتسولين في البلد الذي كنتُ أظن أن جميع مواطنيه فلاسفة وموسيقيون.

رأيتُ أن النقاش في هذا البلد لا يدور حول "معنى الحياة" وإنما حول تكلفة الحياة. لم يتساءل أحد عن وجود الله وإنما عن "الضمان الصحي" وقدر المعاش بعد التوقف عن العمل. أدهشني أن معرفة الألمان بالعالم كانت محدودة جداً رغم أنهم أكثر شعوب الأرض سفراً وسياحة .

رأيت أن الألمان أيضاً كانوا يعيشون في "نظام" رأسمالي مغلق يتحكم فيهم ويسوقهم كالأغنام، مع الفرق أن نظامهم كان أكثر دقة حتى في جوانبه الحيوانية! فمفهوم الحرية هناك كان مفهوماً إستهلاكياً. حتى إهتمامهم بالبيئة وحماية الحيوانات بدت لي وكأنها أحد مخلفات الشبع والتخمة.

كنت أرى في التلفيزيون في الوقت الذي كنت لا أرى فيه أفلام "السكس" برامجاً وثائقية كان معظمها إمّا عن "هتلر" والفترة النازية أو عن الفقر والمرض وعدم الحرية في العالم الثالث.. وكأنهم كانوا يحتاجون إلى مثل هذه البرامج لغرس ثقافة الشعور بالذنب في انفسهم. أم أنهم كانوا يتلذذون برؤية الجوع والحرمان في مجتمعاتنا حتى يشعروا بالراحة والعرفان لما هم فيه من "نعيم"؟..

أُصِبتُ بالصدمة عندما عرفت أن بالمانيا أيضا وحوشاً بشرية "تختطف الأطفال البريئة وتغتصبهم، بل وتغتالهم وتواري جثثهم فيما بعد . كانت هذه الحوا دث تقع بإستمرار رغم أن ألمانيا مجتمع إباحي لا يصعب لأحد فيه ممارسة الجنس من خلال علاقات مفتوحة أو مقابل المال مع العاهرات الشرعيات".

كانت أنباء إختطاف الأطفال تأتي أسبوعياً في التلفزيون الألماني فتُثير بداخلي أوجاعاً قديمة ظننتُ أنني قد رميتُها وراء ظهري يوم حزمت أمتعتي وقررت الرحيل من مصر . يبدو أن النخيل يبدو دائما أكثر إخضراراً إذا نظرنا إليهِ من الجانب الآخر من النهر وأنَّ الشيخ البعيد سره باتع .

أصبح من الواضح أن ألمانيا التي كانت بخيالي لا توجد على الأرض. تذكّرتُ أيام طفولتي في المدرسة الإبتدائية عندما قال لنا مدرسنا في فصل را بعة تاني أكثر منا ذكاء ونشاطاً، فرُحتُ أحلمُ برابعة تاني وأتمنى أن أكون مثلهم.

وحانت الفرصة أن أرى رابعة تاني ذات مرة عندما غاب مدرسهم وجمع رابعة أول ورابعة تاني في فصل واحد، فأكتشفت أنهم في نفس الدرجة من الكسل والبلاهة

مثلنا تماماً. وهكذا كان الأمر مع الألمان.إكتشفتُ أنهم بشرٌ مثلنا تماماً .. لهم حدودهم ومشاكلهم.. لهم مخاوفهم وغبائهم مرت شهور تعمقت فيها مشاعر الغربة والوحدة بداخلي رغم أنني لم اتعرض لأي إعتداء يُذكر.

كانت مرة وحيدة تعرضت فيها للسب من أحد مشجعي فريق "1860 ميونخ" وكان ءمسطولا بالقطار. إقترب مني وهو يصيح ورائحة البيرة تفوح من فمه :

* ماذا تعمل هنا أيها الأجنبي القذر؟ لماذا لا تعود إلى بلادك؟

حاولتُ الإحتفاض ببرودي ورددتُ عليهِ بعد أن تعرفتُ على فريقه المفضَّل لكرة القدم من الشال الذي كان حول عنقه

* "جئتُ لألمانيا لأنني من مشجعي فريق "1860 ميونخ"

* "حقاً ؟ ومن أي بلد أنت؟"

* "من مصر"

* "وهل يعرف المصريون "1860ميونخ؟"

* بالطبع! وهم يعرفون أن "1860 ميونخ" فريق عريق وأنه الممثل الحقيقي لمدينة ميونخ.. أما لاعبوا"بايرن ميونخ" فهم مغرورون لاينتمون لميونخ وقد إشتراهم الفريق فقط بالملايين!!! قلتُ بنفاق لأنقذ نفسي، ويبدو أني نجحت

* "هذا صحيح" قال المشجع المسطول وغيّر موقعه "تجاهي تماماً.

* في الحقيقة كان معظم الألمان الذين قابلتهم مُحترَمين.

كان فقط يُضايقني حب المثقفين منهم للنقاش العقيم، فكان زملائي في الجامعة وحتى أساتذتي ينتظرون مني أن أكون خبيراً في الشئون الإسلأمية وبوجهون إليَّ دائماً نفس الأسئلة، لا من باب حب المعرفة ولكن من باب الفضول والتسلية:

* "لماذا تزوج النبي من 13 إمرأة بينما لا يسمح للرجل المسلم الزواج إلّا من أربعة فقط؟" أو:

* لماذا يميل المسلمون للعنف"؟ أو:
* "ما سر تخلّف العالم الإسلامي؟ ولماذا يأمر القرآن الرجال بضرب نسائهم"؟ لم أكن أرغب في الدفاع عن الإسلام، ولكن مثل هذه الأسئلة تستفز كل مسلم في إلغربة فلا يجد بديلاً من أن يصبح محامياً للإسلأم بل وداعية أيضا.
* كان يضايقني أن أسمع من الألمان كلمة "محمد" بدون أن أسمع بعدها "عليه الصلاة والسلام" إختفت شكوكي الإيمانية القديمة خلف محاولاتي للدفاع عن الإسلام.أصبحتُ أشعر بهجوم وعدوانية كل من حولي حتى إذا لم يقصدو ذلك .. حاولتُ في باديء الأمر أن أبتعد عن تجمّعات المهاجرين وحاولت تقليد الألمان في كل شيء، حتى أنصهر في مجتمعهم، فرحتُ أتعلّم التزحلق على الجليد وأُنصِتُ للموسيقى الكلاسيكية، ولكني توقفتُ عن التزحلق بعدما كاد ظهري أن يُكسَر بعد إرتطامة شديدة كادت تجعل مني رجلاً عاجزاً.

وقد كان ذلك سبباً في آلام الظهر المزمنة التي أُصبتُ بها فيما بعد. وكانت عُزلتي عن المجتمع الألماني فيما بعد قد جعلتني أكره كل شيء يحبه الألمان فكنت لا أُطيق رؤية مَن يشرب البيرة.

حتى رؤية لحم الخنزير في "ميز" الجامعة كانت تُثير كراهيتي وغضبي. وتوقفتُ عن سماع الموسيقى الكلاسيكية، وكنت أقول لـ "أنطونيا" عندما كانت "تنصت إليها:
* "أي أوجه الجمال تجدين في هذه الموسيقى ؟ فهى ليست إلا مثل صراخ القطط، وما الغناء الأوبرالي إلّا مثل نواح النّدابات في جنازات قريتنا ..

وفى نهاية المطاف لم يتبقَّ لي إلّا أن أبحث عن مسجد لأجد فيه من هُم مثلي. وقد وجدتُ بقرب وسط المدينة مسجداً صغيراً كانت تديره إحدى الجماعات التركية. ولم يكن مجرد مسجد، بل كان مركزاً متكاملا لخدمة المهاجرين الأتراك، فكان يحوي دكانا لبيع المواد الغذائية التركية ملحقاً به حلّاق لقص شعر المسلمين بثمن بسيط

ومطعم للشاورمة التركية التي يطلقون عليها إسم "دونر" ومقهى وشركة سياحة لتنظيم رحلات الحج ورحلات المهاجرين لتركيا في الإجازات. إذا فقد كان مجتمعاً مصغراً داخل المجتمع الألماني.

وكنتُ عندما أدخل إلى هذا المركز أشعر إني تركتُ المانيا تماماً، فبعد بوابة المركز يختفي النظام المعهود والنظافة الزائدة عن الحد كما يختفي الحديث باللغة الألمانية.

كنت أذهب إلى هناك من وقت لآخر للصلاة أو لقص الشعر ولشراء بعض الأطعمة التركية التي كانت "تقارب في مذاقها الطعام المصري رأيت أن المسلمين في المانيا أتراكاً كانوا، أو عرباً، هنوداً أم إيرانيين هم أشد المهاجرين تقوقعاً على أأنفسهم وأقلهم إلماماً باللغة الألمانية وأكثرهم عناداً وإصراراً على التمسّك بما يسمونه "ثقافتهم". وقد تركهم الألمان لعشرات السنين منعزلين لأنهم أبداً لم ينظروا إليهم كبشر وإنما كآلات تقوم بأعمال قذرة يرفض الألمان القيام بها.

وكان معظم المهاجرين المسلمين قادمين من مجتمعات ريفية أو جبلية، ولم يكونوا على قدر كافي من التعليم، فصار الألمان يظنون أن المسلمين في كل أنحاء العالم كذلك. وصار المسلمون يتكتّلون في أماكن معينة في المدن ولا يختلطون بالألمان ولا يحتاجون اليهم، فلديهم بُنيتهم التحتية الخاصة بهم، فتجد في كل مدينة كبيرة في ألمانيا جزء يُطلق عليه إسم "إسطنبول الصغيرة".

وبالطبع أن ينشأ الأطفال في هذا الجو دون إتقان اللغة الألمانية، فيواجهوا صعوبات كبيرة عند إلتحاقهم بالمدارس، وتكون النتيجة ألّا يقدر على دخول الجامعات من أبناء المهاجرن أكثر من 3 % فقط، فيكون معظمهم عاطلين أو مدمني مخدرات أو متاجرين لها، أو أعضاء في عصابات عنيفة أو أصوليين إسلأميين. وفجأة أنتبه الألمان لخطورة عدم اللأمبالاة هذه فراحوا يحثون الأجانب على الإندماح. ولكن الأمر ليس بهذه السهولة، فأنت لا تستطيع أن تترك قوماً في عزلة لمدة أربعين عاماً ثم تأتي فجأة

لتطلب منهم الأنفتاح بين عشيّةٍ وضُحاها ،فالمسألة ليست مثل مغارة "علي بابا"التي تُفتح بالمقولة السحرية"أفتح يا سمسم" وقد إكتشفت بعد سنةكاملة زرت فيها هذا المسجد أنه ينتمي لجماعة "ميلي جوروش" وهي منظمة تركية تراقبها المخابرات الألمانية بإعتبارها منظمة أصولية مناهضة للدستور الألماني.

ومع ذلك وأن هذه المنظمة تدير أكثر من 500 مسجد في كل أوروبا ولم تغلق السلطات أي مسجد منهم على الاطلاق. فالدستور في أوروبا يحمي الجميع حتى بعض من لا يعترفون به. ولكن المسلمين الأتراك يشعرون دائماً أنهم ليست لديهم كل حقوق المواطنين، فغير مسموح لهم بالذبح على الشريعة الإسلامية داخل الأراضي الألمانية وغير مسموح لهم برفع الآذان من خلال مكبرات الصوت من المساجد ولكننا نحن الطلاب العرب كنا نعاني أكثر من الأتراك.

فمعظم المصلين في المانيا من الأتراك، والمساجد والمؤسسات مبنية حسب إحتياجات الأتراك، فكانت خطبة الجمعة بالتركية.. وكان فهمهم للإسلام فهماً خاصاً إنصهر فيه الإسلام بالقومية التركية. ولهذا فلأ يجد بعض الطلاب العرب مكاناً في المجتمع الألماني ولا بين المهاجرين الأترا ك.

والشباب التركي الغير متدين يجد العديد من الأندية الشبابية والديسكوها ت الخاصة بالاتراك فقط، فلا يشعرون بالضياع التام حتى لو فقدوا دينهم. أما با لنسبة لنا نحن الطلأب العرب فكنا بين خيارين أثنين :

* إما التديّن التام وبالتالي العزلة عن الألمان،

* أو الإنصهار التام ونسيان الدين وهكذا أصبحت مشتتاً بين الجامعة والمسجد وأفلام البورنو ومع الوقت ومع غياب الرقابة الإجتماعية، أصبحت لا أجد معنىً في زيارة المسجد وأصبح "تديّني" مجرد شيء مظهري من أجل الإستهلاك المنزلي! أصبح

"إيماني" مثل إيمان المسلم الذي يأكل لحم الخنزير لكنه يصر أن يكون الخنزير مذبوحاً على الطريقة الإسلامية ..

بدأت العمل في محطة لغسيل السيارات لأكون مستغنٍ مادياً عن "أنطونيا" وكانت تعجبني هذه المهنة. فقد وجدتُ فيها شيئاً روحياً إسطورياً.. ربما رغبتي في تطهير الذات. ولكن بعض الزبائن الألمان كانوا يُضايقونني كثيراً بغرورهم وتدليلهم الزائد عن الحد لسياراتهم..

فقد جاء أحدهم ذات مرة بسيارته المرسيدس فغسلها له غسيلاً يدوياً مُحكماً كالعادة ثم تركت السيارة تمر داخل المحطة الإلكترونية. جاء بعد قليل وإشتكى أن إطارات العجلات لم تكن على درجة كافية من النظافة، فغسلتها مرة أخرى وسمحتُ له بالمرور في المحطة الإلكترونية مرة ثانية، ولكنه عاد من جديد وهو غير راضٍ عن نظافة العجلات؛ شعرتُ بموجة عارمة من الغضب، فدخلت إلى المحطة وعدت وبيدي "شاكوش" وصرخت في وجهه:

* "أنا أعرف أنك ربما تحب سيارتك أكثر من حبك لزوجتك، وأعرف أنك تغسلها أكثر مما تغسل نفسك، ولكن هذه ليست مشكلتي ،أُقسم لك أنك إن لم تغرب عن وجهي فوراً فإني سأهشّم لك المصباح والزجاج بهذا الشاكوش"..

فرَّ الألماني مذعوراً، وإشتكى فيما بعد لرئيسي في العمل وكان تركياً..

فقال لي رئيسي :

* "لقد كان عملاً جيداً منك. فلا يجوز التعامل مع هؤلاء المغرورين إلّا بهذه الشجاعة!" أحسستُ بأنه قد تراكم بداخلي كم هائل من العنف، وبدأت قمة جبل الجليد تظهر شيئاً فشيئاً ..

الأدغال

أصبحت علاقتي بـ"أنطونيا" مجرد صداقة باردة.. وقد كانت مشغولة بإصلاح علاقتها مع اطفالها. وكانت تبحث عن روحانيات جديدة، فقررت الذهاب إلى رحلة طويلة للهند للبحث عن ذاتها. كانت رحلتها فرصة ذهبية لي للإستمتاع بقدر أكبر من الحرية. فرحتُ ذات ليلة لأحد "ديسكوهات" المدينة أبحث عن مغامرة حقيقية.

دخلت إلى الملهى ومذاق الحرية اللذيذة يملأ حلقي ورائحه الهواء المشبَّع بالتبغ والكحول تزكم أنفي، وصوت الطبول الرتيبة يملا أذني.

طلبتُ من "البار" كأساً كبيراً من النبيذ الأحمر، ولكنني لم أشرب منه.

جلستُ في ركن من أركان الملهى أراقب الشراب الداكن يرقص في الكأس وأنا أتذكر إحدى قصائد "عمر الخيّام" التي تبدأ و "إن القرآن يبدو أكثر جمالاً عندما يُنقَش على كأس الخمر ! ياله من زنديق! .يالها من صورة جميلة تخيّلت نفسي أجلس في حديقة فارسية وأتحاور مع متصوّف فأسئله:

* "هل الخمر حرام؟" فيرد عليَّ بإجابة غامضة:

* "إن الخمر حرام، ولكن الخمر أيضا طريق.. وكل الطرق تؤدي إلى الله .

"فناء – بقاء – توكّل"

رحت أتذكر ألمتصوفين في مصر وهم يرقصون ويذكرون الله.. كان منظر الشباب والشابات في "الديسكو " لا يختلف كثيراً عن رجال الطرق الصوفية، فقد كان كل منهم يطوّح رأسه يميناً وشمالاً باحثاً عن النشوة والخلاص. الكل يعبد الله على طريقته!" تذكرت مقولة أبي. جالت عيناي في صالة الرقص باحثتان عن فريسة

لفراشي في هذة الليلة.. كان من الصعب أن أفرق بين الفتيات، فقد كُنَّ شبيهات جداً، وقد كُنَّ يرتدين جميعاً نفس اللباس تقريبا وكأنه زي موحَّد.. أي فردية وأي حرية شخصية هذه التي يتحدثون عنها؟ فلكل مكان على ما يبدو قواعده المشفّرة. وأخيراً رأيتُ فتاة على قدر معقول من الجمال تهز "جسدها فوق المتوسط يميناً وشمالاً، فإقتربت منها وسألتها:

* "هل من الممكن أن ادعوكِ إلى شراب؟

* "..لا.. شكراً" قالت الفتاة دون أن تنظر إليَّ..

* " لا شكرا" قالت كل الفتيات لي في هذه الليلة"

ماذا؟ ما هي الحكاية بالضبط؟ كنت أظن أن الفتاة إذا جاءت وحدها للديسكو فإنها تأتي باحثة عن رجل تشاطره الفراش في ليلتها . وكنت أظنهن يفضلْنَ شباب الجنوب بدمائهم الساخنة، وخاصة شباب مصر الفرعوني بمسلاتهم المشهورة!! كنت أظن أنهن سئمنَ العُصبان الألمانية الشاحبة ذات الجلدة الأمامية الغير مقطوعة.. فلماذا لم تستجب واحدة لدعوتي؟ حاولت مرات عديدة في ليالي عديدة دون أي توفيق..

أوشكَت رحلة "أنطونيا" إلى إلهند على الإنتهاء وكان مدفعي لم يطلق قذيفة واحدة بعد. وكنت أجلس ذات مرة في "ديسكو" جديد أُراقب كأس الخمر الممتليء أمامي تُداعبة أنوار المكان، ولم أشعر بأي رغبة فى مغازلة أية فتاة في هذه الليلة..

كان الخمر صديقي الوحيد حتى دون أن أرشف منه رشفةً واحدة.

وعندما كنت أجلس هادئاً في إحدى زوايا المكان لاحظت أن فتاة جميلة جداً كانت تنظر إليَّ من حين لآخر، ولما أطلت النظر لها إبتسمت لي إبتسامة إغراء، فأستدرت حولي لأتاكد من أن هذه الإبتسامة كانت موجهة لي أنا..

رددت عليها البسمة بالبسمة فجاءت نحوي تتراقص وهي ترتدي "ميني جيب" يُظهِر ساقيها الجميلتين وفخذيها الأبيضين، وكانت ترتدي "بلوزة" عقدتها "تحت ثديها فأظهرت بطنها وسُرَّتها وضغطت ثدييها لأعلى .

* "هل أنت هنا وحدك الليلة؟" سألتني سؤال تقليدي يسأله الجميع للجميع في مثل هذا المكان .

* "نعم.. وأنتِ؟ هل أنتِ هنا وحدك؟" سألتُها بقليل من الإبداع أيضاً..

* " نعم.. أنا وحدي دائماً!" قالت بدلال غريب.

* "لماذا ؟ هل فقد الرجال بصرهم حتى يتركوا جميلة مثلك تسهر وحدها؟" سألتها وقد شعرت بفنون الغزل الشرقي يتحرك بداخلي. الآن فهمت كل شيء. إنهم بالفعل يحبون شباب الصحراء وحنطتهم الجنوبية، ولكنهم ربما يفضلون الهاديء منهم الذي ينتظر فريسته بصبر وكبرياء .

* "من أي بلد أنت؟" سألتني الجميله النصف عاربة..

* "أنا من دُبي" قلت لها وأنا أعرف أن الألمان يعشقون أغنى بلدان الخليج.

لابد انها ستظن الآن أنني إبن أحد أمراء البترول الأثرياء. وبالفعل تهلل وجهها بإلبِشْرِ عندما سمعت كلمة "دُبي" وكأنها قد أصابت ستة أرقام صحيحة في لعبة اليانصيب..

"دبى؟ هذا رائع.. أنا أحلم دائماً بالذهاب إلى دُبي.. ولكني سمعتُ أن الجو هناك بالغ السخونة" قالت بإبتسام .

* "لَن يكون أكثر سخونة منك أنتِ أيتها العاشقة" قلتُ وقد فك الله عقدة لساني.

* "اووه! أنت لطيف جداً.. ما إسمُك ؟".

* أحمد بن راشد آل مزعوم!" قلتُ ببرود الأمراء مُدركاً أنها لن تستطيع حفظه..

* "وانتِ ؟" ."إسمي نادين"

* "إسمٌ جميل ووجه أجمَل"..

إبتسمت نادين عن أسنان بيضاء نظيفة وقالت "هيا بنا نرقص ذهبت معها لحلبة الرقص وكان جسدي لا يدري كيف يتحرك على إيقاع "تلك الموسيقى العقيمة، وكانت موسيقى بطيئة، ولم أكُن أُجيد الرقص البطيء.

* إن سيقانك جميلة جداً، وثدياكي يدعواني أن أعصرهما عصراً!" كاد لساني أن يفضح ما تظنه رأسي، ولكنني عدّلت العبارة في آخر لحظة وقلت لها "عيناك جميلتان جداً! أَزَرقاوتان هما أم خضراوتان؟" سألتها وأنا أنظر إليها ..

* "خليط رمادي أخضر" أجابت مُبتسمة ..

وضعت يدي على خصرها وبدأنا الرقص... كان كل شيء فيها يُغريني.. جسدها الطري، عطرها الثمين.. صوتُها الواثق وأنفاسها التي كنت أشعر بها عند عنقي وهي تعانقني أثناء الرقص وصدرها الممتليء الذي التصق تماماً بصدرى.

لم يكن من الصعب عليها أن تلاحظ قطعة اللحم المنتصبة في بنطلوني وقد التصقت بفخذها أثناء الرقص .

* "أُريد أن أزورك مرة في دبي" قالت ربما لتخفف عليَّ حرح إنتصابي..

* "على الرحب والسعة! ولكن عليك أن "تعلمي أن إمرأه في جمالك قد "تسبب قتالاً بين الأمراء أيهم يحصل عليها .

* أنا لمن يدفع أكثر!" قالت مازحة .

* "سادفع فيكي أنا "ناقة" قلتُ مداعباً .

* إذا فأنا لك!" قالت وكأنها دعوة للخطوة القادمة.

سقتُها راقصاً إلى الحائط خلف حلقة المرقص حتى إستندت بظهرها عليه وأنا لازلت التصق بها.. ربما كانت خطوة سريعة.. ربما كان عليَّ أن أدع الطعام يستوى على مهله ، ولكنني كنتُ "تحت ضغط جسدي رهيب.

أضف إلى ذلك الضغط الزمني، فكنت أُريد إنهاء المهمة قبل عودة أنطونيا .

* "نادين.. أريد أن أُقبّلك!" قلتُ مُدركا لخطورة هذا السؤال".
* أنا موافقة، ولكن ليس في هذا المكان" جائت إجابتها التي فاجئتني واثارتني .
* "أين تُفضلين؟" سالتُها بدون صبر .."ما رأيُكَ في أن نذهب إلى غرفتي بوسط المدينة فنجلس هناك براحتنا ونتناول بعض الشراب؟" جائت إجابتها التي لم أكُن حتى أحلم بها ..

خرجنا من الديسكو هاربين وركبنا "تاكسي إلى مسكنها.. دخلنا إلى غرفتها الواسعة المنمّقة المرتبة بطريقة جذابة:كنبة مريحة في الركن يواجهها جهاز تليفزيون غالي وسرير واسع في الجهة الأخرى من الغرفه عليه غطاء بنفسجي مُزكش، تعلو السرير صورة للوحة عَبّاد الشمس لـ"فان كوخ" وفي ركن آخر تمثال "بوذا" على منضضة زجاجية وحوله بعض التحف..

أخذت نادين بعض الملابس من دولابها الأبيض وإختفت في الحمام لدقائق، في حين "كفتُ أجلس على الأريكة وأشاهد الغرفة المريحة. عادت نادين ترتدي فستاناً أسوداً شفّافاً وقصيراً جداً أكثر إغراء مما كانت ترتديه من قبل، وسألتني ماذا أشرب، فقلتُ لها "نبيذ أحمر".

فتحت "الفاتربنة" الزجاجية وجاءت بزجاجة النبيذ وكأسين كبيربن نظيفين. ثم أعطتني الزجاجة والفتّاحة، ولكنني إعترفتُ لها أنني لا أُجيد فتح الخمر فإستغربت جداً، فلا بوجد رجل في أوروبا لا يستطيع فتح زجاجه النبيذ .

فتحت "نادين" الزجاجة ببراعة وصبَّت الشراب في كاسينا فكدتُ أن أرى كل ثدييها وهي تنحني لصب الخمر. ثم جلَسَت بجوا ري، فبادرتُ بجذب عنفها نحوي لتقبيلها، ولكنها تمنعت برقة وقالت:

* "إشرب نبيذك أولاً أريد أن أرشف خمر شفابفك أولاً!" ..قلت مغازلاً، وهنا يبدو أن الغزل الشرقي لم ينفع هذه المرة فقالت:

* "لابد أن نتفاوض أولاً.. أعلم أنني كان بجب على أن أخبرك من بذلك قبل أن نأتي إلى هنا، ولكن أود أن أكون صريحة معك.. أنا في الحقيقة "عاهرة" ولا أفعل هذه الأمور إلّا مقابل المال.. وأنا أتقاضى 100 مارك مقابل الجنس و300 إذا كنت قضاء الليلة هنا.. فما رأيك؟"

قالت بإبتسامة طفولية جاء إعترافها صدمة لي، فكنتُ أظنها جاءت معي لغرفتها محبةً لسواد عيوني، ولكن يبدو إنها كانت تطمع في بعض دولارات البترول الخليجي لا أكثر.. ولكنني سرعان ما أفقت من صدمتي. فأنا ما جئت إلى "الديسكو" إلا لصيد فتاة أنام معها، فلا فرق بيني وبينها ..

* إسمعي يا نادين.. ليست لديَّ مشكلة مع ما قلتي، ولكنني أنا أيضا لديَّ إعتراف لك.. أنا لست أميراً من"دبي"، ولكنني "إبن غجر" من مصر وإسمي الحقيقي هو "شاكر عبد المتعال".. وانا أكسب قوتي من غسيل السيارات.. ولكن لو كان بجيبي 100 مارك لأعطيتكِ إيّاها على الفور، بل لو كان معي مليون مارك لأعطيتُك، فأنت أجمل إمرأة رأيتها في هذا البلد حتى اليوم وأنت أجمل كذّابة في العالم! قلتُ لها "مصارحاً ومغازلاً في الوقت نفسه.

ويبدو أنه كان لهذه المقولة تأثيراً فعالاً، فقد واصلت إبتسامتها المغرية وهي تهز رأسها.. فالمرأة مرأة حتى لو كانت عاهرة، يخدّرها الكلام المعسول ويُسحرُها المديح.

بدأنا نمزح ونتسامر وكان حواري معها أصدق حوار لي في المانيا، وكانت غرفتها أدفأ الغرفات. قالت لي إن الدعارة ليست حرفتها الرئيسية وإنما هوايتها، فهى تعمل في النهار "كوا فيرة". وقد إكتشفت في عمر الثامنة عشر انها مدمنة جنس فقررت ضرب عصفورين بحجر وجعلت هوايتها حرفة ثانية.

وهي تذهب للديسكو إما لإصطلياد شاب غني يدفع أو شاب قوي يمتعها. وقالت لي انها جاءت بعض المرات برجال عرب ومسلمين إلى هذه الغرفة، ولكنها كانت

تعجب من تصرفاتهم، فهم يمارسون معها الفحش وفي نفس الوقت يحاولون إقناعها بالتوبة وبإعتناق الإسلام ..

لاحَظتْ"نادين" أنني أواصل النظر لكأس الخمر الممتليء دون أن أشرب منه فسألتني:

* "لماذا لا تشرب نبيذك ؟"..

* "أنا لا أشرب الخمور" بُحتُ لها بآخر أسراري

* "لماذا طلبت الخمر إذا" ؟...

* "لأن رؤية الخمر تُسكرني مثل شربه تماماً"..

* "أنا لا أفهم ذلك، كيف تعرف سكر الشرب إذا كنتَ لم تشرب أبداً ؟" .. لم أجد رداً لسؤالها.

* "هل لو طلبتُ منكَ أن تشرب من أجلي ستفعل؟" سألتني بإبتسامة جميلة ..

* "هذا أمر يتعلق بالمقابل الذي سأحصل عليه منك!" قلتُ بنظرة غير بريئة..

* "لو شربت الكأس كلّه سألعب معك لعبة لن تنساها طوال حياتك!" قالت وهي تغمز بعينها ..وراحت تشرح لي أصول اللعبة:

* قالت إنها ستجلس على السرير ومعها كأسها وسأجلس أنا على الأريكة ومعي كأسي وسيخلع كل منّا قطعة من ملابسه ثم يلقيها للآخر في الطرف المقابل من الغرفة.. ثم نتبادل الأماكن ونلتقي في وسط الغرفة فلا تتلامس إلّا كأسانا.. ثم يشرب كل مِنّا رشفةً من كأس الآخر، ثم يجلس كل منا في مكان الآخر وينتزع قطعه أخرى وبلقيها لزميله، حتى نصبح عاريين تماماً وحتى يفرغ الكأسين تماماً.. ثم يرتدى كل منّا ملابسه.. ثم أذهب أنا لبيتي وتنام هي وحدها.

* وافقتُ على شروط اللعبة بدون تفكير. كنتُ فقط معترضاً فيي داخلي على النهاية التى إختارتها " نادين" للعبة التي لا تنتهى في السرير.. ولكن الليل كان لايزال طويلاً و ياما في جرابك يا حاوي..

نزعت "نادين" فستانها الأسود الشفّاف وألقته إليَّ فلم يبقَ سوى ملابسها الداخلية السوداء.. كانت طويلة رشيقة القوام ولكنها لم تكن نحيفة. فنزعتُ بنطلوني والقيت به إليها وإلتقينا في منتصف الغرفة... وشرب كل منا من كأس الآخر، وكانت رشفة "لاذعة" ومرّة.. أَهذا هو الخمر الذي يكتبون فيه الشعر؟! حقاً نسمع بالخمر خيرٌ مِن أن نراه... ونراه خيرٌ من أن نذوقه!!

ثم تبادلنا الأماكن وخلعت هي "سوتيان" صدرها فظهر ثدياها الجميلان عاريين ومتأهبين لكافة الإحتمالات. وما هي إلّا دورة أخرى حتى وقفنا عاريين تماماً كل في طرف من الغرفة..

واقتربنا بحذر وشهوة من منتصف الغرفة ورشفنا آخر رشفتين ففرغ الكأسين وإمتلأت رأسي وجسدي بالشهوة.. أخذت من "نادين" كأسها ووضعته على الأرض بجوار كأسي الفارغ ورحتُ أتلمس شفاهها بأصابعي فراحت تقبّلها وتمصها، فوضعتُ يدي على خصرها وعصرته ثم ضممتها بقوة إليَّ فالتصقَ صدرها العاري بصدري.. نظرت إليها بشهوة غامرة وقلت لها:

* "إذا لم أَنَم معكي الليلة فسأموت حسرة!" فردت وقد إبتلت عيناها ..

* "انا لا يُخلِّصُني أن تموت" قالتها ثم قرَّبت شفاهها من شفاهي وراحت تقبّلها ببطء شديد.. ثم أمسكت بيدي وساقتني إلى السرير، ثم فتحت "الكومودينو" وجلبت منه عازلاً ركبته بتمكّن على قضيبي.. ولم يكن العازل الوحيد الذي إستخدمناه في هذه الليلة.

عدتُ في الصباح هادئا إلى البيت وأديت غسل الجنابة وصليت الصبح بدون أي مؤشرات للشعور بالذنب.

عادت "انطونيا" بعد أيام من الهند. وكنت سعيداً بعودتها. راحت تحكي لي الفصحى والطرائف التي صادفتها في رحلتها وكنت أصغي اليها بإستمتاع. لم أكن أشعر

بالذنب تجاهها بالمرّة. فما فعلته في غرفة العاهرة لم يكن موجها ضدها ولكن ضد حرمان السنوات الخمسة والعشرين المنصرمة من عمري..

كانت "أنطونيا" مدرِّسة وكانت لديها عطلات كثيرة وكانت تسافر كثيراً وحدها. وكانت كل رحلة لها تقابلها رحلة لي في عالم النساء. كانت "نادين" تخدمني دائماً بالمجّان حتى قررت الإنتقال لمدينة "هامبورج" ، فرحتُ أبحث عن لذّاتي بين الطالبات الأجنبيات الغير معقدات.

فجربت أجناساً كثيرة: أرمينيا.. بولندا.. إيطاليا..كوريا.. روسيا.. البرازيل....

وكانت أسهل تلك الطالبات هي المشتركات فى برنامج "إيرازموس" للتبادل العلمي، فكنَّ يأتين لفترة ستة شهور أوعلى الأقصى سنة لألمانيا للدراسة ، وكُنَّ يستغلْنَ هذه الفترة في الإحتفال والإستمتاع. كنت التَقِ بالواحدة منهن في إحدى الحفلات في بيت الطاعة وأُقنعها أني خيبر في قراءة الكف والفنجان.. وكنت أذهب معهن لغرفهن لأقرأ لهن الطالع فألمس أيديهن وأحسس عليهن ثم اقترح عليهن اللعبة التي علمتنيها "نادين" فكان معظمهن ينبهرن بها وينهينها معي في السرير ولكن هذا لا يعني أن كل بنات أوروبا كُنَّ عاهرات أو سهلات المنال.

فمعظمهن يعشن في علاقات "ثابتة مع"بوي فريند" يخلصْنَ له إخلاص المرأة لزوجها. وحتى إذا كانت البنت بدون صديق فإنها لا تذهب للسرير مع أول رجل تُصادفه..

هذه فقط مجرد صور نمطية نحتفظ بها في أذهاننا نحن الشرقيون. فقد حدثَ أن دعتني إحدى الزميلات الالمانيات إلى غرفتها لشرب الشاي معي والحديث عن رحلتها التي كانت تخططها لمصر .

ففهمت ذلك على أنه دعوة لممارسة الجنس. فما إن دخلت غرفتها بدأت بمغازلتها وحاولت الايقاع بها في السرير ولكنها إنزعجت جداً وطردتني من غرفتها على الفور..

فما كانت البنات التي أتفحش معهن إلّا تائهات مثلي يبحثن عن اللذة السريعة.. والطيور على أشكالها تقع ..

صرتُ أمارس نزواتي أثناء غياب أنطونيا وأثناء حضورها، فراحت "تشعر بتغيري. كُنّا نجلس معا على مائدة الطعام فقامت وأحضرت زجاجة النبيذ الأبيض وصبَّت لنفسِها كأساً، فثرتُ عليها وقلتُ: "أَلَمَ أقُل لكِ إنني لا أحب مَن يشربون الخمر"؟

* "لماذا تحرّم عليَّ ما تُحله لنفسك؟" سألت دون أن تنظر إليَّ ..

* مَن قال لكِ إني أشرب الخمور؟" سألتها وأنا أصطنع البرود..

* "أنا لم أفقد حاسة الشم بعد يا شاكر! أنا لستُ مغفّلة"..

* "ماذا تقصدين؟"..

* "لا شيء! هناك أشياء مِن الأفضل ألّا يتكلم عنها أحد لأن الكلام عنها لا يجلب إلّا المرارة" ..

غربة مضاعفة

ساعدني صمت أنطونيا وغياب أية رقابة إجتماعية أو دينية على ممارسة قضم الثمار المحرّمة . ولكنني مع ذلك كنتُ أزور المسجد من فترة لأخرى. عدتُ لممارسة نفس اللعبة التي كنتُ أتقنها "تماماً في القاهرة، وهي لعبة الرقص بين الكراسي تغيير المعسكرات.

صرتُ سجيناً بين عالمين لم تعد حدودهما واضحة المعالم. وكان كل عالم يمثل لي ملخص من إرهاقات وخيبات أمل العالم الآخر.. ولكن أسلوب الحياة الغربية طغى في النهاية سافرتُ الى مصر لزيارة عائلتي بعد عامين من الغياب. إستقليت تاكسي من مطار القاهرة وإتفقت مع السائق أن أدفع له مبلغ مائة جنيه فى مقابل "توصيلي قريتي، ولكنه طمع فيما بعد وطلب مائة وخمسين عندما علم أني قادم من المانيا:

* "خمسين جنيه معلش حيفرقوا معاك يا باشا لكن حيفرقوا معايا أنا، وبعدين البنزين غِلِي وكل سنة وأنت طيب الغلبان" هذا هو إسم قريتنا الذي أعتبره إحتيال على اللغة العربية. فهناك غالب وهناك مغلوب.

أما مصطلح" !"الغلبان" فهو رفض للإعتراف بالهزيمة، تماما مثل مقولة "هوا بعافية شوية" عن شخص مريض

* "خُش يمين يا باش مهندس"

أيضاً "باش مهندس" هذه هي إحتيال على شرف مهنة الهندسة كل شيء بدا مكانه وكأن العامين مَرّا عليَّ وحدي . نُقرة.. ضحضيرة.. مطب صناعي.. مطب طبيعي. الحقول مازالت كما هي. وحمزاوي لا يزال يجلس أمام دكانه الذي لا ببيع فيه سوى

الفنضام والصابون وسجائر البلامونت. ولكن عندما تعمق التاكسي بين المساكن فوجئتُ بتغيرات كثيرة.

* "ماجيك فون"، "الجهاد للإتصالات وخدمات الموبايل"،

أطباق ساتيلايت فوق البيوت. رأيت نساء مثل الخيام يمشين مُتَّشحات بالسواد في شوارع القرية ولا يظهر منهن شيء، وهي ظاهرة جديدة لم أرَها من قبل .

وقف التاكسي أمام المنزل. سلمتُهُ مائة جنيه فقظ لا غير:

* "الإتفاق كان كده" قلت له بطريقة المانية جافة ..

* ما جبتش مراتك معاك ليه يا شاكر؟ البلد كلها مستنية تشوقها شكلها إيه يا إبني!" سألتني أمي وهي تقشّر الثوم

* "عندها شغل"

* "هي بتشتغل إيه ؟".

* "مُدَرّسة ".

* "إوعا تكون وِحشه يا شاكر"

* "لا مش وِحشه".

* "و عندها كام سنة بقى؟"

* "هو تحقيق يامّه؟".

*" "إيه يابني مالَك؟ بتكلمنا بالقطّارة ومن طرف مناخيرك ليه؟ إيه اللي جرالَك؟" دخلت أختي الكبرى صباح البيت وسلَّمت عليَّ ثم انهمكت في مساعدة أمى في تجهيز محشي الكرنب .."شاكر، إحنا حنطاهرو البت رباب بعد بكره ، أنا كنت مستنياك لما تيجي عشان تنقطها نقوط حلو.. بالمارك"-

* "ياخويا.. آه الجنيه ما يلزمنيش!" قالت صباح .

* سيبي البنت في حالها وبلاش الجهل دا"، قلتُ لها بحدة ..

* جهل إيه يابني؟ الناس كلها ماهي بتعمل كده!" دخلت أمي في المناقشة..
* "ولو الناس كلها مشيت عريانة في الشارع حتعملوا زيهم؟.
* "إبه العبارة دي؟ ما تحترم نفسك يا ولَه!" ردّت أمي في غضب..
* "أنت عايزها لما تكبر تجرى ورا الشباب في البلد وتجيب لنا فضيحة؟" رددت صباح نفس الحجة المعتادة..حاولتُ إقناعها أنه لا علاقة بين هذه العادة الأفريقية الأصل لا بالإسلام ولا بعفة المرأة ولكنها لم تقتنع ..
* "إنتي مش فاكرة يا صباح الألم اللي الختان سببهولك وأنتي صغيّرة؟"

خيَّم الصمت على صباح للحظات ثم قالت غاضبة: "هو كل من عاش له سنتين بره عاوز ييجي ويغيّر البلد على مزاجه؟"

لم أنجح في إقناع أختي التي عانت بنفسها من هذه العادة ورأيتُها وقد تغيرت تماماً وفقدت حساسيتها وصارت جزء من النظام الذي يعتمد على البتر والتخويف.

حاولتُ أن أفهم سر تعنّت "صباح" وتصميمها على خان أبنتها.

ربما كانت تعتبر ختان إبنتها تبريراً لما حدث لها هي في طفولتها. فلو اقتنعت بحُجَجى ضد الختان لكانت بذلك تعترف إنها إحتملت كل الآلام عندما كانت طفلة بدون داعي .يبدو أنني تعلمت اللغة الألمانية ومنطقها العقلاني ونسيت لغة أهلي وأسلوب التحاور الأفضل معهم.

لاحظتُ أن الأسرة لم "تكن" تعتبرني كبيراً. فقد إنغلقت الفجوة التي تركتها برحيلي سريعاً فأصبحوا يعتادون الحياة بدوني وإتخاذ القرارات العائلية المهمة دون الرجوع إليَّ.

لم يدُر بيني وبين أبي خلال تلك الزيارة سوى حوار بسيط واحد.

وكان أبي قد توقف عن أداء خطبة الجمعة في المسجد وبدأ يتقشَّف وينعزل عن الناس ويقرأ القرآن في خلوته بالساعات. ولما سألته لماذا "توقف عن صعود المنبر قال إن البلد قد إمتلأت بالمساجد والوعّاظ وإن كل مَن هَبَّ ودَب صار يصعد المنبر.

وهو يعتقد أن المسلمين اليوم لا يحتاجون إلى وعظ أكثر ..
جاء العديد من شباب القرية لزيارتي ليتوسلوا إلي أن أُساعدهم للسفر إلى المانيا.
كانوا يتعجبون أنني قضيت سنتين في المانيا وعدت بدون المرسيدس.
عرض عليَّ أخي "محمد" أن أُشاركه في مشروع صالة ببلباردو وفيديو جيم على أن أدخل أنا برأس المال وهو بالمجهود.
قلتُ له أني أغسل السيارات لأُغطّي مصاريف دراستي، نظر إليَّ غير مصدّق.. رحتُ أتجوَّل في القاهرة وأتخيل هناك مكاناً لي بعد عودتي من ألمانيا ولكنني لاحظت أن كل الأماكن محجوزة أو مغلقة. رأيت شباباً كثيرين من خريجي الجامعات يبيعون الجوارب الصيفية على المقاهي وفي الشوارع. أبواب السياسة كانت موصدة..
والإقتصاد كان ولا يزال في أيادٍ فولاذية لا تُفتح.. والتعليم المصري قد "تدنّى إلى أسوأ درجاته.. راحوا يطلقون أسماء "إبن النفيس" و"إبن رشد" على المدارس دون أن يدري الطلبة ولا حتى مدرسيهم مَن كان "إبن النفيس" و" إبن رشد"...
رأيت أن سوق الكتب في القاهرة قد إمتلأ بكتب صفراء مُمَوَّلة بدولارات بترولية لنشر فكر وهابي مُتعصّب. سمعتُ عن مصادمات كثيرة بين المسلمين والأقباط في القرى والمدن.
كما تمكنت الجماعات الإرهابية من تنفيذ العديد من العمليات التفجيرية في بعض الأماكن السياحية.. عاد بعض المحاربين القدامى من أفغانستان التي لم يتعلموا فيها إلا القتل وراحوا يُصفّون حساباتهم القديمة مع البلد الذي طردهم بعد قتل السادات.
وأصبحت مصر التي كانت دائماً مسالمه والتي قال عنها القرآن:
* "إدخلوا مصر إن شاء الله آمنين"مكان غير مأمون للضيوف ولأهل البلد أنفسهم

شاكر الثاني

قرية الغلبان 1972. تبدأ قصتي شهوراً قبل ميلادي، دفنت أمي إبنها للمرة الثانية على التوالي وسقطت بعدها في إكتئاب عميق. لم يَنجُ من الموت من أبنائها حتى ذلك الوقت سوى أختي الكبرى "صباح"، ولكنها لم تكن عزاءاً كافياً "لأمي ولأسرة أبي التي كانت في إنتظار الولد.

لابد إنني أحسستُ بالفطرة وأنا في بطن أمي بيأسها وقلة حيلتها وعدم ثقتها بالحياة. تزوجت أمي مثل معظم نساء جيلها في سن مبكّر ولم تكن تتقن التعامل مع أظفالها. راحت جدَّتي لأبي تعنّفها بعد موت أخي الأكبر "شاكر" قائلةً:

* "واحدة زيّك ماتستاهلش تخلّف عيال".

كانت جدتي غير سعيدة بالمرّة بإختيار أبي لأمي القاهرية المدللة، خاصة وأن أبي قد أصبح إماماً للمسجد الكبير في القرية.. وعلى الرغم من أنني ولد، فلم يكن مولدي عزاءاً كبيراً لأمي..فقد غلب عليها الخوف أنها ستفقدني كما فقدت أبنائها الذكور مِن قبلي. أضف إلى ذلك أنني لم أكُن أخضر العينين مثل شاكر الأول ومثل والدها الذي كانت تُقدسه ..

لم أكن شيئاً سوى عوضاً عن شاكر الذي مات، وذلك أطلقت عليَّ نفس الإسم، ولكن يجب ألّا أتمرَّد على هذا الإسم، فهو إسم جميل مقارنة بإسماء أخرى يُعطيها الآباء لأبنائهم الذين مات أخوتهم من قبل مثل "شحات"، "جعران"، ضفدع".كانت أمي على درجة من الرضى لأنني كنتُ أبيض البشرة مثلها ولم أكُن "قرداً أسوداً" كما كانت تُسمي سكان القرية.. لم تكن أمي عنصرية بالمعنى المألوف ولكنها كانت تكره قريتنا كُرهاً شديداً ،ولا عجب في ذلك فقد جائت إلى قريتنا

من القاهرة وكانت المرأة الوحيدة الحاصلة على الشهادة الإعدادية هناك. لابد أنها لاقت صعوبات كثيره عندما انتقلت من المدينة بأنوارها ورفاهيتها إلى قرية مُملة، والذى زاد الطين بِلّة هو أن أبي كان متزوجاً من إمراة أخرى وكان له ولد منها وكان على أمي أن تعيش مع أبي وزوجته وولده وجدتي وإثنين من أعمامي مع عائلاتهم في بيت العائلة الكبير حيث لا كهرباء ولامياه.

وقد أقنعت أمي أبي بعد عام من زواجهما أن يُطلّق زوجته الأولى وأن يبنى لأمي بيتاً جديداً من الحجر ويشتري لها سيارة .. وباع أبي ثلث ميراثه ليحقق لأمي مطالبها، ولكن ذلك لم يكن كافياً، فقد كانت أمي تسير في القرية برأسها مكشوفة وبملابس "موضة" من" البندر" مما أثار إستياء الكثيرين في القرية خاصة أعمامي وزوجاتهم .. وبعد طلاقها من أبي لم تجد زوجته إلأولى ملأذاً سوى الزواج من رجل عجوز كانت ممرضة له وخادمة لأولاده ،ولكن لم يكن ممكناً لها أن تأخذ إبنها معها الى بيت زوجها الجديد، فأبي لم يسمح بذلك. وكذلك زوجها ، المجتمع كله .يرفض ذلك، ولكن أحداً لايسأل: لماذا؟ كنتُ أتساءل:

* أين كان ضمير أمي عندما دمّرت مستقبل زوجة أبي الاولى؟ ولكن أمي لم تفعل سوى ما فُعِلَ بها وبأمها، فقد وقع جدي في غرام إمرأة قاهرية فطلَّق جدتي وحرمها من إبنتها التي صارت فيما بعد أمي..

وبعد زواج أمي من أبي حرم جدي أمي من الميراث وباع كل ثروته بعقد صوَري لزوجته الجديدة وأبنائها" ولذلك فقد كانت أمي بحكم تجاربها لا تثق بمجتمع الذكور وأعرافَهُ فإستمرت رغم معارضة الأسرة في إرتداء ملابسها القاهرية في القرية متحديةً للجميع. وقد صارت بذلك مصدراً أساسياً للقيل والقال في القرية ..

لم يُطلق عليها أهل القرية إسم "مرات الشيخ" مثل زوجة أبي الأولى وإنما" الوليّه بتاعت مصر ..

كانت أمي مثلاً أعلى لعدد قليل من نساء القرية الذين كانوا يجيئون إليها قاصدين نصيحتها حول إختبار ملابس زفافهم أو كيفية وضع المكياج. ولكن معظم النساء كانت تكره أمي وكانوا يعتبرونها مغرورة ..

أصبحت أمي ظاهرة غير مفهومة في القرية. وماذا يفعل الناس في بلادنا عندما يلاقون ظاهرة غير مفهومة؟ ،بالضبط: إنهم ينسجون حولها أسطورة خيالية. ولأن معظم أفراد عائلة أمي كانوا بيض البشرة وذوي عيون خضراء فقد ذهب بعض سكان القرية إلى أن أصلهم من الصليبيين الذين غزوا شمال مصر في القرن الثالث عشر وإغتصبوا العديد من النساء الذين ولدوا فيما بعد أطفالا ذوي عيون زرقاء وخضراء.

وهكذا أصبحت أمي "بنت الصليبيين" والتصقت هذه الهوية بي أيضا منذ مولدي على الرغم من أن عيوني عسلية .

* "كانت ولادة سهلة جداً، ماحستشي بأي ألم خالص" قالت لي أمي عندما سألتها عن مولدي، إنه أمر مثير للدهشة، لأنني لو عرفت مسبقاً ما تُخبأه الحياة لي لما انزلقت منها بهذه الإنسيابية...

كان أول فبراير عام 1972" لم يحدث في القرية أو في مصر أو في العالم بأسره شيء خارق للعادة في يوم مولدي وهكذا كانت الشهور الاولى من حياتي غير خارقة للعادة كان عمري يزيد على العامين وكنتُ لا أزال أمص ثدي أمي مثل حيوان جائع. كانوا يحكون لي أنني كنت آتي إلى أمي وفي يدي قطعة من الخبز ثم أجلس في حُجرها فآكل من الخبز وأتجعّم بلبن ثديها.. حاولوا مرتين إقصائي عن ثدي أمي ولكن بلا جدوى، أولا:

* دهنوا ثدي أمي بالصبَار قبل أن تُرضعني ولكنني بصقت الصبّار المُر وحاولت الرجوع إلى ثدي أمي من جديد ، وبعدها سافرَت أمي إلى القاهرة وإختبئَت عند والدها، ولكنني أعدتُ إفتتاح ثديها بعد عودتها ولكن جدتي لأبي إنهالت عليَّ ضرباً

وراحت تصرخ في وجهي "عايز تفضل ترضع لحد ما يطلع لك شنب؟ العيال اللي بيرضعوا كتير مخهم بيبقى تخين وعمرهم ما هيبقوا رجّالة ".

فكم كنت أكره جدتي! لحسن الحظ فقد ماتت وأنا في الثالثة من عمري، لقد كانت المرأة العجوز تقرر كل شيء في بيتنا وكانت بعض قراراتها في غاية الغرابة، فقد كانت هي المسؤولة عن أن أخي الأكبر "محمد" قد ترك المدرسة نهائياً وهو في الثامنة من عمره فقد عاد محمد ذات مرة من المدرسة وعيناه حمراوتين مُنتفختين فسألتهُ جدتى:

* "مال عينيك يا وَله؟" فأجابها محمد:

* "العيال بيفسوا في الفصل وبيعمولي" فاقسمت جدتى: "أخسر ديني علي دين حنين إبن برسوم مانتا رايح المدرسة دي تاني" وهكذا ضاع مستقبل أخي لكي لا تخسر جدتي دينها .يقولون في أوروبا إن النساء في مصر مقهورات، ولكن إمراة مثل جدتي كانت بعون الله قادرة على قهر كل رجال مصر بنفسها. الحق أقول: الجميع يقهر الجميع في مصر: الحاكم بقهر زبانيته والزبانية تقهر الشعب..الرجال يقهرون النساء والنساء بقهرن أطفالهن والأطفال بقهرون الحيوانات.

وفي الواقع فإنه لايوجد مَن هو أكثر قسوة من الأطفال في مصر"" وفي الوقت نفسه فالكل عطوف وحبّوب ويخدمك برموش عيونه.. الجميع لا يزالون – وبرغم كل شيء – قادرون على الإبتسام النابع من القلب وكأنهم يعيشون في عالم أخر غير الذي نشأت فيه" معظمهم يقول:

* "نحن بخير والحمد لله"" والطريف في الأمر أنهم يقصدون ذلك فعلاً .لا أدري إذا كان تفائلهم هذا منبعه الإيمان أم قلة الحيلة أم أن السخرية والبسمة هما آخر سلاحين لهم ضد القهر وقسوة الحياة اليومية؟

كنت أتمنى لو ماتت جدتي قبل فطامي فقد كنتُ لا أريد ترك ثدي أمي أبداً، وكإنني كنتُ لا أريد أن أصبح رجلاً وكأنني كنت أشم رائحة المفاجآت التي كان قدري يُخفيها لي.. وأظن أن أمي أيضاً لم تكن ترغب في التوقف عن إرضاعي، وكأنها كانت تشعر بغريزة أمومتها أنها لو توقفت عن إرضاعي فإنها ستحمل من جديد ثم تفقد طفلها بعد الولادة، وقد كان ذلك بالفعل فقد حملت أمي بعد فطامي مباشرة وأنجبت طفلة أعدتها نفس إسمي مع إضافة تاء التأنيث، ثم ماتت أختي "شاكرة" بعد عام من ولادتها. ماتت أختي وعشت أنا..

عشتُ وحدي بين شاكِرَيْن مقبورين.

شعرتُ دائماً بفجوة باردة قبلي وبعدي، شعرتُ أحيانا بالذنب تجاه أخي وأختي لأنني عشتُ في حين أنهما ماتا، ولكنني فيما بعد قد رأيت أن القدر كان رؤوفاً بهما، أو أنه لم يُقدِّر لهما أن يَرَيا في حياتيهما ما رأيتُ، فقد عشتُ حياتي سجيناً بين مقبرتين لم يتبقَّ لأمي بعد موت أختي الصغرى سوى أختي الكبرى وأنا.

كانت تريدنا أن نصبح أفضل من كل أبناء القرية.. منعتنا من اللعب مع أبناء الفلاحين حتى لا نلتقط منهم القمل والأمراض المعدية. كانت تقول لنا:

* "عيال الفلاحين مابيحبوكوش فابعدوا عنهم أحسن". كان أمراً بديهيا لي كطفل أن المحيطين بي لا يحبونني،رغم أني لم أعكّر صفو أحد منهم ..

كنت أحب أختي الكبرى كثيراً، ولكنها نادراً ما وجدت وقتاً للعب معي، فقد كانت تذهب إلى المدرسة في الصباح ثم كانت تتعلم الطبيخ والخبيز والخياطة بعد الظهيرة. كان لها صوت عذب كالملائكة وكانت تغني سراً ولم يسمعها أحد سواي، فصوت المرأة كما هو معروف عَورة .. وخاصة إذا كانت هذه المرأة بنت شيخ الجامع. كانت أختي تغني لي وحدي كلما كان أبي وأمي خارج المنزل. إسمها "صباح" وهي الوحيدة بيننا التي لا يحمل إسمها معنى "الحمد" أو "الشكر" ..

وكان أخي لأبي يعيش أيضا معنا في نفس البيت ولكنني كنت أراهُ نادراً ،كان يدخل البيت مُتسللاً ويجيء كما دخل من دون أن يشعر به أحد وكأنه قطة شاردة ،كنت أتساءل: كيف يقضي يومه؟ فهو لم يذهب الى المدرسة ولم يتعلم أية حِرفة. وقد تركته أمي من باب وغز الضمير أو ربما من باب عدم المبالاة.

بفعل ما يشاء. أما أبي فقد كان مشغولاً عنا جميعا بمدرسة تحفيظ القرآن الكريم وبالمعهد الديني وشئون المسجد. رأيت أبي مرة واحدة يضرب أخي بحبل معقود بعد أن ربطه في أعمدة السرير لأنه قضى ثلاثة أيام في بيت زوج أمه دون إذن مُسبق منه. ولكن أبي كان مُتسامحاً معه في معظم الأحيان.. فقد كان هو الوحيد الذي يكسر أشياء في البيت دون أن يخشى أبي عقاب ،كان عمري حينذاك أربع سنوات وكان هو يفوق الثانية عشر من عمره، مما جعل التفاهم بيننا أكثر صعوبة..

رأيته من وقت لآخر يلعب بدراجته التي إشترتها له أمي لتثبت لأعمامي أنها لاتفرّق بيننا وبينه. كان محمد يحب دراجته كثيراً ويزركشها بإتقان..

وكان يبدو وسيماً وأنيقاً بقصة شعره الخنافس على درّاجته الجديدة. سألته مرة أن يسمح لي باللعب معه على الدراجة فرد عليَّ غاضباً : "غور من وشّي الساعة دي يا واد يابن الغجر إنتَ ..

* "إنت بتقول عليَّ أبن الغجر ليه؟" سألته عاتباً "..

عشان إنت إبن الغجر المشارقة "عسل"وقطاشة" نسبوك عند جسر البلد وأبويا لاقاك وجابك عندنا بس لحد ما أهلك بيجوا ياخدوك!" .. قال محمد بوجه لا يظهر أي آثار للمزاح كان إثنان من أولاد عمي بقفان بجواره عند ما قال ذلك وقد إنخرطاً في ضحك شديد عندما سمعا ما قال وراحوا يطاردونني في الشارع وهما يغنيان:

* "عسل وقطاشة.. عسل وقطاشة!" جريت إلى البيت متضجراً وأنا إتساءل:

* أحقاً أنا إبن الغجر؟ ألستُ إبن الإمام المحترم والقاهرية إلجميلة؟

يالهم من ناس كرماء التقطوني وربوني. لقد فهمت للمرة الأولى المعنى الحقيقي لإسمي "شاكر" فأهل هذا البيت الكريم يريدونني أن أكون شكوراً لهم لأنهم أعطوني شرف الإنتساب اليهم. جربتُ إلى أمي باكياً وسألتها إذا كانت حكاية الغجر صحيحة..فضحكت وقالت:

* "مين اللي قاللك الكلام الفارغ دا؟ فقلت لها: أخويا محمد فقالت:

* الازرق اللي شبه القرود ده؟ دا هو اللي أسود الوش وشبه الغجر زي أمه ..

أنكرت أمي قصة الغجر كما أنكرت من قبل قصة الصليبيين. ولكن شيئاً ما بداخلي أراد تصديق هاتين الأسطورتين.. شيء بداخلي أراد أن ينتمي لمجتمع آخر وبشر آخرين غير الذين أراهم في هذه القرية..

أحببت فكرة أن أكون غجرياً يتحرك بحربو وبفنى عندما يشاء وبرقمى في أي مكان..

صار الجسر المزعوم الذي تركني عنده الغجر ملاذاً لي كنت أختبيء عنده كلما أصابني مكروه.. حتى عندما صرت رجلاً إذا أخي الأكبر لم يكن يعتبرني أخاً، وأختي الكبرى لم يكن لديها وقت لتجالسني، وأبناء الفلاحين كانوا على حد قول أمي مستنقعاً للأمراض المعدية.. وكانت علاقتنا مع بيت عمي غير حسنة. فقد كانت زوجته تكره أمي وتقول لها:

* "ياوليه ياللي بتمَوِّتي عيالك". وكانت لنا جارة صغيرة مشلولة تجلس أمام منزلها طوال اليوم تزين وجهها الجميل بالمساحيق مرة كل ساعة. كنت أجلس معها بعض الأحيان وكانت تحكي لي قصصاً مرعبة عن "أمنا الغولة" و"الست أم بزّاز حديد"..

وبعد فترة توقفتُ عن الجلوس إليها لأن حكاياتها كانت تسبب لي كوابيساً..

كانت حقول أبي هي الملاذ الأخير..

كنتُ ألعب بها وحدي وآكل من ثمارها.. وعلى الرغم من أن أبي لم يزرع أرضه بنفسه ولم يسمح لأحد من أولاده أن يعمل فيها، فإن الأرض كانت تؤتي أُكُلها كل

حين بإذن ربها.. كنتُ أنتطر الخيار والطماطم والبطيخ والعنب في الصيف، وفي الشتاء كان الجميع ينتظرون الكرنب الذي كانت أمي بارعة فى حشوه وطهيه.
كانت رائحة التربة في الحقول هي أقوى ما يربطني بالحياة، كنت أرتمي على الأرض وأشم رائحتها العذراء وكأنني مُدمن، وكأن خليط رائحة التربة والثمار أحب اليَّ من أي عطر..كان يعجبني أن حقول قريتنا بلا أسوار..كنتُ أدخل الى أي حقل قريب وآكل منهُ ما أشاء دون أن أخشى توبيخاً من أحد.
كنتُ أرقد في سرير مُعلَّق تحت إحدى تكعيبات العنب خلف بيتنا وأقطف ثمار العنب اللذيذة بدون أدنى مجهود، أي مثل وصف الجنة في القرآن..
بمناسبة القرآن، لقد لاحظ أبي أنني أتمتع بذاكرة قوية فراح يعلمني القراءة والكتابة والحساب منذ عمر الثالثة وعندما بلغتُ الرابعة كنتُ أحفظ الجزء الأول من القرآن دون أن أفهم منه حرفاً واحداً ..سيكون لك مستقبل رائع. يمكنك أن تحفظ القرآن كله قبل أن تصل إلى عمر الثانية عشرة.. مثلي "تماما"، قال لي أبي مادحاً بعد أن تَلوتُ عليهِ جزء "عمَّ" بدون أخطاء لم أكن حينها أفهم أبعاد هذه المهمة، ولكنني كنت أفهم أن أبي يريد ذلك.. وكنتُ أفهم أن القرآن حكر على عائلتنا، وأن الرجل الوحيد الذي يحفظ القرآن في البلد دون أن ينتمي لعائلتنا هو رجل أعمى تعلّم القرآن كوسيلة وحيدة لكسب الرزق في المآتم. وعند المقابر.
كنت فقط أتساءل في نفسي:
* لماذا أجلس ساعات طويلة لحفظ القرآن وأنا في الرابعة ببنما يتسكح أخي الأكبر في الشوارع محاولاً كسر ملل نهاره؟ ومع ذلك فقد قمت بإداء مهمتي على أكمل وجه، وكانت مكافئتي الوحيدة هي رؤية الرضى في عيون أبي الذي كنّا لا نراه راضياً إلّا قليلاً ..

وداعاً للقضيب

عندما بلغتُ الرابعة كان الوقت قد أزف لإجراء الطقس إيّاه الذي يُقرّب الطفل إلى عالم الرجولة. كإن بيتنا مزدحماً بالضيوف وسادت فيه روح نادرة من المرح . كنتُ أرتدي ملابس الأمراء مُحاطا بجميع أولاد أعمامي وخالاتي، حتى أولئك الذين كانوا لا يُطيقون رؤيتي وفي الغرفة المجاورة جلسَت النِساء ورُحْنَ يتسامرْنَ ويضحكْنَ

* "مبروك يا عريس" كان كل ضيف يُحييني عند دخولو ويد س في جيب جلبابي ورقة بنكنوت تتراوح بين جنيه وعشرين جنيهاً.

* "الله يبارك فيك" كنت أرد دون أن افهم ماهي الحكاية بالضبط. دخل العم فتحي إلى المنزل وتلقته النساء بزغاريد الترحاب. كان عم فتحى يأتي ببتنا مِرار ليعطي لأبي حقنة مهدئة ضد الهيجان العصبي الذي أُصيب به بعد عودته من حرب النكسة.

ولكن لماذا يستقبل النساء عم فحي بالزغاريد؟ لم تتأخر الإجابة كثيراً "فجأة سكت الجميع وراح أبي يتلو بعض آيات القرآن وبعض الأدعية المأثورة، ثم إقترب إثنان من أبناء عمي الكبير وكتّفا ذراعيَّ في حين نزع إثنان آخران سروالي وفتحا رجليَّ فتح عم فتحي حقيبته السوداء وأخرج عدة الشغل:

* مشرط وآله تشبه قصّافة الأظافر وشاش وميكروكروم. ثم ألقى المشرط والقصافة في وعاء به ماء يغلي أحضرته أمي.. بعد ثوانٍ التقط العم فتحي المشرط ثم شد قضيبي إليه وقطع الجلدة الأمامية بدون مخدّر..

* آآآه .. .يلعن ميتين أبوك ياعم فتحي!! "تعالت صرخاتي وكذلك تعالت زغاريد النساء. بعدها غطّى فتحي قضيبي بشاش مُشبّع بالمكروكروم.

لقد أستخدم المشرط ولكن القصافة لم تستخدم بعد.. أى عضو لي ينوي هذا الرجل

بتره؟ أخذ العم فتحي الوعاء بالقصافة وذهب إلى الغرفة المجاورة. بعد دقائق سمعتُ صرخة إستغاثة قصيرة لكنني لم أسمع زغاريد بعدها. وعلى الرغم من أنني كنتُ مشغولاً بألمي، فإنني تعرفتُ على مصدر الصرخة. لقد كانت أختي الكبرى صباح. ولكن صباح لم يكن لها قضيب.. فماذا قطع لها ذلك الرجل؟ ..

ربما لديها جلدة ما في مكان ما يجب بترها، قلتُ لنفسي.

نمت هذه الليلة بجوار "صباح" فى نفس الغرفة. كنا نرقد على ظهورنا بين أرجلنا وعاء فخاري كي لا نضغط على الجرح ،كنتُ أبكي وأسب الدين طول الليل بينما كانت صباح تبتلع آلامها بصبر وكبرياء .

* "البتاع بيوجعني قوي يا صباح" ، قلت لها شاكياً.

* "معلهش! بكره حتصبح كويس"، قالت وهي تحاول جاهدة أن تتصنّع الإبتسام. لم تقُل شيئاً على الإطلاق ولم تشتكِ من آلامها، وكأنها كانت تعلم بفطرتها قدر أي معاناة التي يفرضها مجتمع كهذا على المرأة. لم أكن أعلم حينها ماذا جرى لها في هذا اليوم ..

عندما صرتُ شاباً يافعاً قرأتُ لأول مرة أن قطعه فتحي لأختي لم يكُن قطعة جلد كما ظننتُ وإنما قطعة من البظَر.. قطعة من اللحم الحي الذي تتركز فيه أهم أعصاب المرأة.. هل كان العم فتحي يعلم ذلك؟ هل كان يعلم ماذا ولأجل مَن صُنِعَ ذلك؟ ولماذا كنتُ أنا العريس ولم تكن هي العروس؟ لماذا كانت قطعتي المفقودة أحرى بالإحتفال من قطعتها؟

يقولون في قريتنا إن الرجل الحقيقي هو الذي يكسر شوكة زوجته ويذبح لها القطة في ليلة العرس. كان لي جار يحكي بإفتخار عن ليلة عرسه قائلاً أنه دخل على زوجته لأول مرة وكان أول ما قاله لها هو: "إقلعى هدومك يا بنت الشرموطة" ثم راح يضربها بالخيزرانة على جسدها العاري وهو يقول لها:

* "أمي سِتّك وتاج راسك وإنتي خدّامة لكل واحد في البيت لحد الكلب اللي قاعد قدام الدار" كان ذلك كل ما قاله لها قبل أن يفض غشاء بكارتها ويخرج بشاشة ملوثة بدماء عذريتها لعائلتها التى تلَقَّت مُبتهجة دليل شرف إبنتهم وعفّتها.. وفي اليوم التالى زارت عائلة العروس إبنتهم، ولكنها لم تجرؤ أن تحكى لهم عن الوحشية التي عاملها بها زوجها في ليلة العرس، فهي تعلم ما بنتظرها من شائعات لو انها همست بعد ليلة واحدة من زواجها..

كنت أرى في أيام طفولتي بعد كل زفاف جموع من البشر فوق عربات الكارّو والجرارات يحملون شاشاً أبيضاً ملوثة بالدماء وهم يهتفون "شربفة.. شربفة " وكانت مهمة فض غشاء البكارة في أغلب الأحيان موكولة إلى "الداية" أو "القابلة"، والتي كانت تنجز المهمة بإصبعها الأوسط ذي الأظافر الطويلة.. وبهذا تكون قد أثبتت "براءة" العروس ومهَّدَت الطريق لفارس ليلة الزفاف.

لم أفهم أبداً معنى كلمة "شرف" ولماذا يكون موقع هذا الشرف فقط بين فخدي النساء؟ وإذا كانت العذرية شرفاً فلماذا يحتفل بها النساء عند هتكها؟ لماذا يحتفلون!! إذا فقدت بنت عذريتها في عمر السادسة عشر يوم عرسها ولا يحتفلون بـ "صبيحة بنت عبده المحروق" التي ظلّت عانساً طوال حياتها وماتت بعذريتها؟؟

بعد يوم من طهوري كنتُ قد نسيت أختي وآلامها وكنتُ مشغولاً بنفسي رحتُ أشتكي لأمي أنني لا أستطيع التبوّل وسألتها لماذا قطعوا بتاعي، فقالت إنهم فقط قطعوا قطعة جلدة "ملهاش لزمة"..

* "ليه ؟" سألتها بإلحاح..

* "علشان تبقى راجل" وراحت أمي تحكي لي قصة مرعبة لتشرح لي أصول عادة الطهور. كانت قصة رجل عجوز وهبه الله ذكراً بعد طول إنتظار. ولكنه ذات ليلة رأى في المنام أنه يذبح ولده.. ولأنهُ كان نبياً ورؤية الأنبياء حق، فهم أن ذلك أمراً

إلاهياً أن يذبح ولده قربانا لله، فأخذ ولده إلى موقع في الصحراء وسنَّ السكّين ..وكان على وشك أن يذبحه.. فناداه الله: "قد صدقت الرؤيا" وأنزل كبشاً مِن السماء وفدا به الطفل ،لم افهم حينها ما علاقة هذه القصة ببتاعي وصرتُ بعدها أخاف أن يستبقظ أبي بعد حلم سخيف ويقرر ذبحي ..

وداعاً طفولتي

كانت أمي ترغب أن أتلقى أنا وأختي تعليماً قاهرياً. ولكن أبي كان مُعارضاً لهذه الفكرة، فتوصلت أمي معه إلى حل وسط: أن تظل أختى في الغربة، وأُسافر أنا للقاهرة للذهاب للحضانة في السنتين القادمتين حتى أبلغ السن القانوني بدخول المدارس، وبعدها يبدأ التفاوض من جديد حول دخولي أية مدرسة. ووافق أبي على مضض بعد أن وعدتَهُ ألّا أنسى ما حفظت من القرآن وأن أحفظ أجزاء أخرى بمساعدة جدي في إلقاهرة..

في الحقيقة كانت أمي تريدني أن أعيش في جو صحي أفضل لا يموت فيه الأطفال بسهولة .. كنتُ قد سافرتُ مع أمي مرات عديدة إلى القاهرة.. وكنت أعشق هذه المدينة وأنوارها، حاراتها ومقاهيها. كان جدي يسكن شقة كبيرة في وسط المدينة ذات شرفة تُطل على الشارع الرئيسي.. وكانت هذه الشرفة هي نافذتي إلى العالم. وكنت أجلس فيها بالساعات وأُراقب المدينة التي لا تنام.

كانت هوايتي المفضلة هي عد السيارات المارة في الشارع .. ولكنني مللت بعد فترة فالسيارات أبداً لم تتوقف عن المرور ليل نهار ..كان أمراً مدهشا أن أفتح صنبور المياه فيتدفق الماء بين يدي دون أدنى مجهود.. كان إستحمامي في الحمام يشبه الخيال، حيث كنت أقف في وسط الغرفة ويتساقط المطر الصناعى فوق رأسي ..

لاناموس ولا ذباب ولا كلاب ضالة تنبح في الشوارع. وكان الوقت في الحضانة ممتعاً. كنتُ أُجيد الحديث باللهجة القاهرية، فلم يشك أحد أنني دخيل على المدينة. تعلمنا هناك الرسم والسلّم الموسيقي، وفتنتني آلة الكسلفون. كانت المربية تحكي لنا

حكايات لطيفة مُسلية لا علاقة لها بالحماة التي تقتل زوجها وتقدمه طعاماً لإبنته ولا بالمرأة القبيحه التي تخطف الأطفال ..

كان أبناء وبنا ت خالاتي يأتون للزيارة وكنّا نلعب سوياً كأبناء جنس صليبي واحد . كنا نُشاهد التليفزيون ونستمتع ببرامج مسلية ومُضحكة لم تكُن "القرود السوداء" في القرية تعلم بوجودها. كنا نأكل طعام زوجة جدي الشهي الذي كانت تتفنن في صنعه. بالطبع كنت أسميها "جدتي" من باب الدبلوماسية.

بل قد كانت دبلوماسيتى أحيانا تزيد عن الحد، فقد قلتُ لها ذات مرة "إنتى طبيخك أحلى من طبيخ ستي آمنه".. نعم لقد أوصلتني أربعة أعوام في قريتي إلى هذا الحد من النفاق. في الواقع كانت زوجة جدي تعاملني بكل رفق وكان يعجبها أنني لا أضيع كل وقتي في اللعب بل أجلس ساعتين كل يوم لأراجع ما أحفظ من القرآن ..

لقد كنت آخذ وعدي لأبي مأخذ الجد .. كنتُ مُصمماً على ألّا أخيّب أمل أبي .. فقد كنتُ أيضا أحلم بأن يسمح لي بالبقاء في القاهرة إلى الابد، ولكن القاهرة إذا كانت مدينة الأحلام، فهي أبضا مدينة الأشباح. فهي تنمو نمواً سرطانياً في كل الإتجاهات، والعشوائيات تفترس الحقول والجبال والمقابر ..

وتحت تلال الفقر والضوضاء والغمامة هناك الملايين المنسيون بلا أسماء ولا أحلام مدفونون .. وعندما يستيقظون من تحت أنقاض الحياة تبتلعهم الغوغاء من جديد وتُلقي بهم في طاحونة الحياة التي تشوههم أكثر وتغتصب ما "تبقّى من إنسانيتهم، وعندما يخرجون من الطاحونة لا يعرفون أنفسهم ولا يعترفون بإنسأنية مَن دونهم. ولأن النظام يدير لهم ظهره فإنهم لا يعترفون بأعراف هذا النظام ولا بقوانينه.

إستراتيجية بقاء هؤلاء هي الموت البطيء بتدمير الذات وتدمير كل من هو أضعف منهم.

بعضهم يذهب للتسوّل وبعضهم يلجأ لإدمان المخدرات أو البنزين.. بعضهم يسرق الأموال وبعضهم يسرق طفولة طفل عمره أربع سنوات..طلبت مني زوجة جدي ذات مرة أن أذهب لشراء الخبز من المخبز المواجه للمنزل. وعندما كنت أقف في الطابور الطويل جاء إليَّ صبي المبكانيكي "شكمان" وقال إنه سيشتري لي الخبز وعليَّ أن أنتظره أمام باب الورشة.

يبدو إن سكان المدينة أيضا خدومين مثل سكّان القرية" ، قلتُ في نفسي ورحتُ أنتظر أمام الورشة. كان "شكمان" يبلغ من العمر حوالي السادسة عشر وكنتُ أرى "صلاح" صاحب الورشة يضربه مراراً بكل قسوة، ولكن " شكمان" كان مُجبراً على العمل، فلم يكُن ملتحقاً با لمدرسة وكان عليه إطعام عائلته من دخله البسيط.

جاء شكمان بعد قليل يحمل الخبز ملفوفاً في ورق صحف وأعطاني إيّاه وانا أجلس فوق عجلة سيارة أمام الورشة. وعندما أخذت الخبز وهممتُ بالإنصراف أمسكَ بذراعي وقال:

* "مش تقول شكراً يا أخي ".فقلتُ له شكراً ولكنّه لم يترك ذراعي بعد .

* "شكراً حاف كده مش كفاية يا عسل" قالها الصبي وعلامات الغدر واضحة في إبتسامته الخبيثة، ثم حملني من تحت إبطي ودخل بي الى الورشة، ثم نزل بعض الدرجات الى البدروم

* "سيبني ربنا يخليك" قلت لهُ راجياً..

* "أسكت خالص" قالها وهو يضع يده على فمي ثم إستمر:

* "دى زي شكّة الدبوس، مابتوجعش خالص بعدها تروح ولا من شاف ولا من دِري" قالها وهو ينزع سروالي، أمرني بالسجود على الأرض ففعلت والرعب يكاد يقتلني، سجدتُ أمام الوحش الجائع وأنا أمسك بلفافة الخبز الساخن ورحت أقرأ المعوذَّتين كما علمتني أمي أن أفعل في حالة الخوف ..

حاول الصبي أن يُدخِل عضوه الذكري في داخلي ولكنه لم يستطع ، كان ملمس عضوه على جسدي كفأر قذر خرج لتوّه من إنبوب المجاري وكانت رائحتهُ التي تمزج العرق والشحم تُثير إشمئزازي ..

ظننتُ أولاً أن فارق الأحجام بيني وبينه قد أنقذني، ولكن شكمان كان مصمماً على إنهاء المهمة بأية طريقة، راح يبصق على مؤخرتي ثم أدخل أحد أصابعه بعنف في أحشائي.. ظننتُ أن ذلك هو أقصى ألم يمكن أن يتحمله جسدي حتى أدخل إصبعاً أخر وراح يعبث بداخلي، ثم أخرج إصبعيه وبصق مرتين قبل أن يُدخل بعضوه في جوفي ..لم تكن "شكة دبوس" وإنما "سكّين بارد يُمزق أغشيتي في كل رجّة جسد، وبعد رجات مؤلمات خرج مني وترك سائله اللزج الذي لم أكن أعرف إسمه حتى ذلك اليوم يسيل على مؤخرتي،، لم أَرَ في حياتي كلها شيئاً بهذهِ الدرجة من الألم والقذارة، مع العلم بأنها لم تكن آخر مرة أتعرض فيها لمثل هذا الإمتهان،دَفَنَتْ هذه الجريمة طفولتي وأحلام بقائي في القاهرة ..

توقفتُ عن تكرار قراءة المعوَذَّتين وأخرجت من اللفافة التي لم تترك يدي رغيفاً رحتُ أمسح به قذارة سائل صبي الميكانيكي عني..

* "وحياة أمك لو حكيت لحَد اللي حصل دا لأقطُم رقبتك ، فاهِم يابن الشرموطة ؟" قال "شكمان" مهدداً ..

لبستُ سروالي في رعب واخذتُ الخبز وعُدت إلى منزل جدي: كل درجة سلَّم عذاب، كل نفس نفخة عار.. سلّمت الخبز لزوجة جدي ثم ذهبتُ إلى السرير وإختبئتُ تحت البطانية رغم أنهُ كان يوماً شديد الحرارة،

رقدتُ على بطني من فرط آلامي الداخلية ورحتُ أبكى بصوت مخفض.. كنتُ أتذكّر لوم أبي لي "متعيطش زي الحريم " لماذا؟ لماذا أنا ؟ لماذا هنا؟ آلاف الأسئلة تصارعت في رأسي وما مِن مُجيب ..

* شاكر، فيه رغيف عيش ناقص، إنت اللي أكلته ولا الواد بتاع الفرن ضحك عليك؟" سألت زوجة جدي مستفسرة .

* انا اللي أكلته ياستي" قلتُها وأنا أُحاول إبتلاع دموعي وفى اليوم التالي تجاهلت ألامي الداخلية وتجاهلتُ قطرات الدماء التي نزلت مني اثناء التبرّز وغسلتُ سروالي بنفسي في المرحاض حتى لا ترى زوجة جدي آثار ما حدث، لم أفشِ آلامي لأحد حتى لايأخذوني للطبيب فيعرف بما كان، كنت لا أريد أن يطلّقوا عليَّ لقب "الواد الخسران بتاع العيال" .

فقدتُ منذ ذلك اليوم ثقتي بكل البشر ، أصبح كل إنسان في نظري مجرد كائن شرير وما الخير إلّا نفاق محسوب خوفاً من طائلة القانون أو رقابة المجتمع فإذا غاب القانون والرقابة عاد الانسا ن إلى طبيعته الحيوانية، ولكن حتى الحيوانات لا تفعل ذلك آاااه، كم كنت أود أن أظل طفلاً لفترة أطول..

كنت أود أن أحتفظ بخيالاتي الساذجة عن العالم لبعض السنوات، كنتُ أود أن أُفكّر قبل نومي في لعبي ومرحي. في الغد، لا في كيفية الإحتفاظ بسري وعاري ... لابد أن طبائع الغجر أو الصليبيين قد تسربت إليَّ، لقد جلبت إلعار لبيت الشيخ إلكريم، قررتُ ألّا أبقى يوماً واحداً في القاهرة بعد ذلك ..

إن هذه المدينة لا تعرف أسماء أبنائها إنها تخنق أولادها تحت أحجارها وتدهسهم تحت عجلات سياراتها وتبتلعهم في أنابيب مجاريها.. جئتُ إليها فاتحاً ذراعي وظننتها ستعانقني ولكنها حتى لم ترد عليَّ السلام ،لا أحد هنا ينصت لأحد، والحياة إستمرت في اليوم التالي وكأن شيئا لم يكُن ..

قلتُ لجدي بإلحاح إنني أريد العودة لأمي فوراً ، فقال لي أن أبي سيأتي بعد شهرين ليأخذني بسيارته وأنه لا يوجد هاتف في القرية ليطلب منه المجيء مبكراً، فقلت له إنني لا أريد البقاء في هذا البيت لانني أكره زوجته فسألني لماذا تكرهها؟ فقلتُ

* "علشان بتبعتني أجيب عيش ،أنا مش خدام عندها"وفي النهاية أجبَر إلحاحي وصراخي المستمرين جدي على الرضوخ لرغبتي ومصاحبتي للقرية ... في اليوم التالي إمتطينا أبطأ قطارات مصر وكنت لا أزال غير قادر على الجلوس من فرط آلامي، فوقفتُ فوق المقعد، فراح جدي يعنّفني :

* " – –لا– – ياشاكر،دا سلوك غير متحضر.. إحنا هنا في مصر مش في بلدكم"

فرددتُ عليه في صرخة غاضبة:

* "يلعن ميتين مصر" لاحظ جدي أنه من الصعب السيطرة عليَّ في هذا اليوم فراح يهدئني بالعسلية والكرمله..

إنتهت الرحلة بعد سفر طويل ووصلنا إلى المحطة المقصودة – وكان الكمسري لم يأت لقطع التذاكر – فذهب جدي بعدما ترك القطار إلى شباك التذاكر واشترى تذكرة بأثر رجعي وقام بتمريقها، وقال لي وهو فخور بأمانته:

* "الحكومة عملت اللى عليها وجابت لنا القطر– لو كل مسافر إتهرّب من دفع التذاكر يبقى كل القطارات هتتعطل ومش هنعرف نسافر" رغم أنني كنت لا أزا ل في سن الرابعة والنصف من عمري إلّا أنني لم أقتنع بمفهوم جدي البسيط للأمانة والعدل،خاصة بعدما حدث لي– كما أنني كنت أعلم أن أمي "تعتبره شخصا غير عادل لانه حرمها من الميراث من أجل عيون زوجته الجديدة، ولكنني لم أُخبره بذلك لأنه لم.بعطيني الخمسة جنيهات بعد التي إعتاد أن يُعطيني إياها عند زيارته للقرية..

****

أثارت عودتي المبكرة من القاهرة دهشة الجميع، إلّا أن أبي كان سعيداً بذلك– وقد حاولت تجنّب كل الناس في هذه الفترة قدر المستطاع، ولكن ذلك كان صعباً في مجتمع ريفي كهذا، فكنا نجتمع ثلاث مرات يومياً على مائدة الطعام، وكان عليَّ أن أجلس يومياً أمام أبي بعد صلاة العصر لأتلو عليه ما حفظت من القرآن ،

كنت لا أقوى على النظر في عينيه- أصبحت لا أستطعم طعام أمي الذي كنت أعشقه في الماضي، كنت أتمنى أن يأتي إختراع جديد بجعلنا نحتاج إي أكلة واحدة في الأسبوع حتى لا أُجبر على مجالسة كل العائلة ثلاث مرات يومياً ، كنتُ أنتهز كل فرصة لأبتعد عن المنزل ، إشتريت "نبلة" ورحت أطارد الحمام في القرية وبعد إسبوعين أصبحتُ قادراً على إسقاط الحمام حتى أثناء طيرانه،

أحسستُ بحاجة مُلحّه داخلي لممارسة العنف ،تصادقت مع إبن عم لي كنت لا أطيقه في الماضي لأنه كان عفيفاً ، كان يسرق نقود التجار في سوق الثلاثاء في القرية، وكاد أن يقتل أحد الشحاذين ذات مرة بعد أن وضع برازا في فمه أثناء نومه، كانوا يطلقون عليه إسم "شيطان العائلة"

في حين كان الكثيرون يعتبرونني ملاكاً طاهراً ولكنني بعد عودتي من القاهرة صرتُ أقاربه تدريجياً في حبه للعنف وكرهه الفطري للبشر . كُنّا نتواعد في وقت الظهيرة والناس نيام ونذهب لصيد العصافير ..

تعلمتُ منه خزق عيون العصافير ثم شد رؤوسهم حتى تكسر رقبتهم .كنا أيضا نصنع نارا ونُلقي بالعصافير الحية فيها. أحسستُ أن تعذيب العصافير والحمام يُسبب لي نوعاً من الإرتياح فرحتُ أتفنن في إختراع طرق جديدة لتعذيبهم. وكانت طريقتي المفضَّلة هي نزع ريش العصفور وحبسه تحت سريري وحرمانه من الماء والحبوب حتى يموت موتاً بطيئاً

ولم أكن الوحيد الذي يعذب الحيوانات في القرية. فأطفال كثيرون كانوا يشوهون الكلاب والفئران والجعارين؛ حتى أمي رأيتها كثيراً وهى تحشو مؤخرة البط والأوز بالفلفل الأسود حتى يهيجوا جنسيا ويتنكاثروا ويبدو أن ..طريقتها هذه كانت في غابة الفعالية، فقد كانت حظيرتنا مليئة بالطيور المنزلية طوال العام، كنت أجلس وحدي ذات مرة فوق سطح المنزل أنظر للسماء وأفكّر في جريمة القاهرة.

رحتُ أتخيّل أن ما حدث لم يكن إلّا كابوساً مزعجاً وسأفيق منه قريباً، أو أنني فررتُ من " شكمان" قبل أن يمسك بي. جاءت أختي صباح وسالتني لماذا اجلس وحدي في الشمس . نظرتُ إلى عينيها الحنونتين وشعرت بإلحاح داخلي أن أُفضح لها سري.. أردتُ أن أقول لها أن أهل القاهرة أفسدوني..

أردت أن أبكي أمامها وأُزيح عن صدري ثقل ذلك الهم الذي لا أقوى على حمله وحدي.. ولكن لساني إنعقد ولم يقوَ على النطق بكلمة واحدة .. تركتني أختي ونزلت من جديد.. رحتُ أبكي وأُراقب الأرانب البيضاء وهي تأكل الخضروات في حظيرتها فوق السطح.

نزلتُ فجأة إلى المطبخ وعدتُ بيداي ممتلئتان بحبات الفلفل الأسود ورحتُ أمسك بالأرانب واحداً تلو الآخر وازج بحبات الفلفل في مؤخرتها. إنتظرت بعض الدقائق ولكن أحداً مفهم لم يبدأ في معاشرة الآخر. "يالله خسروا بعض!"، رحتُ أصرخ فيهم ولكن بدون رد فعل. إنهم لم يُبدو حتى أية علامة من علأمات الألم، وكأنهم قد فهموا بالسليقة قواعد نظمنا الذي نعيش فيه ..

أصبحت طفلا عدوانيا لا يطيقه أحد.. صرتُ أقذف الأطفال بالحجارة بدون سبب في الشارع وأصبحت أسب الدين بغزارة.سمعتني أمي مرة وقالت عاتبة:

* "ما تسبّش الدين " عشان ربنا ما يسخطكش قرد!".

ما قالته أمي لم يكُن مخيفاً بالمرة. وعلى العكس، فقد وجدت في تهديدها أملاً لحل مشكلاتي. فإذا سخطني الله قرداً فسأصبح قبيحاً ولن يرغب رجل بعد ذلك أن يلمسني! وإذا أصبحتُ قرداً فربما سأصبح شبيها لأخي الأكبر فيقبلني أخاً لهُ..

صعدتُ إلى سطح المنزل ورحتُ أسب الدين في كل الإتجاهات .

إمام وأراجوز

لاحظ أبي وأمي التطورات التي طرأت على تصرفاتي منذ عودتي من القاهرة. كانوا يتساءلون لماذا أُصاب بالذُعر عندما يُنادي أحد إسمي، ولماذا اقوم في منتصف الليل من النوم مذعوراً ثم لا أتوقف عن البكاء.. لم "تساعدني رُقية أبي ولا بخور أمي كثيراً.. وفي النهاية "توصّل أبي إلى حل لقضيتي، فقد قرر إلحاقي بالمدرسة رغم أنفي، لم أكُن قد تجاوزت الرابعة والنصف من عمري ولم أصل للسن القانوني بعد.

ولكن ذلك لم يمثل مُشكلة بالمرة فعد إتفق أبي مع ناظر المدرسة الإبتدائية أن يستبدل شهادة ميلادي بشهادة ميلاد أخي المتوفي والذي كان يحمل نفس أسم: شاكر، والذي كان يكبرني بعامين. "شاكر" مقابل "شاكر" هكذا حُلَّت المشكلة وأصبحتُ بين بوم وليلة أكبر من عمري الحقيقي بعامين.

بالطبع يعتبر القانون مثل هذه الممارسات "تزويراً في أوراق رسمية، ويُعاقب مُرتكبيها بالحبس لمدة ست سنوات. ولكن على أبي وناظر المدرسة ألّا يخشوا تبعات ما فعلوا، فقد مرَّ أكثر من ثلاثين عاماً على هذه الواقعة وسقطت عنها العقوبة.. لعل آلامي التي نشأت في تلك السنة تسقط عني أيضاً..

مع الزمن صرتُ منذ ذلك اليوم العب دور أخي الميت. ومن الطريف أن شهادة وفاة أخي كانت أيضا لا تزال في حوزة أبي في أحد أدراج حافظة ملابسه.. كنت في صِبايا أفتح شهادة الوفاة هذه وأتمعّن فيها وأقول "الحق أني ميّت منذ زمن ..وعلى الرغم من أنني كن أصغر سناً من كل أقراني في المدرسة فأنني كنت أتمتع بمعاملة خاصة يرجع ذلك إلى علاقة الصداقة التي كانت تربط أبي بناظر المدرسة من ناحية،

وبقدرتي على الكتابة والقراءة من ناحية أخرى.

لقد كنت منذ اليوم الأول أفضل تلأميذ الفصل وتم إعفائي من أداء الواجبات المنزلية أستغل هذا الوقت في مواصلة حفظ القرآن.. وقد كنت أيضاً أحد القلائل المعفيين من الضرب على الأقدام وأطراف الأصابع وبالشلاليط. ولقد رأيت ذات مرة أحد المدرسين وهو بصفع تلميذاً من البدو على وجهه ثم حمله بيديه !ومسح به السبورة حتى بال الطفل في سرواله. وقد كانت جريمته الوحيدة أنه لم يعمل الواجب وعلى الرغم من (أو ربما بسبب) إحترام المدرسين لي فقد كنت مكروهاً من أقراني التلاميذ. ولكنني – عرفاناً بالحق – لو كنت واحداً منهم لكرهتُني . فقد كنت بالنسبة لهم غريباً بتكلم بلهجة قاهرية، يأتي إلى المدرسة في سيارة أبيه ويرتدي ملابس جاهزة في حين يرتدي باقي التلأميذ مرايل صفراء أشبه بالقيء.. كنتُ أحمل شنطة جلد غالية فيها أقلام بكبّاس وسندوتشات طازة، في حين كان يحمل باقي التلاميذ حيائب من نفس قماش المرايل ويأكلون الجبن والحلاوة الطحينية التي كانت توزع عليهم بالمجّان ،،

كان التلاميذ يقاطعونني أنا وزميل مسيحي إسمه أشرف عبد الملاك" ولا يسمحون لنا بلعب كرة القدم معهم في الفسحة. ولكن شريف كان أسعد مني حظاً، فقد كانوا من وقت لآخر يعفون عفه ويسمحون له باللعب بعد أن شهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله.. أما كل حِيَلي للتقرّب منهم فقد باءت بالفشل. حاولت أن أتوقف عن التحادث باللهجة القاهرية وحاولتُ تقليد اللهجة الفلاحي، ولكنهم كانوا يضحكون عليَّ..

صرتُ أرتدي نفس المريلة مثلهم وأوزّع عليهم سندوتشاتي طوعاً، ولكنهم إستمروا في مقاطعتي وسرقة اقلامي الغالية .. لقد حاولت حتى لعب دور الاراجوز لإستجلاب مودَّتهم.. كنت في الصف الرابع وكانت المدرسة تحتفل بعيد الأم، وقد طلب مني

ناظر المدرسة أن أفتتح الاحتفال بآيات من القرآن الكريم ،ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً...." وقد قمتُ بإداء المهمة على أكمل وجه. وبعد عشرين دقيقة تم تكريمي كأفضل طالب في الصف الرابع ..

وكما إفتتحتُ الحفل فقد إختتمتُهُ أيضاً، ولكن ليس بالقران هذه المرّة وإنما بالرقص الشرقي.. فقد شاركت في المسابقة التق أختُتِمَ بها الإحتفال والتي شارك فيها الأولاد فقط، ولكنني حصلتُ هفا فقط على المركز الثالث. وكنتُ أظن إن رقصي أمام التلاميذ سيقرّبني منهم ولكن العكس حدث،. فقد وجد كل من التلاميذ والمدرسين تصرفي إنفصاماً يُعبّر عن "جليطة" وقلة إحساس، فقاريء القرآن لا برقص والراقص لا يتلو كلام الله..

إبن الصليبيين

أنجبت أمي ثلاثة أطفال في فترات متقاربة. وقد كتب لإثنين منهم الحياة ومات الثالث عند ولادته. أما الأخت الصغرى فكانت بيضاء البشرة، وأخي الأصغر جاء بعيون خضراء، مما أعاد إشاعة الصليبيين إلى الحياة مرة أخرى. ولكن ذلك لم يعُد يهمني: "صليبي"، "إبن الغجر"، "إبن بتاعت مصر المدلعة".. لقد إعتدتُ التهكّم وإحترفتُ تجاهله. صليبي صليبي.. هما الصليبيين كفروا ؟

كان التقدم قد جاء زاحفاً إلى قريتنا فدخلتها المياه والكهرباء وإشترت لنا أمي تلفازاً باع أبي حقلاً كاملاً لتسديد ثمنه. وكنت أجلس يومها بالساعات أمام الصندوق الإسصطوري وأشاهد المسلسلات والأفلام الأجنبية المليئة بالصليبيين مثل "دالاس" و" فالكون كريست".

كنت أتقرب من التلفاز للتعرف على عيون الممثلين الخواجات الخضراء

ولكن كان ذلك هباءاً منثورا، ء فقد كان التلفاز أبيض وأسود أثارت مشاهدتي للافلام الأجنبية إهتمامي باللغات الاجنبية. كنتُ أحلم أن أتعم أكبر عدد من اللغات لأفهم ما يقوله أبناء الفرنجة. وكنت أجلس مع إبن عم لي يكبرني وأسأله أن يعلمني الإنجليزية..

كنا نستمع لأغنية أجنبية وسألته أن يُترجم لي كلماتها فجاءت ترجمته مشابهة لكلمات أغنية لمحمد عبد الوهاب.. ففهمت أنه عليَّ أن أعتمد على نفسي في ذلك.. ومن هنا وُلدَت فكرة دراسة اللغات بالجامعة عندما أكبر. ولكن كانت هناك مشكلتان: أولاً كان عليَّ أن أنتظر ثماني سنوات حتى يأتي وقت الجامعة، وثانياً كان

عليَّ أن أُقنِع أبي بدراسة اللغات بدلاً من دراسة أصول الدين كما كان ينتظر.
أصبح التلفاز حبي الوحيد أُمضي أمامه الساعات بلا ملل. كان منزلنا يمتليء بأبناء العمومة والجيران ليشاهدوا معنا مباريات كرة القدم والأفلام العربية. فقد كان عدد التليفزيونات في القرية لا يتجاوز الخمسة.
وكانت أختي صباح ءممنوعة من مشاهدة الصندوق العجيب حتى لا "تتسلل الافكار "المايعة" إلى رأسها. ولكنها كانت تنتظرني دائما بعد نهاية كل فيلم وتسالني أن أحكي لها قصته. وكانت ذاكرتي القوية يساعدني على سرد كل تفاصيل القصة بحذافيرها. حتى القبلات الساخنة كنت أصورها لاختي عن طريق تقبيل ظهر يدى، وكانت أختي تبتسم خجلاً من وصفي
أصيب أبى بخيبة الأمل عندما سمع بتصرفي يوم عيد الأم، وقال إنني أهنتُ القرآن حين خلطته بالهزل والرقص.ولكنه كان في الوقت نفسه فخوراً بي لأنني حصلتُ على جائزة أفضل طالب للعام الرابع على التوالي.
وكان يزورنا في ذلك اليومبعض أعيان القرية وإشتكى أحدهم أنني دائماً الأفضل في الفصل وأن إبنه يحاول جاهداً أن يتفوق عليَّ، ولكن دون جدوى، فرد عليه أبي:
* "والله دا أمر مش في إيدينا، شاكر أصله مقرّب من الملأ الأعلى. الملايكة بتنزل عليه بالوحي ليلة الإمتحان وتقول له على الأسئلة وأجوبتها".. فضحك جميع الحضور في غرفة الضيوف إلّا أنا.. فقد كنت بالفعل أبحث عن تفسير لتفوقي المستمر في المدرسة رغم عدم المذاكرة وعمل الواجب..
كنت أتساءل لماذا أحفظ القرآن بهذه السرعة الفائقة؟ أعجبتني فكرة زيارة الملائكة ونزولها عليَّ بالوحي كثيراً.. ربما سيتمكنوا يوماً من تخفيف آلامي وشرح أسرار الكون والبشر لي.. ربما سيخبروني بعد فترة إختبار عن سر العنف والظلم والإمتهان..

عن أصل الشر وصعدت في هذه الليلة في حالة من اليأس الساذج فوق سطح المنزل ورحت أتامل السماء وأقرأ سورة "إقرا" و" المزمّل" و"المدثّر" وأنا أنتظر نزول الأمين جبريل على بالبشرى الكبرى. ولكنني في الوقت نفسه كنت أخاف أن يشق صدري بسكين ليغسل قلبي بماء زمزم.. كنت أقول لنفسي :

* "ظهر الفساد في البر والبحر..

لابد أن هذا هو زمن النبي الجديد: شاكر عبد المتعال ..

لم ينزل الأمين بالوحي ولم بتغير موقف تلامذة المدرسة مني حتى بعد الرقص.

كان آباؤهم بقّبلون يد أبي في المسجد، ولكنهم كانوا لا يبدون أدنى إحترام لي في المدرسة.. لم يكتفوا فقط بتسميتي "إبن الصليبيين" بل اطلقوا عليَّ إسم "جيهان" مثل زوجة الرئيس السادات كما كانوا يسمونني "دولسي من أبو خمستاشر ..قرش".. كانت هذه التسميات تُثير بداخلي إشمئزازاً شديداً، لأنها كانت تذكّرني بعار القاهرة ..

دم ولحم

عدت إلى المنزل في يوم عطلة دراسية بمناسبة إحتفالات نصر اكتوبر فوجدت أمي تجلس أمام التليفزيون وتبكي بحرقة. نظرتُ إلى شاشة التللفزيون فوجدتها سوداء. في البداية ظننتها تبكي لأن التلفزيون خرب، ثم سالتها لماذا تبكي؟ فأجابت:

* قتلوا السادات

* مين؟ إسرائيل؟

* لسه ملش عارفين!.. قالت إمي وإستمرت في بكائها ، اثار هذا المنظر حزني، ولكنني لم اكن حزينا لموت السادات، وإنما لاني كنتُ أعلم أنه عندما يموت أحد عزيز على أمي فإنها كانت تحرمنا من مشاهدة التلفزيون وأيضا تحرمنا من أكل محشي الكرنب.. أي اللذّتين الوحيدتين التي كنت أعرفهما في طفولتي..

أذكر أن أمي حرمتنا من لذيذ أكلها ومن مشاهدة التلفزيون لمدة أربعين يوماً بعد وفاة جدتي، وكانت فترة عصيبة ومملة فمن الصعب وجود وسيلة أخرى للتسلية في قريتنا..

كنتُ أُدهّش لماذا نتصنّع الحزن ونزيّن الموت بطقوس غريبة، رغم أننا شعب "إبن نكتة" ويعشق الفكاهة!

دهشتُ وأنا أرى نَدّابه مدفوعة الأجر تجلس في العزاء وتعدد محاسن جدتي المتوفية حتى بكى مَن لم يبك بعد. عجبتُ وأنا أرى النساء يتنافسن أيُّهُنَّ تصيح أعلى وأيُّهنَّ تلطم خدها أقوى! وعندما سافرتُ إلى المانيا إكتشفتُ أن الشعب الألماني يفعل مع الفرح ما نفعله نحن مع الحزن: يدرسونه ويجهزون له ويُبالغون فيه..

!لأنه في الأصل ليس من خصالهم! نحن نحتاج النَدّابة وهُم يحتاجون المهرّج ..

لم أكُن حينها أفهم لماذا قُتل السادات. وإذا كان السادات يستحق القتل فلماذا كانت أمي تبكي على وفاته؟ ولماذا كانت أمي تبكي في حين كان أبي لا يحب السادات ويقول إنه خان دماء الشهداء؟ كان أبي يلوم على السادات أنه صالح دون أن يُبابعه الشعب على ذلك، وذهب إلى القدس وحده وعانق العدو قبل أن يعانق الأرامل والثكالى من شعبه.

كان أبي قد ذاق الذلة والمهانة على يد العدو الإسرائيلي في حرب النكسة، فعاد يحمل كراهية هذا الشعب كأهم معالم هويته. فهذه الحرب غيّرت مسار حياته تماماً، ففي حين كانت الإذاعة المصرية تذيع أنباء سقوط طيارات العدو الواحدة تو الأخرى، كان أبي يزحف في الرمال ليهرب من نيران العدو الذي هاجم فجأة وبدون إعلان حرب. هرب أبي من الميدان وترك أعز أصدقائه يتفحّم في مدرعته بعد أن أصابته إحدى القذائف الإسرائيلية.

وراح أبي يختبيء لمدة ستة شهور فى بيوت البدو، وكان الجميع في القرية قد إعتبروه شهيداً لأنه لم يرجع بعد نهاية الحرب التي لم تستغرق إلّا ستة أيام، كما لم يرِد إسمه في قائمة أسرى الحرب.

وعاد أبي إلى القرية في الظلام متسللاً وأغلق عليه بابه لأيّام طويلة.. ولكن الغريب في الأمر أن عمّي "عبد السلام" قد ذاق أيضاً مرارة الهزيمة في نفس الحرب، ولكنه عاد من النكسة يقدّس الشعب اليهودي ويُمجّده.

كان يقول إن الجيش الصغير الذي يقهر خمسة جيوش عربية وينترع كرامتها لابد أن يكون جيش شعب الله المختار.. وكان إذا أنصت إلى الراديو لا يستمع إلا لإذاعة إسرائيل. كان يقول أنه يشعر بالنشوة وينتظر الصدق عندما يقول المذيع:

* "هنا إذاعة إسرائيل من اورشليم القدس". وكان عمي يقول إن المنتصر ليس لديه حاجة للكذب، فالكذب هو آفة المهزومين والضُعفاء ومَن لا يشعرون بحرية:

* (إحنا يعني) وهكذا كان كل من الأخوين يتعامل مع خزيَه بطريقته:
* أبي عن طريق لعنة العدو، وعمّي عن طريق تمجيده والتسبيح بحمده. كانت الطريقة التي يتحدّث بها عمّي عن إسرائيل تُثير غضب أبي وقد نشبت صراعات عديدة بينهما.. لهذا السبب كان عمي شخصية غريبة الأطوار، وكان أبي لايقل عنه غرابة. في الواقع كل عائلتنا كانت "عيلة لاسعة" وغير طبيعية، فقد كانت أكثر العائلات نزاعاً فيما بينها وأشدها تضامنا ضد غيرها.

كان الكثيرون من أفراد هذه العائلة يتروجون ثم يُطلقون ثم يُغيرون زوجاتهم مثل تغيير ملأبسهم الداخلية. كانوا أسرع أهل القرية غضباً وأشدهم رعونة.. ومعظم الشباب المتعلم في القرية.ينتمي لعائلتنا وأكثرهم عَبطاً وبلاهة أيضاً. نجد بينهم حَفَظَة القرآن والخطباء وبينهم الزنادقة وسبّابي الدين. كان أحد أعمامي، وهو يحفظ القرآن أيضاً، يطرد الأطفال من أمام بيته الكبير عند الظهيرة ويقول لهم:

* "إمشو إلعبوا عند عششكم يا فقرا يا ولاد الفقرا "وكان لي عم آخر زارته جماعة البليغ والدعوة وطلبوا منه أن يأتي معهم الى المسجد فسألهم لماذا؟ فقالوا له:
* "لكي نصطلح مع ربنا" فرد عليهم:
* "وهوا أنا كنت إتخانقت مع ربنا عشان أصطلح معاه؟".. وعم ثالث جائته إمرأة تشتكي له أن زوجها يضربها بضراوة رغم أنها تركت المسيحية وإعتنقت الإسلام من أجل الزواج منه، فردَّ عليها عمّي:
* "ماهو إنتي اللي تستاهلي، الناس كلّها عمّاله بتكفر في الزمان دا وإنتي جايه تسلمي؟" ..كانت معظم الشجارات داخل العائلة تبدأ من لا شيء وتنتهي بالدماء. كانت حقول أبي وحقول عمي عبد السلام تقع جنباً إلى جنب، وقد اثار غضب عمّي أن أبي باع قطعة أرض له ملاصقة لحقل عمي لرجل غريب، فنشبت بينهما مشاجرة ،إنتهت بان ضرب عمي أبى على رأسه عدة مرات بعرق خشب،

حتى سال الدم من كل مكان في رأسه. عاد أبي الى البيت ماشياً على قدميه ودخل علينا والدم يتدفق من رأسه كماسورة مياه مكسورة .. كان الدم يسيل على وجهه وملابسه حتى كُدنا لا نتعرّف عليه.. عندما رأته أمي سقطت في إغماءة على الأرض،فذهب أبي بكل هدوء الى المطبخ وعاد ببصَلة دشَّها بقبضته وقرّبها إلى أنف أمى،ثم حملها إلى غرفتها ..

وبعدها عاد وفتح علبة القهوة وراح يحشو جروحه بالبُن المطحون .. ثم إقترب منّي في هدوء وقال !بصوت عطوف لم أألفْهُ منه:

* "روح نادي لعمك فتحي الفلاح وقوله يجيب معاه شاش وقطن كتير.. جريت إلى دار الرجل الذي قطع "بتاعي" وقلت له باكياَ:

* "تعالى بسرعة أحسن أبويا هيموت! أصيب أبى بإرتجاج في المخ ونُقِل إلى إحدى مستشفيات القاهرة الخاصة للعلاج. وثم القي على عمى وحُبِسَ رهن التحقيق.وعندما تحسنت حالة أبي بعد أسابيع زاره ضابط المباحث ليأخذ أقواله، فإدعى أبى أن أحداً لم يضربه وأنه سقط على حجر في الحقل ! فتم الإفراج عن عمي عبد السلام.

إعتبرت كل العائلة تصرّف أبي عملاً بطولياً..إلّا انا.. فما عمله أبي هو بالضد مما فعله السادات: "خبالة".. على حد تعبير أبي نفسه كنت أفتقد إبي كثيراً طيلة فترة غيابه. كنت أُصلّى وأدعو له بالشفاء، وأدعو أن يعود إلينا سالماً.

رأيت من هذه الحادثة أن مجرد وجود أبي في هذا العالم هو سند كبير لي. لقد إفتقدتُ أن أتلو القرآن بين يديه، وأن أذهب معه إلى المسجد وأُصلّى خلفه.. فقد كان مُساعدُهُ في المسجد ذا صوت رتيب وخطاب ممل.. فلا أحد يستطيع تحريك مشا عر المصلين مثل أبي بصوته العذب وأشعاره المَنَمَّقة وبلاغته المنقطعة النظير.

كنتُ أفتقد عطره الغالي الذي كان يملأ لا يزال غرفته ومقولته المألوفة التي كان يكسر بها صمت الجلسة:

* "يا أرحم الراحمين إرحمنا يا رب!" أضف الى ذلك أن غياب أبي قد حرمنا من الأكل اللذيذ ، فقد كانت أمي "تعوده في المستشفى يومياً وأصبحت مهمة طهي الطعام منوطة بأختي صباح والتي كان طبيخها غير مُستساغ (وهذا فقط) لتجنب قول: "يقرف الكلب الاعمى".. لقد إكشفتُ أن أمي لا تسطيع أن تحب أحداً غير أبي حتى أبنائها ..لا تسيطبع أن تطهو طعاماً إذا كان أبي لن يأكل منه.. لم أرَ في حياتي كلها إمراة تُحب رجلاً مثل محبة أمي لأبي..

كانت تُسامحه بلا شروط وتقف وراءه ظالماً أو مظلوماً ..

من المدهش أنني لم أستغل فترة غياب أبي في الإستمتاع بالحرية واللعب، بل رحت أتعلم القران في كل دقيقة من وقت فراغي كي أُفاجيء أبي بتلأوة أجزاء جديدة عند عودته. كنتُ أفتقد كل شيء فيه.. حتى خوفي منه! وكان أخي وأختي أيضا يفتقدانه. كنا نعلم بالطبع أنه بعد أن يعود للبيت سنعاود الإختباء منه مثل الفئران المذعورة عندما يدخل المنزل، ولكننا كنا نفضّل عودته على الفراغ البارد الذى خلّفه غيابه..

كل شيء ينتهي قريباً

قرر أبي بعد عودته من المستشفى أن يبيع البيت ويشتري بيتاً آخراً في الطرف الآخر من القرية، لكي يبتعد عن أخيه ويتجنب الشجار معه من جديد، كانت بغابة التوت وبيعها بعد فترة وجيزة إحدى هوايات أبي.. حتى كان بعض سكان القرية يظنون أنه يتكسَّب من ذلك، ما لم يعرفه معظمهم هو أن أبي كان يبيع البيت بنصف الثمن كي يهرب من جيرانه الذين كان يمل منهم أو يتشاجر معهم كثيراً.

كان يحب تصميم البيت ورش الأحجار بنفسه وإعطاء الأوامر للعمال ومراقبتهم بنى أبي في القرية سبعة بيوت.

ساهمت الإنتقالات الكثيرة في أن أتعلّم ألّا ارتبط بمكان ولا صداقات طويلة المدى، لأنني كنت أعرف أنه كل شيء ينتهي قريباً.

"كل شيء ينتهي قريباً"، أصبح شعاراً جديداً لحياتي. أظن أن هذه التنقلات بجوار جوانب أخرى من تاريخي قد خلقت مني شخصاً لا يُحب الإرتباطات والإلتزامات.. شخص يسهل عليه الهجر والهجرة، ولكن كانت لهذه التنقلات أيضاً جوانب إيجابية، فقد قطنّا كل نواحي القرية وقابلنا كل أصناف البشر.

وكان بيتنا الجديد يقع بجوار منزل عمي الأكبر الذي كان لايحب الفقراء. كان عمي هو آخر رجل في القرية لا يزال متزوجاً من أربع نساء في نفس الوقت. وكان يسكن في بيته ذي الأربع طوا بق مع زوجاته الاربع وأبناءه وأحفاده.

كان "واحد وخمسون شخص يسكنون البيت الكبير الذي أطلق عليه أبناء عمومتي إسم "الدارة" لضخامته وكثرة شرفاته.

والجميل في هذا البيت أنه كان دائما مليئاً بالحركة والحياة. كُنتَ تستطيع أن تقف أمام البيت وتُنادي بأي إسم يخطر على بالك، وأنت على يقين أن أحداً من أهل البيت سيرد عليك. ومن طرائف هذا

البيت أن عمي أراد أن يشرب شاياً ذات مرة، ولكن لم يكن هناك شاي في المنزل، فأمر أحد أحفاده أن يذهب لشراء الشاي، ولكن حفيده هذا تجاهله، حيث كان يتفرّج مع باقي الأحفاد أمام التلفزيون ليُشاهد مسلسل الظهيرة فقام عمي منزعجاً وأغلق التلفاز وأمر أحفاده جميعاً ان يقفوا طابوراً ويذهبوا جميعاً لدكان "أبو إسماعيل" لشراء الشاي. وبالفعل ذهب أكثر من عشرين شخصاً بين الرابعة والثامنة عشر لشراء باكو شاي واحد..

كان معظم أحفاد عمي من الرعاع ولكن بعضهم كان حَسِن المظهر والخلق. كانوا على الأقل لا يعرفون شيئاً عن قصة الغجر أو الصليبيين، وكان بعضهم إذا أراد أن يُخاطبني يقول لي "يا عمي"وكان ذلك يعجبني. كنت ألعب معهم ألعاباً بدائية وعنيفة. فكنّا نقسم أنفسنا لفريقين ويروح كل فريق يرمي الآخر بأقحف التين الشوكي.

كما كنّا نلعب أيضاً لعبة إسمها "أولها خرا" لم أعد أذكر قواعدها ولكنني أذكر أنها لم تكُن لها علاقة بـ "الخرا". كما لعبنا لعبة إسمها "حرب دين" وكان أحد اللاعبين يحمل زميلة على ظهره وكان اللاعب المحمول يسمح له برفس منافسيه بالقدم أو ضربهم بجلبابه المعقود.. وفين يوجعك!! كانت إلعاباً عنيفة جداً ولكنها كانت تمنحني الشعور بالإرتياح. كان يُسعدُني أن يغبلني الأطفال الآخرون ويعتبرونني ندا لهم. ولكنني كنت لا أستطيع أن أقضي كل الوقت مع الآخرين، فكان داء العزلة قد تمكّن مني..

كنتُ أذهب كل يوم إلى "العلواية" وهي هضبة صحراوية صغيرة عند أطراف القرية وكنتُ أصعدها ثُم أتدحرج عليها حتى الأرض ثم أصعدها وأتدحرج من جديد طول الوقت حتى الإنهاك التام.

كنتُ أستمتع بمنظر غروب الشمس كثيراً من فوق هذه الهضبة. لستُ أدري مَن عَلّمني الإستمتاع بالشمس، فالشمس في قريتنا شيء نَفُرُّ منه ونخشى ضربته، ولكن شيئاً ما بداخلي كان ينفعل مع الأشياء الجميلة وقد رأيت يوماً مشهداً أظنه أجمل مشاهد طفولتي على الإطلاق.

كنتُ في طريق عودتي من العلواية إلى المنزل وقد دخلتُ في حقل تين شوكي لأختصر الطريق وفوجئتُ بمنظر لم تُصدقه عيني: وجدت مجموعة من الثعابين الملونة وقد شكلت دائرة محكمة ورأيت في وسط الدائرة ثعباناً أخر وراح كل منهم يتمايل برأسه ذات اليمين وذات الشمال وكأنهم فى حلقة ذِكِر. إختلط بداخلي الخوف والجمال والدهشة والإفتتا ن.

لم استطع مواصلة السير وكأن قدماي قد ضُرِبَتا في قاع الأرض كجدور أشجار التين.. حكيت لأمي ما رأيت فقالت لي لابد أنه كان عرساً لأحد الثعابين، وقالت لي أن الحيوانات والحشرات تعيش فى مجتمعا ت مثل البشر تماماً، وأنهم يسبّحون بحمد ربهم، ولكننا لا نفقه تسبيحهم. وقالت لي أن الرسول عليه

الصلاة والسلأم أمرنا بالعطف على الحيوان، وقالت أن رجلاً دخل الجنة لأنه أنقذ كلباً من العطش وأن امراة دخلت النار لأنها حبست قطة ولم تُقدم لها الطعام.

رحت أُفكر في هاتين القصتين طويلاً وكنتُ أتساءل: لماذا إن المراة هى التي تدخل النار دائماً؟ أحقاً إنمعظم أهل النار من النساء كما أخبر الرسول؟ ولماذا؟.. ولكنني كنت أيضاً أفكر في كل ذنوبي ضد الحيوانات والطيور التي عذَّبتُها حتى الموت.

رحتُ أُصلي وأسال الله المغفرة. وأصبحتُ لا أستطيع أن آكل لحم الطيور لأكثر من

عامين كانت أمي قد مرت بمراحل تحوّل كثيرة في الفترة الأخيرة.. فقد أصبحَت إمرأة ناضجة ومؤمنة. أيقنت أن محاربة طواحين الهواء لا تُجدي، فبدأت في إرتداء الملابس الحِشْمة وراحت تُصلي الفروض الخمسة وتقرأ في الكتب الدينية. ولأن أهل بلدتنا بيض القلب فقد غفروا لها ما كان وصاروا يكنّون لها الإحترام والتقدير ..

لاحظتُ بدهشة كيف تحولت أمي من قاهرية مُتمردة ومُبذّرة إلى إمرأة مؤمنة وفاعلة خير. كانت تُغدق بالعطاء على فقراء القرية، وكانت تفعل ذلك في الخفاء حتى لا يعرفها أحد بذلك ليأتي ليشكرها، لأنها كانت لا تنتظر أجراً إلّا من الله.

دقَّ أحد الشحاذين ذات يوم على بابنا وسأل أمي إن كان لديها ملابس قديمة من أجل الشتاء القادم.

فدخلَت أمي لغرفتها وعادت بعباءة "كشمير" أصلي جديدة كانت قد إشترتها لأبي منذ وقت قصير وأعطتها للسائل الذي ظن في باديء الأمر أنها تمزح معهُ أو تسخر منه. وعندما سألتها لماذا تفعل ذلك؟ قالت:

* "إن الله طيّب لا يقبل إلّا طيّب".. كنت أتحدث مع أمي كثيراً، ولكن حاجزاً ما كان يقف بيننا دائماً، فأنا لا أتذكّر أي معانقة أو ملامسة جسدية بيني وبينها منذ فطامي.

وكنت بعد "جريمة القاهرة" أستحي أن أقف عارياً أمامها أو أمام أحد، وكنتُ أُصمم على الإستحمام بنفسي، ربما كنت ألوم عليها أنها كانت صاحبة فكرة ذهابي للحضانة في القاهرة أو أنها لم تشعر بغريزتها أنني أُنتُهكت حتى ولو لم تنطق شفتاي. بذلك كنتُ أظن أن أبي هو مركز حياتي، ولكنني أظن أن علاقتي أو "علاقتي" بأمي لا تقل أهمية. فيبدو أنني قد ورثت منها الكثير من المشاعر والواجبات والأخطاء وعلامات الإستفهام ..

فَناء – بَقاء – تَوكّل

واصلتُ حفظ القرآن، وكان أبي راضياً عن تقدمي وكانت تلاوة القران تُدخل السعادة إلى نفسي. ولكنني لاحظتُ أنني لا أشعر بورع عندما أُصلّي. صار الأمر مجرد واجب عائلي أو طقس وثني إجتماعي. وكان بعض المنتمين للطرق الصوفية يُنظِّمون حلقة ذكر بعد صلاة العصر كل يوم خميس. كان أبي يعتبر طقوس الصوفية تُخالِف سُنَّة الرسول ولكنه كان يسمح لهم بالذِكِر في المسجد، بل وكان يُرسل لهم الطعام من حين لآخر، وكان يقول:

* "كلٌّ يعبد الله على طريقته".. بل كان أيضاً لا يمانعني إذا وجدني أقف معهم في حلقة الذِكر. كانت تُعجبني حركاتهم وتوسلاتهم النابعة من القلب. كانوا عندما يقولون: "**الله حي**" أشعر بإستجابة عاطفية بداخلي ،وكانوا عندما يرددون " فناء – بقاء – توكل " لا أفهم شيئاً، ولكنني أشعر ببصيص من الأمل، وكنت أفسّر هذه الكلمات بطريقتي الخاصّة على أن التوكل على الله هو الجسر بين العدم والحياة الأبدية. كان يعجبني أنهم يغنون في دائرة مغلقة مثل الثعابين في العرس ولا يصطفون مثلما نفعل في الصلاة أو في طابور المدرسة أو الطابور العسكري ..

كان يعجبني تفسيرهم لكلمة "ذِكِر".

كانوا يقولون إن كل العلوم مخزونة بصدر الإنسان، ونحن لا نتعلم أي شيء جديد وإنما فقط نتذكّر عندما نذكر الله. كانوا يقولون إن الحقيقة تكمن في قلب البشر وليست في العالم الخارجي. أعجبتني أيضاً رؤيتهم للقضاء والقدر. قالوا إن الله قد عقد مع بني أدم عهداً، وبموجب هذا العهد تكون للإنسان حرية الإختيار التي سماها الله "أمانة"، وحرية الإختيار هذه "تجعل الإنسان مكلّفاً ومسؤولاً عن مصيره.

وفي الوقت نفسه لايحدث شيء بدون إرادة الله. فالله يُقرر مصير العبد والعبد يُقرر كيف يتعامل مع ما أصابه من خير أو شر..

كنتُ أبحث في هذه الفلسفة عن تفسير لما حدث لي في طفولتي وعن طريقة للتعامل مع قدري . فتح عالم الصوفية عينايَ على دنيا أخرى وأفكار جديدة تماماً لم أفهم بالطبع كل ما كانوا يقولون في تلك الآونة، ولكن كلامهم كان دائماً يدخل إلى قلبي بتلقائية. أعجبني أنهم لا ينكرون الشعائر ولكنهم في الوقت نفسه لا يُمارسونها بطرق وثنية تكرارية. أعجبني أنهم كانوا لا يسهبون الحديث عن جهنم ولا يتلذَّذون بذكر أحاديث العذاب، وإنما كانوا يتكلمون عن "نار المحبة الإلهية".

لم يدرس أحد منهم علوم الدين ولا أصول الفقه، ولكنهم كانوا يتحدثون ببساطة المؤمن وبيقين المتوكل على الله وبعد فترة ضايق أبى أنني كنت أقضي وقتاً طويلاً مع "**الدراويش**" وبدأتُ في إهمال مواصلة حفظ القرآن.

عاد يوماً الى البيت وطلب مني أن أجلس إليه وأتلو عليه سورة "**الطلاق**" وهي سورة كنت قد جفظتها منذ أكثر من خمس سنوات. لقد كانت في الواقع سورة سهلة جداً، ولكنني كنت في ذلك الوقت أركز على السور الطويلة. ولذلك فقد إرتكبتُ أخطاء أربعة أثناء التلاوة عاقبها أبي بأربع صفعات على وجهي. كان أحد أبناء الفلاحين قد تلى عليه نفس السورة في هذا اليوم في المسجد دون خطأ واحد. صرتُ أكره هذه السورة وأتجنبها كلما كنت أختم قراءة القرآن في شهر رمضان..

كانت هذه هي أول مرة يصفعني فيها أبى على وجهي منذ فترة طويله، فقد "توقف منذ سنوات أن يستخدم يده في معاقبتي بعدما ضربني على رأسي وأنا طفل صغير فصرتُ أعاني من صداع حاد وكنتُ لا أسمع بأذني اليسرى لفترة طويلة. إشترى أبي بعدها خيزانة طويلة ليؤدبني بها دون أن يكسّر عظمي أويهشم رأسي.

وكانت الخيزرانة أداة عقاب مفضّلة لدى الآباء والمدرسين، فليس لها آثار جسدية وضرباتها مؤلمة في نفس الوقت ،وكانت الخيزرانة الجديدة مُخصصة لضربي أنا وأمي فقط، فقد كان يعتبر أخي الأكبر "محمد" يتيماً لغياب أمه، وكان يعتبر أخواتي البنات "مكسورات الجناح" فلا يجوز ضربهم، أما أخي الأصغر فلم يكُن قد وصل سن العقاب بعد..

عندما رأيت أبي يضرب أمي لأول مرة أُصِبتُ بصدمة شديدة ورحتُ أتساءل لماذا يفعل ذلك؟ ولماذا تسمح هي له بفعل ذلك؟ لقد ضحَّت بالغالي والنفيس من أجله وكانت تقف بجواره في السرّاء والضراء، كانت تُكرّس؛ حياتها لراحته حتى درجة إنكار الذات. حتى عندما كان يضربني بسبب أو بدون سبب كانت تأتي إلي وأنا أبكي وتطلب مني أن أذهب لأبي وأستسمحه حتى يرضى عنّي، كنتُ أقول لها من يجب عليه أن يعتذر لمن؟ وأيضا بعدما كان يضربها لأتفه الأسباب كانت هي التي تتوسل إليه وتستعطف رضاه . كنت أتساءل:

* أي ذنب إرتكبت أمي لكي يضربها أبي بكل هذه الوحشية؟ لماذا كان هذا الرجل مليئاً بكل هذا العنف؟ كنتُ أصلي وأدعو الله بعد كل مرة يضربني فيها أبي أن تكون هذه هي المرة الأخيرة. ولكن عقاب أبي كان يأتي دائماً بإنتظام، إما لأنه كان يمسك بي وأنا ألعب الكرة في الشارع، أو عندما كنت أضرب إحدى أخواتي، وكنت قد ضربت أختي الصغرى مرة لأنها فصَّصَت كتابي المدرسي وراحت تلعب بورقه فصرختُ بصوتٍ عالٍ أيقظ أبي من نومه بعد الظهيرة.

كانت جريمتي مُركَّبة. فقد ضربتُ أختي من ناحية وأيقظتهُ من منامه من ناحية أخرى. ويا ويله وسواد ليله اللي كان يصحّي الشيخ عبد المتعال من منامه. فقد كان أبي قد فرَّ من المعركة إثناء حرب النكسة وإختبأ في العريش في أحد بيوت البدو، وكان كلما دق باب العائلة البدوية إنتفض أبي مذعوراً، فلو وقع أبي في يد الجيش المصري لعوقب

بتهمة الفرار من الميدان، ولو عثر عليه الإسرائيليون لوقع في الأسر. وقد لازمت هذه العقدة حياته ..

قام أبي مفزوعاً من نومه وجاء إليَّ يغوص في عرقه وإنهال عليَّ ضرباً حتى صرت لا أعرف بأي أعضائه يضرب وأي أعضائي يُصيب، سقطتُ على الأرض فراح يركلني برجله حتى كَلَّ ،وبعد فترة من الراحة عاد إليَّ وأنا لا أزال طريح الأرض وواصل ضربي من جديد ثم أخذني إلى المرحاض وراح يصب عليَّ الماء البارد..

كان غضبه شديداً في هذا اليوم، ويبدو أن كل ما فعله لم يُهدىء ثورته، فأخذني بملابسي المُبتلّة إلى دُكان "مسعود" الحلاق وسأله أن يحلق رأسي " زيرو".. كان هذا الحلّاق هو الذي يزورنا في البيت ويحلق لنا، ولكن أبي أراد إهانتي أمام زوّار الدكان، وقد كان له ما أراد ولم يَلُمهُ أحد على عنفه معي،

فالكل كان يفهم أنني لست ككل أبناء القرية، فأنا بحاجة لتربية خاصة لأتمكَّن من تحمّل مسؤولية الإمامة في المستقبل..

كانت عقوبات أبي تأتي دائماً، ءولكن أسوأ مافيها لم يكُن العنف ذاته وإنما كونها كانت تأتي غير مُتَوقعة، ولم يكن يتبع في عقابه منهجاً أو منطقاً يجعلني أتعلم كيف أتفادى هذا العقاب. فقد أمسك بي على سبيل المثال مرات عديدة عندما كنت العب الكرة في الشارع، فضربني مرة بعنف، ومرة أخرى وقف يراقبني ويُشجعني من بعيد "شَوووِّط يا غشيم!" ومرات أخرى عديدة مر مرور الكرام دون أن يلتفت.

وكان أقسى العقاب على نفسي عندما كان يحبسني في غرفتي ولا يتكلّم معي، فكنت لا أدرى أهذه هيَ العقوبة أم أنه يجلس في الغرفة الأخرى ويفكّر في عقوبة مُناسبة؟

وعلى الرغم من كل هذا فقد كان أبي دوما هو مَثَلي الأعلى وكنتُ ولا أزال أُكِنُّ لهُ كل الإحترام والتقدير.. ولو كنتُ بطاعتي قادراً على الحب لأحببته! كنتُ أتناسى كل جوانبه السلبية وأنفض الغبار عن صنمه المتعالي فوق رؤوسنا..

كنتُ أطرد كل إرهاصاته وإخفاقاته من رأسي لأحتفظ بصورة الإمام العادل الحنون في مخيلتي! ولأنني كنت قد مللتُ صمت إلـه السماء فقد جعلتُ من أبي إلاها في الأرض.. ولأنني كنت أخشى أن يكون أبانا الذي في السماء مثل أبينا الذي على الأرض، فقد أضفت على أبي صفات رب الخلائق..

وفي نهاية المطاف فإن كلاهما كان غاضباً منتقماً ولا تؤمَن جوانبه.. كان يُشرّفني ويُرهقني في الوقت ذاته أن أبي كان يعلق عليَّ آمالاً كبيرة ويؤمن بقدراتي أن أصبح شيئا عظيماً ..

كان دائماً يخشى أن يُصيبُني مكروه فقد كان الوحيد الذي يرفض فكرة ذهابي للقاهرة لدخول الحضانة، وكأنه كان يشعر بالفطرة أن شيئاً ما داخلي بستفز الشر في نفوس البشر ،وقد كنتُ الوحيد بين أبنائه الذكور الذي لم يسمح لة بتعلّم السباحة..

سألتة ذات مرة أن يأذن لي بالذهاب إلى النيل يوم عيد شم النسيم، وكان النيل لا يبعد عن ببتنا الّا مسافة 700متر فقط، فقال لي:

* "روح بس لو لمست الميَّه لمس حاضربك لحد ما تموت،ولو عمت في الميَّه من ورايه وغرقت حطلّعك من الميَّة وأضربك بالجزمة وإنت ميّت!!" وذهبتُ للجلوس على النيل بعد أن أقسمتُ بالله ثلاثاً الّا أَمسُّ الماء ببدني ، وجلستُ على صفة النيل أُراقِب الأطفال

والكبار يبلبطون في مياه نهر الحياة وأنا أفكر في كلمات أبى "متفكرش إني مش شايفك ، أنا عيوني في كل مكان! تماماً مثل إله السماء كان أبي هو الغائب الحاضر دائماً رأيت مرة في منامي أن أبي سقط ميتاً في ساحة المسجد، ففرتُ من المسجد وجريت في إتجاه النيل ورحت أنزع كل ملابسي وأسبح في مياهه وبعد إستنباطي أصابني عذاب القبر فرحت أصلّي وأدعو لأبي بطول العمر..

لم أمس مياه النيل طول بقائي في مصر، وقد تعلّمت السباحة لأول مرة في بحيرات ألمانيا الباردة

***

خيبت آمال أبي مرة ثانية في ذلك العام، جاء بعض أعمامي لزيارتنا في ذلك اليوم وسأل أحدهم عن نتيجة إمتحانات آخر العام الخاصة بي فأجاب أبى "**والله شاكر السنه دي سقط**"- فتعجب الجميع لذلك وراحوا يهزّون رؤوسهم، إذ كيف أكون أول المدرسة في كل عام وأرسب في هذا العام بالذات؟ فأجاب أبي:

* " يعني هو طلع الثاني السنه دي، وده معناه عندى إنه سقط" ..تَفوّق عليَّ مرة أخرى أحد أبناء الفلاحين افاقني هذا العام من سذاجتي وأوهام الملائكة التي تهمس لي بأجوبة الإمتحانات، حرَّم أبي علي بعدها اللعب في الشارع أو الذهاب لحلقات ذكر الصوفية، وجلستُ كل مساء أرتِّل القرآن بين يديه ولكنني، والحق أقول، كنت أجد شعوراً خاصاً عند ترتيل القرآن، فهو كان ولا يزال أجمل الكتب التي أعرفها، تتحدّى كلماته عقلي ومنطقي وتفوق موسيقاه كل الألحان .

كان يعجبني ويُثير تفكيرى موضع "مصر" الخاص في القرآن- فهى بلد "**هاجر**" الغربية المطرودة، وهي البلد التي عَذَّبت قوم موسى وطردتهم، وهي نفس البلد التي آوَت يوسف وإخوته وإستقبلت المسيح وأمه، ولكن

قصصاً أخرى في القران كانت تتنافى مع فهمي. لرحمة الله وعدله- مثل قصة سيدنا يونس وأيوب وقصة الخضر الذى قتل غلاًما خشية أن يرهق أبويه طغياناً وكفراً ، وقصة إبراهيم الذى رأى في المنام أنه يذبح ولده فقام وحاول تنفيذ ما رأى دون أدنى إعتبار لمنطق أو مراعاة لحقوق طفل لا يعرف ما هي الرؤيا ومن هو الله ..

كنت أجلس مرةً أتلو القرآن على أبي وسمعتُ بعض أطفال القرية يجوبون الشوارع ويطبّلون على عُلب صفيح وهم يُغنون:

فاطمة بنت النبي

عملت رز بلبن

حِلفت ما هي دايقاه

غير لمّا القمر ينسا ب

يا بنات الجنة الجنة

سيبوا القمر يتهنّى

يا بنات الحور الحور

سيبوا القمر يدور

كان الأطفال بتغون للقمر المكسوف وكنت أود أن أُغنّي معهم، ولكنني كنتُ أجلس لأرتل القرآن أمام أبي.. ومن عجيب الصدفة أن ذكر القمر قد ورد فى الايات التي كنت أقرأها تلك اليلة وفي الصباح التالي كنت أجلس أمام المنزل بعد عودتي مع أبي من صلاة الفجر أنتظر شروق الشمس، فلمّا رأيت قُرصها الأحمر المستدير خلف النخيل أشرتُ بإصبعي إليها وقلتُ "**هذا ربي، هذا أكبر**" ..

كنت أعرف القصة من أولها لآخرها فبدأت بالشمس مباشرة من باب الإختصار، لأنني قد عرفت أنه لا فائدة من مناجاة النجوم والقمر كما تعلّمت من سورة الأنعام :وكان أبي على مقربة مني وسمع ما قلتُ فجاء إليَّ وسالني مُبتسماً ماذا افعل؟ فقلتُ له :

* "أنا بدوَّر على ربنا".

* ربنا مش ضايع يابني عشان تدوَّر عليه" قال وإبتسامته غير المألوفة لاتزال على شفتيه..

* "طب وهوا كان ضايع لما سيدنا إبراهيم كان بيدور عليه؟" سألته بمكر..

* "لأ.. إن الله موجود قبل الموجودات، هو الأول والآخر وهو الظاهر والباطن" قال أبي بصبر وإستمر في خطبتهِ المصغّرة ،وبعدين سيدنا إبراهيم وجد ربنا بفطرة الأنبياء وحكمة الحُكماء ،بس سيدنا إبراهيم رفض دين قومه، يمكن أنا كمان أرفض دين قومي؟" سألته بتحدٍ لم بعهده مني"-

* "بس سيدنا إبراهيم رفض دين قومه لأنه كان دين الضلال أما ديننا فهو دين الحق" رد أبي ببلأغته التي لم تُجديني .

* "بس قوم إبراهيم كانوا برضه مفَكرين إن دينهم هو دين الحق وسيدنا إبراهيم كسر أصنامهم مش ممكن يكون ديننا النهارده بقى دين الضلال وإن إحنا محتاجبن دين جديد؟" سألت أبي وأنا اشعر أني تخطّيت حدودي ..

فجاة تحولَت إبتسامَة المعرِفَة المُرتسِمة على وجه أبي إلى إبتسامة حَرَج ثم إلى تجهّم صامت ثم قال بعدها:

* "وإنت بقى عايز تدوَّر على ربنا ليه؟"..

* "عايز أعرف هوا مين – وعايز مننا إيه؟"..

* "إسمع يابني.. مفيش حاجة إسمها ندوَّر على ربنا. الموضوع ملش سَبَهْلَلَة! البحث عن الإدراك إدراك والبحث في ذات الله إشراك.. يُدرِك الأشياء ولا تُدرِكُهُك الأشياء.

* "ربنا كان فين قبل ما يخلقنا، وكان بيعمل إيه؟ وخلقنا ليه؟" سألتُهُ من جديد

* "كان عرشه على الماء وكان كنزاً مخفياً وكان يربد أن يُعرَف فخلَقَ الخَلْق ليعرفوه ويعبدوه" جاءت إجابة أبي المحترفة بدون أدنى تأخير

* "يعني ربنا كان وحيد عشان كده خلقنا؟ إنفلت مني السؤال دون أن أُفكّر في تبعاته".

* "إخرس يا سافل يا إبن الكلب" قال أبي متضجراً وعيناه محمرَّتين من الغضب "أنا مش عارف مين اللي" بيحشي دماغك بالكلام الفارغ دا، الظاهر إن قُعادك مع

المجاذيب الدراويش بَوَّظ نَفوخَك.. ما تصدقش المخابيل دول اللى عايشين عاله على حساب خلق الله.. ربنا ما خلقناش عشان نرقص ونذكر. ربنا خلقنا عشان نعمّر الأرض ونسبّح بحمده. إنسى الكلام الفارغ ده نهائي، ولو سمعتك بتقول العَك ده تاني حاقطم رقبتك..

ذهب أبي غاضباً وترك عشرات الأسئلة تتراقص في رأسي.

* ما الفرق بين أبي وأب إبراهيم؟ "إني أرا ك وقومك في ضلال مُبين"! يا الهي! إلى من أذهب؟ مَن أسال إذا أردت السؤال عنك؟ أنت لا تجيبني كما وعدتَ في قرآنك. وأبي ظِلُّكَ على الأرض،يغضب إذا أطلْتُ الحديث عنك، لم يفهم أبي أسئلتي ولكنني حاولتُ أن إفهم غضبه. ربما أحس أبي أن إبنهُ الذي كان يريد أن يورثهُ القرآن غير جدير بهذه المهمة ..ربما فَهِمَ للمرة الأولى أن حفظ القرآن يحتاج لأكثر من ذاكرة فولاذية ،ربما أحسَّ بأن كل مجهودهُ في السنين السابقة ضاعت هباءاً منثوراً ..

عند المقابر

(..يلب.. يدب.. يلطش.. يطسّ.. يهبد.. يخبط.. يشمط)

كان لي زميل بالمدرسة إسمه أحمد عبد المعبود. كانت تربطني به علاقة تشبه الصداقة. فقد كُنّا من أوائل الفصل وكُنّا نشارك سوا في مسابقات المدارس على مستوى المحافظات. وكانت لنا هواية مشتركة وهي جمع مرادفات لأفعال اللغة العربية الفصحى من اللهجة المصرية. وفي هذا الأسبوع كُنّا نجمع مترادفات لفعل"**يضرب**" وإكتشفنا أن لِفعل "يضرب" مرادفات أكثر من أي فعل آخر (ينتع-يلكع - يسكع- يفقع - يرقع - يلطع- يزغ) ...

تجاوزتُ الحادية عشرة من عمري وكنت تحت ضغط رهيب، فكان عليَّ أن أُكمِل حفظ القرآن فى خلال شهور قبل أن أُتِم التانية عشرة مثل أبي في صِباه- ولكنني كنتُ مُصمماً على إتمام المهمة في الوقت المحدد لأدخل أخيراً إلى عالم الكبار وأترك خلفى سنوات الذل والمهانة، كنتُ أتخيّل بأبناء القرية وهم يصطفون ليستفتوني في قضايا حياتهم ويُقبّلون يدي ويُعاملونني بإحترام،

ولكنني كنتُ لا أُريد أن أدخل إلى عالم الكبار وحدي، فكنت أُواصل الإلتقاء باقراني في المدرسة وأُحاول الإختلاط بهم قدر الإمكان، حتى لو أن معظمهم كان يكبرني سِناً ويتلذذ بالإستهزاء مني ومضايقتي ، كانوا يتراوحون بين إلثالثة عشر والسادسة عشر وكانوا جميعاً بالغين ويعرفون أسراراً تغيب عني حول عالم البلوغ واليفاعة، وكنت أُريد أن أتعلّم منهم ..

جلسنا ذات مرة جميعاً في المقابر الجنوبية بعد الطهيرة وهو الوقت الذي ينام فيه حتى الجن الأزرق فى القرية، كُنّا في باديء الأمر نتحدث عن أمور عادية في الحياة اليومية

في المدرسة ،كنت أتبادل مع أحمد عبد المعبود المترادفات

يسفَخ –ينفُض–يهُف–يزعُد – ينتِش –

* لا لا يا فالح ينتش معناها يسحب مش يضرب ..

* آه صح –

وفجاة وبدون مقدمات إقترح أحدهم أن نقوم بقياس أعضائنا الذكرية لنعرف أيُّنا الأكبر وأيُّنا الأصغر، وبدأ هو بتهبيط سرواله فوضع الجميع أمام الأمر الواقع، فراح كل منهم يرفع ثيابه ثم يتزع لباسه الداخلي ، كان منظراً مقززاً ومثيراً للغثيان، وكان شيء ما بداخلي يقول لي:

* "إهرب الآن" ولكن شيئاً آخر كان يُحجّر قدمي في موضعهما فلا أقوى على الحركة .. كان هذا المنظر مثل حادثةعلى الطريق، لا "يسطيع أن نُمعن النظر اليها من بشاعة الجروح ولكنك أيضا لا تسطيع أن تُدير عنها وجهك ..

كنتُ انا وزميلي أحمد عبد المعبود الوحيدين الذين لم ينزعا سراويلهما بعد ، كان أحمد في الثالثة عشر وكنتُ لم أبلغ الثانيةعشر بعد، كان بتاعانا غير قادرَين على منافسة هؤلاء الغيلان، ولكن أحمد في النهاية إنساق لرغبتهم وشلح عورته، فراح الكبار يضحكون عليه ويعايرونه أن بتاعه صغير مثل الدودة.

وكنتُ لا أزال أقف أمامهم لا أُشاركهم ولا أتجنبهم، وقدء تناسوا وجودي لفترة وراحوا يستبقون ايُّهم يقذف حيواناته المنوية إلى أبعد مكان. كنتُ أتساءل:

* "لو أن كائناً غريباً جاء من الفضاء البعيد وهبط على الأرض في هذه البقعة من قريتنا ورأى الشباب وهم يُمارسون ما كانوا يمارسون، فماذا سيظن عن الجنس البشرى؟ لابد أنه سيعتبر البشر هم أحط أنواع المخلوقات وأكثرهم بدائية

* "إيه ما تعرفش تضرب عشرة؟" سألنى أحدهم وواصل السباق دون الإنصات لإجابتي. لم أكُن أعرف حينهاسوى عشرة الكوتشينة والعشرة المبشرين بالجنة ،

كان أحمد عبد المعبود يحاول أن يعوّض صغر حجم بتاعه بمحاولة قذذف أسرع لسائله المنوي.. وكان يحاول ويحاول حتى إمتلأ جبينه بالعرق وفي النهاية لم يخرج منه شيء غير الهواء، فراح الجميع يسخرون منه ويضحكون عليه بلارحمة.

وفجاة إلتفتوا إليَّ وتذكروا وجودي حولهم. إقترب مني ثلاثة منهم وقال أحدهم:

* "وانتا؟ مش عايز تقلع وتورينا الهانش بتاعك؟" لم أعرف حينها أيضاً معنى كلمة "**هانش**" ولكني عرفت المعنى فيما بعد..رأيت الشر في عيونه وأحسستُ أن هذا اليوم لن يمر على خير.

* "**هجوم**" نادى نفس الولد على الباقين فلبوا مجيبين إلّا أحمد.

وعندما هجم عليَّ الشباب وأمسكوا بي تعطّل بدآخلى شيء ما بتلقائية غريبة، وكأنه جهاز ذاكرة آلامي الذي يعرف ما تسببه مثل هذه المواقف لي من عذاب ..

نزع الغوغاء ثيابي ونزعوا عني ملابسي الداخلية، كتَّف إثنين منهم ذراعيَّ وراء ظهري وثبَّتَ أحدهم رأسي على الارض وهو يضع يده على فمي وراح كل واحد منهم بعد الآخر يُدنّس أحشائي بلذته الحيوانية.

كان كل شيء؟ يبدو لي سرياليا وكأنه حلم أو خيال. لم تُبْدِ عضلات جسدي أدنى مقاومة حتى ظن بعضهم أنى أتلذذ بما يفعلون. كانت فقط بعض الخواطر تدور فى ذهني وكانني أحلم.

كنتُ أرانى أتحدث إلى الله:

* " لماذا يارب! لقد كنتُ أبحث عنك بشغف ولهفة طفل يتيم؟ ".أهذهِ هيَ إجابتك؟ هل يعجبك ذلك؟ أهؤلاء شباب خير أمة أُخرِجَت للناس؟ ها أنت قد أكملت مذلّتي، فماذا بعد في جعبتك أيها الرحيم؟ !!..

كان أمراً لا يُصدقه عقل. لقد حدث لق نفس الشيء للمرة الثانية. أي جينات عاهرة "تدخل في تكويني يشمّها الرجال فيهجمون عليَّ كالحيوانا ت المفترسة ؟

أم أن الغدر يجد لذة خاصة في الإزدراء بأمثالي ومواصلة إهانتهم؟..

* هل خُلقتُ فقط لفك ضيقة الشباب المحروم المكبوت؟ وهل أنا الآن "**خَوَل رسمي**"؟ رحتُ أتصوَّر أهل القرية وهم يحملونني مكبلاً لمئذنة المسجد الكبير ثم يُلقون بي من أعلى،فهذه هى العقوبة التي طلبها الرسول لكل لوطي شاذ، على حد قول مدرس الدين في المدرسة الإعدادية.. ولا اظن أحداً سيطلب لي الرحمة فقد فعلتُ فعلتي هذه للمرة الثانية بعد فترة طويلة ، لم أكُن أعرف بعدها كم من الأعضاء الذكرية قد تُفحّش بداخلي..

بدأ أحمد عبد المعبود وهو الوحيد الذي لم يهم بالهجوم عليَّ، بدأ يصرخ ويطلب من الشباب أن يكفّوا ، لو أبوه عرف باللي حصل ،إنتو وأهاليكو هتباتو في السجن النهارده!" يبدو أن كلمات أحمد قد أفاقت الشباب من نشوة حيوانيتهم فخلّوا سبيلي وجروا بعيداً.

ووقف أحمد بجوارى وهو يشعر بالذنب وراح .يؤنبُني:

* "إنت بس مالك ومال ولاد الكلب دول؟ بتلعب معاهم ليه ؟ دول مش من مستواك" قالها أحمد ولا زلتُ طريحاً على الأرض وآثار العنف واضحة على جسدي." ماتخفش يا شاكر! أنا مش حقول لحد اللي حصل.. ماتخفش"..قالها وذهب يملأه الخجل .

لم أكن أقوى على الكلام ولا حتى على القيام من الأرض. نظرت لأعلى فقرأت على أحد المقابر "هذا قبر المرحومة مجيدة عثمان ابو عاشور" فتساءلت لماذا لا يوجد قبر هنا أختبيء به يكتبون عليه بعد أن يواروني فيه "هذا قبر المنسي من الله شاكر عبد المتعال" !!

منطقة خالية

ظل جهاز شعوري بالألم معطلاً.. ذهبتُ إلى البيت وكنت أحاول أن أكون طبيعياً قدر المستطاع. لم اختبيء في غرفتي بل ذهبت للإستحمام ثم جلستُ أمام أبي أتلو عليه القرآن ،وكأنَّ شيئاً لم يكُن. أحسستُ أن شيئاً بعد اليوم لن يؤلمني أكثر مما كان. عندما فرغت من ترتيل القرآن هز أبي رأسهُ مُستحسناً وقال:

* " فات الكثير ما باقي ألّا القليل" ...نظرت إلى عيون أبي طريلاً وهو ما لم أقوَ على فعله في الماضي. وكأني كنت أستدِر منه

بعض العطف. أحسستُ برغبة عجيبة أن أرتمي في أحضان أبي. كان ذلك إحساسا غريباً للغاية، فقد كنتُ أَظنني سأتجنب كل البشر في ذلك اليوم. لم أكُن أدري لماذا إنتابتني هذه الرغبة في عناق أبي،

وعلى أي حال فإن العناق لم يكن إحدى خصال أبي، فقد إعتاد أن تكون هناك مساحة كبية بينَهُ وبين أبنائه دائماً..ذهبت إلى فراشي وحالة من الهدوء النادر ما زالت تُهيمن عليَّ ..

سقطت في نوم عميق لم يعكّر صفوه شيء، وكأن ما مَررْتُ بهِ في ذلك اليوم لم يكن إلّا فيلماً سينمائياً شاهدته عن بعد ولم إلعب فيه الدور الرئيسي، وفي اليوم التالي ذهبتُ الى المدرسة كالمعتاد وحاولتُ إعطاء الجميع إنطباعاً عادياً عني.

ولكنني من باب الإحتياط أخذت معي سكينة سرقتها من المطبخ.

وجاء اليَّ أثناء الفسحة طالب لم يكن من مجموعة لمقابر وقال إنه سمع بما كان بالأمس ووعدني ألّا ينشر القصة في المدرسة إذا سمحت "له بـ"ساعة أُنس" مثل الآخرين. نظرت إلى سور فناء المدرسة وقد كُتِبَ عليه:

* "كُن كالنخيلِ عن الأحقاد مُرتفعاً *** يُرمى بصخرٍ فيَرمي أطيب الثَمَرِ".

وضعتُ يدي في حقيبتي بكل هدوء وأخرجت السكينة وأمسكتُ بياقة قميصه وقلت له مهدداً:

* "أُقسِم برب العزّة اللي حيجي جنبي حضربه بالسكينة في صدره من غير ما أفكّر يا ولاد ميتين الكلب" ورغم هدوئي التام فقد حاولت إصطناع الغذب الرهيب..

لم يكن أحد قد رآني ثائراً كهذا من قبل.. وبالطبع فإنني كنتُ لا أزال جباناً وغير قادر على تنفيذ تهديداتي ولكن الخدعة نجحت ولم يضايقني بعد ذلك أحد بقصة المقابر على الاطلاق...

قررتُ ألّا أُفكّر في حياتي ومعناها بعد ذلك. قررتُ ألّا أكون إلّا مُراقباً للحياة وغير مُشارك فيها. وفجاة إكتشفتُ إهتمامي بحياة أخي الأكبر محمد. ماذا يعمل الآن؟ كيف يبدو يومه؟ وكيف تبدو غرفته؟ ..

كان محمد قد بلغ العشرين وتزوّج من أسابيع للمرة الثالثة وكانوا يسمونه في القرية "قاتل العذراوات" فكان يتزوج بنت السادسة عشر ينتزع عذريتها ثم يُطلقها بعد شهور ويبحث عن عذراء جديدة. وكانت مُطلقاته لا يَجِدْنَ بعد طلاقهن إلّا رجلاً عجوزاً يعملْنَ عندهُ بمثابة خادمات..

فعُذرية المرأة هيَ شرفها، وشرف المرأة كما قال عمنا يوسف بك وهبي زي عود الكبريت: ما بيولعش غير مرة وحدة ... هل تُذكرنا هذه القصة بقصة أخرى سَلَف ذكرها في هذا الكتاب؟ إنها قصة أم أخي التي لاقت نفس المصير من قبل، فها هو القدر يُعيد نفسه، فهذا النظام القهري الذي نعيش فيه يدور بسرعة ويُبدّل الأدوار، فلا تظل ضحية ضحية ولا يستمر الجاني مجرد جاني. وبهذا لا يفكر أحد في تغيير النظام لأننا صرنا أنفسنا النظام، فلا حاجة لثورة أو تعديل أو كلام فارغ ..

كان أبي يدفع كل مصاريف زيجات أخي وتطليقاته كما كان يعوض خسارة أي مشروع تجاري يتورط فيه. كانت قطعة من حقول أبي تُباع بعد الأخرى لسداد ذلك. وكان محمد في هذا العام قد إستمر على عمل بدا وكأنه سيستمر فيه، فقد أصبح بنّاءاً وصار معلماً في فترة بسيطة.

وقد سألته ذات مرة بعد حادثة المقابر أن يأخذني معه لأُساعده في البناء.

كنت بحاجة لعمل يدوي يُنهِك بدني كي أنام الليل بسهولة دون تفكير فيما قد كان. ولكن محمد كان لايزال يحتفظ بعدوانيته القديمة تجاهي، فرد على طلبي قائلاً:

* "إيديك الناعمين دول ما ينفعوش في شغل المونة والطوب..

الشقا والكفر مكتوب على اللي زيي أنا بس!" قالها وكأنهُ يجعلني مسئولاً عن عنائه ولكنه في نهاية إلمطاف قد وافق ان يأخذني معه شريطة ألّا أُسبب أي مشاكل أو أطلب أي أجر .

ولكن محمد راهنني على أنني لن أحتمل العمل أكثر من ساعة واحدة. كان يوم الجمعة ولم يكُن مألوفاً إن يعمل البناءون في هذا اليوم، ولكن كان على أخي أن يُسلم البيت الذي كان ببنيه قريباً. لم يكن أمراً غريباً أن يعمل طفل دون الإثني عشر سنة في المعمار، وقد عانيت كثيراً من حمل الأحجار في ذلك اليوم، ولكني لم أشتك طول النهار، وقد فوجيء محمد بصبري وجَلَدي في العمل وكان فخوراً بي في نهاية اليوم، بل وأعطاني ثلاثة جنيهات هو نصف أجر العامل الكبير.

أرهقني العمل كثيراً ولكنه منحني إحساساً بسيطاً بالرِضى رغم الآلام المتبقية التي خلّفتها الأحجار على يدي وكتفي. كنت في غاية السعادة بأول نقود أكسبها من عرق جبيني وكنت لا أُريدء أن أنفقها على أي شيء.

ذهب أخي بعد العمل لزيارة عائلة زوجته معها وسنحت لي الفرصة أول مرة أن أدخل غرفته. كانت رأسي مليئة بالأسئلة: هل يقرأ أخي الكتب؟

هل يستمع إلى الموسيقى؟ وأي موسيقى يُفضّل؟ عندما دخلت غرفته رأيت صورة كبيرة للفنّانة "**وردة**" معلّقة فوق السرير، وكانت معظم الشرائط الموضوعه على "الكومودينو" الخاص بأخي هي لوردة ولميّادة الحنّاوي ،مذاق غريب لم أتوقّعه لأخي ، كنت أظن أنه يستمع لأغانٍ سريعة لـ "حميد الشاعري" مثلاً مثل باقي الحرفيين في القرية . لم أكُن أتوقّع أخي على هذه الدرجة من الرومانسية ، ووجدتُ أيضاً كتاباً لتعليم قواعد اللغة الإنجليزية بجانب السرير ..

هل يتعلّم محمد الإنجليزية !! كم كنتُ سعيداً لأنه يُشاركُني هذه الهواية ، لما فتحت دُرج "الكومودينو" فوجدت بعض انقود وقلّامة أظافر وقطعة شيكولاته ملفوفة في ورق "سوليفان" . فتحت الشيكولاته بحذر وأكلت قطعة منها . وإكتشفتُ أنها لم تكُن شيكولاته بالمرّة! ! ولكنني إكتشفت ذلك متأخراً فقد كنت قد بلعت ما مضغت . أعدت الشيء الغريب إلى ورقة السوليفان" ووضعته في مكانه، ورحت أتساءل ماهذا الطعم الغريب؟

لم يمض الكثير من الوقت حتى بدأت أشعر بتغيّرات واضحة في جسدي. بدايةً شعرتُ بدوران كل الأشياء من حولي وأصبحت أرى كل شيء مموّه وعائم.

أحسستُ بغثيان شديد وإنساب معي العرق بغزارة. أردت الصعود لغرفتي ولم أكُن أدري أيحملني درج السلَّم لأعلى أم لأسفل! وبالرغم من كل هذه المشاعر الغريبة فإن هذه الدقائق كانت الأكثر سلاماً في حياتي منذ سنوات.

رأيت العالم لدقائق معدودة من زاوية نظر مختلفة تماماً. أحسست وكأن قلبي يستحم في نافورة من نور تطهّره من كل مخاوفه وأحزانه. علمت بعد ذلك فقط متى كان أخي يستمع إلى وردة وميّاده .. أحسستُ بوجود الله قريباً مني بدون شك أو ريبة.

رأيت نفسي والعالم لأول مرة كما أرادنا الله أن نكون في ود وتفاهم وحكمة.

أحسستُ أني أتلقى أجوبة لم أطرح لها أسألة.

أدركتُ لأول مرة الإمكانيات التي تكمن في حنايا مخي، كل ذلك بفضل "حشيش أخي"... لم أكن أعلم أن الحشيش بيوصلنا إلى الله بهذه السهولة. .كان الله قريباً مني جداً، ثم بدأت في التقيء. . وهنا إنتهت القدسية والرومانسية ،مخدرات في بيت الشيخ عبد المتعال!؟ الشيطان في دار الامام!؟

كان كومودينو أخيهو المنطقة الوحيدة الخالية من الدين في هذا البيت، أو هكذا كنت أتصور أيام سذاجتي، وكان دُرج أخي دائماً مليئاً بالكنوز.

كنت أسمح لنفسي أن أتسلل إليه من وقت لآخر لأسرق قطمة سحرية صغيرة تخطفني إلي مملكة الألوان الجميلة. ومرة بعد مرةبدأ جسدي يعتاد على النبات العجيب، ولكن ذات مرة كانت القطمة إكبر من اللازم وكنت أبلعها على معدة خاوية فكان من الصعب إخفاء الأعراض الجانبية. بعدها مشيت مخبولاً في البيت ولم أدرِ إلى أين أريد. . .ثم رحت أبكي بصوت عالٍ. . بكاء وقيء وبكاء . .ثم بكاء وضحك وبكاء. فقدت السيطرة على نفسي تماماً، بدا كل شيء من حولي بطيئاً وحياً. فهمت أمي ببديهتها أن الحكاية فيها "إنّه" وسألت إخي محمد:

* " إيه الحكاية؟" . لأنها كانت تعرف أنهُ جالب الخيرات، فجاء أخي وحملني إلى السرير وغلى لي شراباً لا أ عرف إسمه يشربه الحَشّاشون لتخفيف الآثار الجانبيه، ثم رش بعض العطر على وجهي لأُفيق من حالة الغثيان ،كنتُ أشعر بالسعادة عندما رأيت أخي يعتني بي لأول مرة في حياته . طلب مني ألّا أخرج من الغرفة حتى أُشفى تماماً لكي لا يعرف أبي بما كان.

أما أمي فكانت مأمونة الجانب، فقد كانت دائماً بئراً لأسرار كل أفراد الأسرة.كانت هذه الرحلة ا لقصيرة داخل سراديب مخي السرية تلهية جميلة وترفيهاً عمّا حدث لي في هذا العام ،ولكنها على المدى البعيد لم تخلق مني إنسانا جديداً ..

***

كنت أنتظر بلوغي الجنسي على أحر من الجمر، لأتأكد إذا ما كنت شاذاً جنسياً أم لا. كادت السنة الثالثة عشر من عمري توشك على الإنصرام ولم أتمكن بعد من ختم حفظ القرآن. إنَّ ما حدث لي في المقابر فقد بعثر حساباتي وأضعف قدرتي على التركيز وتكريس حياتى من أجل حلم أبي . أضف الى ذلك أني إنتقلت إلى المدرسة الثانوية بقرية "**زهران**" التى تبعد عشرة كيلومترات عن قريتنا.

وبُتُّ أعود متأخراً من المدرسة وأستغل الوقت المتبقي في مذاكرة دروسي .

وفي العطلات كنت أ عمل مع أخي فى المعمار لشراء الكتب الخارجية والملابس.

أحسستُ بخيبة أمل أبي، لكنه لم يُفصح لي عنها.

ولم تكن لديَّ أيَّة رغبة أن ألعب دور الطالب المثالي في المدرسة الجديدة، بل إنني كنتُ أفضّل دور الطالب المشاغب الثورجي. وقد حاولت مرة تنظيم عصيان عام فى المدرسة ضد الرسوم الجديدة التي فرضتها إدارة المدرسة لترميم وتزيين الفصول بدون قانون. أخار شفقتي بكاء أحد الطلاب وهو يطلب من المدير إعفاءه من من المبلغ المقرر وأن أسرته فقيرة .

ولكن مدير المدرسة رفض خاشيا طلب كل الطلاب إعفاءهم، وقال إنه سيغلق باب المدرسة في الصباح التالي ويسمح بالدخول فقط لمن يدفع مبلغ عشرين جنيها. وكنت قد أقنعت نصف طلأب فصلي أن يأتوا بدون الرسوم في اليوم التالي. وبالفعل اغلقت البوابات أمامنا، ولم يُسمَح لنا بالدخول، فرحنا نصيح ونردد الهتافات ولكن ذلك لم بغير من الأمر شيئاً. فذهبتُ مع زملائي إلى مركز الشرطة وقلتُ للضابط إننا إذا لم ندخل لفصولنا اليوم فسنبعث برسالة إلى رئيس الجمهورية.

فإنتفض الضابط وقادنا بسيارة الشرطة إلى المدرسة ودخلت أنا كمتفاوض لأتحدث مع مدير المدرسة . قال لي:

* " لماذا تتمرد على الرسوم؟ أنا أعرف أن والدك راجل مرتاح". بالطبع لم يعرف المدير أن أبي قد صار شبه مفلس .. رددتُ عليه:

* "أوو الامر ليس مقدرة مالية أم لا وإنما مسألة مبدأ. ثانيا هذه ليست رسوماً لأن ليس لها أي صفة رسمية. وإما هي تبرعات، والتبرعات تكون طواعية ولا تجبر عليها أحد. وأنا مستعد أن أدفع مبلغ عشرين جنيهاً الآن ولكن بشرط أن تعطيني إيصالاً رسمياً مكتوب عليه أن هذه الرسوم إجبارية "..

دُهش المدير من حُجَجي وسقطت "الرسوم" عن الجميع بفضل العبد لله. فُتِحَت أبواب المدرسة وأصبحَ الطلاب ينظرون اليَّ بعين الإحترام منذ ذلك اليوم ..

أُحيل جدي لأمي إلى المعايش وبنى له ولزوجته بيتاً في إحدى القرى المجاورة لقريتنا . وقد باع جدي شقة القاهرة الكبيرة بثمن باهظ ، وكانت أمي تحلم بأن تستفيد من الثراء الجديد، خاصة وأن الجميع كان قد علم بأن أبى لم يعد يصبح من الأعيان.

ولكن جدي وزّع المال بوازع من زوجته على أبنائها وحرم أمي للمرة الثانية من خيراته.

أصيبت أمي بخيبة أمل شديدة وقطعت علاقتها نهائيا بأبيها ومنعتنا جميعاً من زيارته، رغم أنه كان لايبعد عنّا إلّا بعض الكيلومترات.

وكتبت أمي لأمها خطاباً قاسيا جاء فيه:

* "أنا كان ليّا أب زمان بس مات ودفنته!" أما أنا فقد وجدت تصرف جدي طبيعياً فقد سقطت في يد أمي في الماضي أموال طائلة بعثرتها على ما تحتاج وما لا تحتاج وبعد مقاطعة دامت عامين سمعتُ من أحد زملائي في المدرسة أن جدي مريض جداً ولا يترك الفراش منذ شهور.

قررت كسر المقاطعة والذهاب لزيارته دون علم أمي. ولكن كانت لديَّ مشكلة، فقد إنكمش مصروفي اليومي في السنوات الأخيرة إلى العُشْر ولم يكُن لديَّ ما يكفي للمواصلات. فقررت الذهاب ماشياً.

كان يوماً شديد الحرارة وكنت أستريح من وقت لآخر في "**الحلفا**" و"**الغاب**" النابتين على إحدى القنوات المشتقّة من النيل، دخلت بين الحلفا فوجدت شاباً في العشرين من عمره تقريبا يجلس تحت شجرة كافور ويدخّن سيجارة،فهممتُ بالدهاب فإستوقفني قائلا :

* "مش عايز فلوس؟".

* "لا شكراً " قلت في تردد-

* "خُذ 15 جنيه أهم"، قالها وهمَّ واقفاً ودسَّ النقود فى جيبي.. شيء ما بداخلي جعلني لا أخاف من هذا الصبي

* وعايزني أعمل إيه مقابل الفلوس دي؟" سألته وأنا أحاول اصطناع الثقة بالنفس –

* "تظبَّطني"-

* " نعم؟ " ...

.. "ترزعني يعني" ، قالها وكأنه أمرٌ بديهي"- بدأت الشعور بعدم الإرتياح وحاولت إعادة النقود إليه ولكنه رفض، غصّبني فضولي على البقاء فى هذا المكان وكنتُ أود سماع قصة هذا الشاب فسألته "إنت ليه بتدى الناس فلوس عشان يـ .....؟"-

"عشان أنا مش أبيض وحليوة زيَّك، ومحدّش حيعمل معايا حاجة من غير تمن"-

وبرغم عدم الارتياح الذي أصابني من تلميحاته فقد واصلت سؤاله :

* "أنت مولود كِده؟ "-

* "لأ.. أنا إتشرمت وأنا صغير ومن ساعتها وأنا كده".. قال ببرود..

بدأتُ أتذكّر ما حدث لي في طفولتي. كيف يمكن لرجل أن ،يحب الرجال بعد أن يُنتَهَك منهم ؟

* "طيب هو الموضوع ده مبيوجعكشِ؟"، سألته بحذر"-

* "لأ.. دا موضوع لذيذ جداً.. يمكن ألذ من رزع الحريم كمان –

* "بس ده حرام" .. قلتُ ذلك وأنا لا أدري لماذا أقول ذلك ..

* "طَب وأنا أعمل إيه مهو مِش بإيدي"

"أنا عندي سؤال زغّير:هو كل طفل يحصل له كده يبقى زيّك يعني!؟"سألتُهُ بفضول:

* "والله مش عارف.. أنا أعرف شباب كتير مولودين كده، وشباب تانيين إتشرموا وهما صغيرين فبقوا كده،"وشباب برضه تانيين من غير سبب بقوا كده.. من باب التجربة يعني طيب وهو الواحد إزاي يعرف اذا كان "كده" ولا مش "كده"؟ سألته لأصل إلى حل لهويتي الجنسية؟"

* "هو أنا جاي هنا عشان أدّيك درس خصوصي في شؤون الخَوَلات؟ إنت ناوي ترزعني ولّا لا؟" .. رد وقد نفذ صبره ..

* "انا آسف مش هقدر، أنا لازم أمشي حالاً. جدي عيّان وبيموت ولازم أروح له"

* "كنت أظن أنه سيقوم وينهال عليَّ ضرباً، ولكنهُ رد بعطف "سلامة لجدك".

خلاص روح ما فيش حاجة ..

تركني الصبي أمضي لحالي وصمَّمَ أن أحتفظ بالنقود. لم أرزع أحداً ولم .يزرعني أحد وذهبتُ إلى جدّي يُدفيء جيبي خمسة عشر جنيها. واصلتُ السير دون أصل لإجابة إذا ما كنتُ شاذاً أم لا.

وصلتُ إلى دار جدّي الذي فرح كثيراً لرؤيتي. ظَنَّ جدي في باديء الأمر أن أمي هي التي أرسلتني لتوبيخه أو

تأنيبه، ولكنه سُرَّ عندما علِمَ أنني جئتُ إليهِ بدون عِلمها. كانت المرة الأولى التى أرى فيها جدي منذ سنوات، فبعد ما حدث في طفولتي لم أدخل بيته في القاهرة مرة واحدة، وكانت زياراته لنا في القرية قليلة بسبب مرضه أو مشاغله ثم جاءت القطيعة.

كان يبدو هزيلاً في فراشه وقال لي:

* "خلاص الأجل قَرَّب أنا نفسي أرجَّع كل حاجة زي زمان وأدي أمّك حقَّها. بس خلاص معادش ييجي منه . أنا ظلمت أمك كثير. حرمتها من أمها وهي صغيرة.. وبعدين حرمتها من الورث اللي شرَّعه ربنا "..إنخرط في البكاء وسألني:

* "تفتكِر ربنا هيغفرلي ذنوبي يا شاكر؟

* "يا جدي أنا لسه عمري 13 سنه ومعرفش ربنا بيفكر أزاي! بعدين هو ربنا لو ماكانش يسامح البشر تبقى وظيفته إيه؟ انا لوكنت ربنا كنت سامحتك . تفتكر أنا أرحم منه؟" ..

ظهرت إبتسامة بِشر على وجه جدي فقال:

* " قول لأمك أنا نِفسي أشوفها .. ولو كنت أقدر كنت أروح لها ماشي على رجلي.. بس المرض" ..

عُدتُ إلى قريتنا تُدفيء جيبي الآخر عشرون جنيها أخرى. أخبرتُ أمي بما كان وقلت إنني لم أُقابل في حياتي إنسانا بلا أخطاء.. وذكّرتها أنها هي أيضا قد إنترعت زوج من زوجته وولده ودمرتي حياة إمراة أخرى، فإذا كانت ترجو عفو الله فعليها أن تعفو عن أبيها قبل فوات الأوان..

* " والله وبقيت راجل يا شاكر!"، قالت أمي وقد تأثرت بما قلتُ .. ذهبت أمي لزيارة أبيها عدة مرات، ومات جدي" ..بعد شهور قليلة. كانت أمي بعدها تدين لي بالعرفان لأنني صالحتها بأبيها في الوقت المناسب.

****

بلغت الرابعة عشر. شهدت قريتنا في هذا العام على غير العادة العديد من الأحداث. ذبح منصور إبن عويس والده وهو نائم في الحفل أثناء الظهيرة وفرَّ إلى ليبيا. إغتصب شاب مختل عقليا عمره 25 سنة طفلة عمرها 9 سنوات في أحد الحقول.

إتفقت عائلة الجاني وعائلة المجني عليها ان يلتزم المغتصب بالزواج من فريسته عندما "تصل لسن "الرشد" وحُلَّت المشكلة بحمد الله. وسافر عمي الذي لا يحب الفقراء لإداء فريضة الحج للمرة الحادية عشر، وحطّم بذلك الرقم القياسي الذي كان يحتفظ به الحاج عبد الرحمن المنوفي.

ولكن أهم ما حدث في تلك السنة كان إنّي دخلتُ أخيراً إلى عالم الرجال. جاءت البشرى اللزجة وقطع حلم مبلل فيه نساء حسناوات الشك باليقين. لقد كان هذا الحلم مثل الوحي..

كان إنفجاراً مدوياً منقطع النظير. الله أكبر.. والله زمان يا سلاحي! أمجاد يا عرب أمجاد! إنفجرت شهوني الجنسية وتضاعفت يوماً بعد يوم.. وكانني كنتُ أحتاج للشعور بالرجولة أكثر من أبناء جيلي. فقدتُ السيطرة على هرموناتي تماماً وفقد النهار سيطرته عليَّ.

أصبح كل شيء في حياتي يتمحور حول منتصف جسدي. نما جسمي في هذا العام وحده أكثر من عشرة سنتيمترات.

وكان "أبو العرب" أيضاً قد تمدد وإنتفخ. صارت الأحلام الحلوة لا تكفي وحدها لتفريغ الطاقة الجديدة، وكان لا بد من إستخدام العوامل المساعدة. كنت أدخل المرحاض وأُجرّب كل أساليب "تلميع المسلّة". كنت أشعر أنني على قيد الحياة فقط عندما المس نفسي.. لم يكن قذف السائل العجيب يمثل فقظ لذة بالنسبة لي وإنما كان أمراً وجودياً.

شعرت أنني ولدتُ من جديد، وأنني الآن قادر على مجالسة الرجال ومنافستهم.

كنتُ أذهب في الخفاء الى أعراس القرية لأشاهد الراقصات وكنت أُشاهد الأفلام العربية والأجنبية كي أجمع بعض الخيالات لتساعدني في الحمّام على إنجاز المهمة.

كانت أمى تلاحظ أني أحتكر الحمّام كثيراً فقالت لي بصنعة لطافة، وأظفها فهمت القصة:

* "إرحم نفسك شوية.. الحمام دا مش ليك لوحدك" ..

*****

فهمت تلميحات أمي وصرت لا أحبس نفسي في الحمّام طويلاً. ولكن لم تكن هذه مشكلة بالمرة، فما أكثر الأماكن الخلوية في القرية الى يحج إليها الشباب لفكّوا عن ظهورهم: حقول التين الشوكي والذرة الشامية والموز كانت من أحب الأماكن. كنت أذهب مراراً إلى أحد حقول الموز القريبة من النيل والعب هناك "بضاعتي". وكنت ذات مرّة أجلس تحت شجرة موز لأستريح بعدما أفرغت ثلاث دفعات متالية، وسمعتُ أصوات بعض الشباب يدخلون إلى الحقل فإختبأت وراء الشجرة وكان بصحبة الشباب فتاة كان يقال عنها أن "مشيَها بطّال" ،

وكانت هذه التسمية محاولة فقط لتجنّب قول "عاهرة" فهم بقولون أن قريتنا ليس فيها عاهرات.. فكل الشراميط التي كانت "نحاول ممارسة الرذيلة في القرية كانوا من "البندَر"، ولكن شباب البلد ورجالها حسب إلرواية الرسمية لم يكونوا بحاجة لذلك لأنهم مؤمنون وعفيفون، فعادت الشراميط من حيث جِئنَ.

ويقولون أيضاً أن قريتنا خالية من الحرامية والخَوَلات. فإذا إختفى شيء من القرية كان السارق دائماً دخيلاً مجهولا. أما بعض الرجال الذين يلعبون ببعض، فما هُم إلّا فضوليون جنسيون، وسوف يتوب الله عليهم قريباً.. وكان الشباب الثلاثة الذين جاءوا برفقة "العاهرة" هم أيضاً من روّاد المسجد.

وكانت الصبية العاهرة هي بنت لعاهرة أخرى كا نت خادمة لأحد أعيان ا لقرية فغرر بها، وأصبحت عشيقته السريبة، . ولكنه سرعان ما طردها بعدما ساءت سمعته وبعد رغبة زعيم عائلته في ترشيح نفسه لإنتخابات المجلس الموقَّر، فلم تجد بعد سوء سمعتها

مهنةً تُربى منها أولادها غير إحتراف الدعارة. وكانت بنتها في غاية الجمال ولكن أحداً لم يتقدم لزواجها فالكل يعلم أن العِرق دَسّاس ، جلستُ مختبئاً خلف شجرة الموز لمراقبة المشهد. القت العاهرة الصغيرة بنفسها على ظهرها وكشفت عن ساقيها وفخذيها ثم خلعت لباسها الداخلي بإحتراف، وراح الرجال الثلاثة يتناوبون إدخال أعضائهم الذكرية فيها..

وكان كل منهم إذا إحس برعشة اللذة أخرج قضيبه منها وترك سائلة يفيض على بطنها العارية. تكرر المنظر اكثر من مرة حتى بدأت أشعر بالخوف والإشمئزاز. حاولتُ أن اتجاهل الشبه بين هذا المشهد ومشهد المقابر.

رحتُ أتساءل لماذا يضعني القدر دائماً في مثل هذه المواقف التي تجعلني أرى إزدواجية أخلاق بني بلدي بهذه الصورة؟ هل أرى الفساد دائماً لأنني فاسد ولديَّ جاذبية خاصة للفساد؟ ام أن الفساد في كل مكان لذا فإني أراه أينما أذهب؟

كنتُ أظن أن شعوري بالرجولة سيغسل عني هموم الماضي وعاره ولكن هذه الرجولة جعلت من الصعب عليَّ قبول ما حدث لي في طفولتي وفي المقابر .

فلو كنتُ قد صرتُ شاذاً لكنتُ ربما صرت فخوراً أن أول تجاربي الجنسية كانت في سن الرابعة. أما الآن فأشعر بصراع في داخلي بين الرجل الفتي الذي يريد أن يلعب دور الفارس وبين الطفل الذي يكره الرجال وفتوتهم .

على كل حال فإنني حاولتُ أن أصنع بخيالي أفضل ما يمكن صنعه من مشهد حفل الموز. تخيلت فيما بعد أنني قابلتُ العاهرة صدفة في الحقل فهممت بها ونزعت عنها ثيابها وطرحتها أرضا رغم ممانعتها فاخذتها عنوة وإغتصبتها حتى إستَحْلَت عُنفي وإنخرطَت معي في حريق اللذة المؤلمة ..

رحتُ أضرب العشرات أناء الليل واطراف النهار .. قياماً وجلوساً وفي مرقدي.. في البيت وفي المدرسة وفي الحقل وفي الطريق..

كنتُ أتساءل إذا ما كان كل شباب جيلى لديهم مثل ما لدي من طاقة جنسية. وإذا كان الأمر كذلك فهناك كارثة! والذي زاد الأمور تعقيداً أن مدرس الدين في المدرسة الجديدة قال لنا أن ضرب العشرات يؤدي إلى العقم وسرطان القضيب والايدز. وكأن ذلك لم يكُن رعباً كافياً فقد روى لنا أحاديث النبي:

* " من نكح يده فسيأتي يوم القيامة بيده حبلى" .. وفي حديث آخر:

* " من نكح يده مرتين فكأنما نكح أُمَّه، ومن نكح أمَّه حُرِّمَت عليه الجنة"- "يا نهار أسود!! أمي؟ لأ ..كُلّو إلّا أمي!" قلتُ في نفسي..

ومع أنني كنتُ بالفطرة أرفض أساليب الترهيب البدائية فإن جزء بداخلي كان لا يزال يتفاعل معها ويصدّقها. .

كنتُ كثيراً ما أرى كوابيساً وأراني فيها أمشي بيدي حُبلى أُخفيها خلف ظهري خجلاً.. أو أجري هارباً من أمي ..كنتُ أقف كل يوم في طابور الصباح في المدرسة وقضيبي مُنتصِب مثل " سيخ حديد ليِّنه".

* "تحيا جمهورية مصر العربية!" كان الطلاب يهتفون بينما كنتُ أتساءل:

* "من يُعطيني كيساً من الثلج لأضعه على "بتاعي"؟ .

كان العلم المصري يتموَّج ويتأرجح في السماء وأنا لا أرى إلّا صدوراً ومؤخرات وأفخاذاً. كان ذلك أمراً في غاية الاحراج، فقد كُنّا في مدرسة مُختلطة وكنتُ أخشى أن تراني إحدى الزميلات ..

سمعتُ عن رجل في القرية إسمه "حسب الله" كان غريب الأطوار، يُقال أنهُ يمارس السحر وأنهُ كان يربط العِرسان يوم زفافهم. وبالفعلفقد رأيتُ كثيراً من الشباب يأتون إلى أبي ليلة عرسهم، وهم يبكون ويقولون أن"الموضوع مش ماشي".

وكان أبي يعطي لهم بعض التميمات والتعويذات ويَسألهم أن يلبسوا ملابسهم

بالمقلوب ويُسمّوا بالله ثم يحاولوا من جديد. وكنتُ أتساءل لماذا يُمارس الشيخ "حسب الله" السحر؟ ما سبب كرهه للناس الذي يجعله يفكّر في حرمان الرجال من أول لذة حقيقية في حياتهم؟ وقد فكرتُ في الذهاب إلى "حسب الله" وأن أطلب منه أن يبطل فاعلية "البتاع" على الأقل حتى أنتهي من إمتحانات الثانوية العامة، فقد كان هذا العضو يأخذ كل تركيزي ويُبدِّد كل طاقاتي ..وذهبت إليه دون أن أُفكّر كثيراً وأعطيته مبلغاً من المال وطلبتُ منه أن يربطني..

* "مين يا إبني اللي قال لك إني بعمل كده؟" قالها وهو يُعيد نقودي إليَّ..

* "يا إبني العملية كلها نفسية، الشباب يوم فرحهم بيكونوا واقعين تحت ضغط جامد وعرايسهم صغيّرين وبيبقوا خايفين. علشان كده الأمور بتبقى صعبة والشاب من دول ما بيقدرش يعمل حاجة".

رحتُ أتذكّر المناظر المرعبة لأعراس قريتنا حيث ينتظر العشرات من أهل العروس أمام غرفة نوم العروسين حتى يخرج البطل بدماء براءة عروسه. حتى "راسبوتين" نفسه سيصاب بالارتخاء إذا رأى هذا المنظر.،، فسألت الشيخ "حسب الله" :

* "لماذا يعطي أبي التمائم للشباب "المهزومين" عندما يأتون إليه فقال:

* "انت أبوك راجل ذكي وهو عارف أن الناس في حاجة لشيء ملموس يساعدهم، الكلام لوحده أحيانا مش كفاية!".. فسألت الشيخ إن كان يُضايقه أن يُسميه الناس ساحراً، فقال:

* "إن هذا لايعني لهُ أي شيء. فالناس في قريتنا تشعر بالملل وتخترع القصص من لاشيء لأنه ليس هناك قصص كفاية في البلد .

* "أبويا قاللي مرة: البحث عن الإدراك إدراك والبحث في ذات الله إشراك".. "إنتَ إيه رأيك؟

* "صدق الشيخ عبد المتعال.. بس صِدق أبوك ممكن يكون كذب ليك، عشان الحقيقة مش حِكْر على حد ،كل واحد بيلاقي حقيقته بمعرفته"..

ذكرتني إجابة الشيخ "حسب الله" بكلام المتصوفين أنا بأصلّي كثير وبأدعي لربنا، بس من غير إجابة. ساعات بحس بوجود ربنا وساعات باحس إنه مش موجود"..

كانت هذه هي أول مرة أبوح فيها بشكوكي بهذا الوضوح لأحد ...يا إبني، أنت لسه صغيّر ،لا تيأس من روح الله بهذه السرعة! كد قال أحد شعراء الصوفية:

* طرقت على باب حديقة الله سبعين سنة فلم يفتح لي.. وطرقت ثم طرقت حتى كلّت يَداي، وعندما إستدرتُ لأستريح رأيتُني أقف في وسط الحديقة. كنتُ أطرق سبعين سنة على الباب من الداخل.

ربنا كبير قوي يا إبني ورحمته واسعة" قال الشيخ مُبتسماً ومودِّعاً ..كان حديثى مع الشيخ "حسب الله" مُشَوِّقاً للغاية ولكنني رجعتُ من عندهِ دون أن أجد حلاً لمشكلة "أبو العرب"

أنهار

يحكي " مصطفى لطفي المنفلوطي" أنه وقع ذات مرة في غرام إمراة لم يَرَها أبداً، لأنها كانت تختبيء دائماً خلف خِمارها. وكان يمر بدارها يوم بعد يوم ويُراقبها وهي تجلس في نافذتها ولكنها حتى في منزلها لم تكن تُزيح خمارها عنها . وراح المنفلوطي يرسم لها صوراً مختلفة في مخيلته. راح يتصوَّر جمال عينيها وحسن إبتسامتها. و

كان يجلس تحت نافذتها ذات مرة ويراقبها لفترة طويلة وهو يتمنى أن تحن عليه بنظرة أو حتى تلاحظ وجوده ، وفجاة جاءت إلى النافذة إمرأة غير محتجبة وغير جميلة بالمرة ونزعت الخمار عن حبيبته فكانت ... المفاجئة:

* لم تكن معبودته إمراة، بل إيضاً لم تكن حتى كائناً حياً، إنما كانت "**قُلّة**" أو "**زَلَعَة**" كبيرة للمياه وكانت تسود في قريتنا أجواء مشابهة. فلم تكن هناك أية فرصة للغرام. فكان الكلام مع الحريم في الشارع ممنوعاً، وكان الناس إذا قالوا كلمة "شرف" كانوا في غالب الأحيان بعنون " عفة البنات".

ولكن الإحتجاب يحمل في طياته أيضاً نوعاً من الإثارة والفضول، فعندما بلغتُ كان يثيرُني كل ما أراه من جسد المراة، لأنني لم أكُن أرى الكثير. ولكننا أبناء الصحراء قد حَبَتْنا الطبيعة بخيال واسع يجعل من "الفِسيخ" شرباتاً ومن "صبيحة بنت عبده المحروق" "صوفيا لورين"! فعندما كنت أرى أي إمرأة في الشارع كنت أعود إلى المنزل وأنسج من هذا اللقاء السريع أجمل قصة غرام وأَسخَن ليلة عشق عَرَفتْها البشرية.

كانت أصغرهنَّ وأجملهُنَّ، ولم تنج من خيالاتي وأحلامي ،

إمراة واحدة وقعت عليها عيناي إلّا مَن كانت من المحارم أو من فاقت الخمسين وكان من غير المألوف في المدرسة أيضاً أن يتكلّم طالب مع طالبة،

فقد كان الإختلاط في الفصل منذ دخول المدرسة الإعدادية ممنوعاً. وكُنّا نحن معشر الأولاد نواجه مشكلتين:

* أولهما أن البنات تنمو أسرع منا، وفي حالتي كان الأمر أشد تعقيداً، فقد كنت أصغر من أقراني بعامين. والمشكلة الثانية:

* المدرسون الذين كان الواحد منهم ينتظر حتى تقارب إحدى البنات الجميلات سن البلوغ فيتقدم لخطبتها. كانت أي طالبة حسنة المنظر يتم حجزها من مدرسها أو أحد أبناء عمومتها بمجرد أول إنتفاخ في موضع ثدييها حتى ولو لم يكن أكبر من مكان قرصة البعوضة. بعدها كانت البنت تختفي من المدرسة بصورة نهائية، وكنّا نراها بعد أعوام للمرة الأولى تحمل طفلا على ذراعها في أحد الشوارع..

وكان ذلك ما حدث بالفعل لأختاي فقد تزوجت كل منهما بأحد المدرسين وهي في عمر السادسة عشر. وقد أصبحت أختي الكبرى "صباح" جدة وهي في الثامنة والثلاثين..

لا أستطيع أن أنسى تلك ا لجمعة بالذات. إذ رأيت آلاف من ا لبشر يومها يخرّون سُجَّدا أمام أبي في المسجد وهو واقف بكبرياء فوق فكان قد قرأ أثناء الخطبة إحدى آيات السجود، وأمر المصلين ان يسجدوا لله فسجدوا جمبعاً وظل هو واقفاً حيث كان. لقد كان مشهداً إسطورياً فرعونياً ..

بالنسبة لي. شعرتُ بجبروت أبي إلى أقصى الحدود وشعرتُ بالخوف الشديد. كان أبي مشهوراً بخطبه الرنّانة التي تمس الوجدان وتُسيل دموع المؤمنين. لم يكُن في القرية كلها رجل يعرف عن الناس ما كان يعرف..

كان يعرف أفكار الناس وأسرارهم..أاحلامهم ومخاوفهم. لم يكن فقط إمام المسجد وإنما قاضياً يُفتي بين المتنازعين وطبيباً يصف الدواء ويعطي التعويذات، كما كان

مفسّراً للأحلام.كان كل شيء: الغضوب الحنون.. الجاد الساخر.. الظالم المنصف الضارب لزوجته وولده والرفيق بالحيوان.

كان الناس يحترمونه رغم . تناقضاته.. مثلي تماماً. فقد كان دائما مَثَلى الأعلى.. لم أرَ في حياتي كلها رجل أثار إنبهاري مثله ..

سافرت أمي ذات مرة إلى القاهرة لزيارة أخواتها هناك، وكانت علاقتها بهن قد تحسنت كثيراً بعد وفاة جدي. وقد جاء في نفس اليوم أحد مُقرئي القرآن من القرية المجاورة لزيارة أبي.

وجلس الإثنان في غرفة الضيوف وراحا يُدخنان المعسّل ويُشاهدان التلفزيون. كانت هذه هي أول مرة أرى أبي يُشاهد فيها التلفزيون، فقد سمعته مرة يُسميه "المفسديون" من فوق المنبر.

كما كنت أتضجّر كثيراً عندما كنت أراهُ يُدخّن "المعسّل" من الجوزة فهذه خصلة الرعاع والبلطجية ولا تُليق بإمام المسجد. سمعتهما يَضحكان بصوتٍ عالٍ فساقني فضولي وتسللتُ أنصِتُ من بعيد لحدثهما دون أن براني أحد. كانا يُشاهدان برنامج "الموسيقى العربية".. أَيَستمع أبي لمزمار الشيطان؟ أيشتري لهو الحديث ليضَل عن سبيل الله؟ !!

* "الحِتّه دي جاية ليك أنت مخصوص يا مولانا. الصنف ده ماعدش منّو في السوق خلاص" قال الضيف وهو" يُسلّم أبي شيئاً ملفوفاً في ورقة "سوليفان ..

* "وبكام دي إن شاء الله؟" سأل أبي..

* "بس دوق إنت الأول.. واللي تجيبه أنا تحت أمرك!" قال الضيف في تواضع..

بدأت الشكوك تعبث في صدري. وبعد قليل كانت رائحة الدخان الأزرق الكثيف الخارج من غرفة الضيوف تقطع الشك باليقين. فقد كانت رائحة معسّل "مغمَّس"..

حشيش ياشيخ الجامع !!؟ هل تتعاطى المخدرات يا أبي؟.. قلتُ لنفسي وقلبي تملأهُ الحسرة.

* "شوف يا مولانا النسوان بتوع الموسيقى العربية دول الوحدة فيهم أحلى من إختها، وإلّاشايف طقم الرقابي بتوعهم ده" .. قال الضيف فراح أبي يضحك ضحكاً ماجناً لا يصدر إلّا عن "عرزجي" محترف ..

وهنا بدأت آخر شكوكى،كان أبي مسطول، وهكذا عثرت على الإجابة الأخيرة لسر إفلاسه

وقفت خارج غرفة الضيوف أتصبب عرقاً يملأني الخزي والألم.. سقط صنم أبي أمام عيني وكأنهُ هرم الجيزة الأعظم بنهار أمام عنون مَن بنوه بأيديهم. أبي.. قدوتي ومَثَلي الأعلى.. حافِظ كتاب لله في صدره..الواعِظ.. والحاكِم والناهي بأمر الله ليس إلّا نفساً ضعيفة مشوَّهة مليئة بالآثام!!،

مَن كَسَرك أو جَرحَك يا أبي لتكون هكذا ؟ لماذا تَشعُر بالوحدة ؟ لما ذا تَهرُب إلى دنيا الدخان الازرق؟ وأين إلاهَك الذى كرَّست حياتك لحفظ كتابه وتعاليمه؟..

هربتُ إلى غرفتي لأنني لا أُريد أن يرى أني أراه في هذا الموقف المهين .

وفي يوم الجمعة التالية ذهبت معه كالمعتاد للصلاة، أحسستُ أن كل خطوة تُقَرِّبُني الى المسجد كانت في الوقت نفسه تُبعدني عن الله. جلستُ بين صفوف المصلين في إضطراب. صعد أبى بلباسه الأنيق وعمامته الأزهرية وخطواته ا لواثقة ا لمعهودة فوق المنبر فبدأتُ أشعر بالغثيا ن. فلما بدأ بحمد الله وا لثناء على رسوله أحسستُ بشيء بداخلي يدفعني خارج المسجد، فاخذت حذائي وخرجتُ هارباً.

رحتُ أسير في الشارع الخالي من الناس تماماً وصوت أبي لا يزال يُطاردني من خلال مكبرات الصوت.

وقبل أن أصل إلى البيت إستوقفني مشهد رأيته كثيراً فى القربة ولكنه لم يجذب إنتباهي إلّا هذه المرّة: رأيت مجموعة من الأطفال تضرب بعنف كلبين إلتصقا ببعضهما أثاء عملية المعاشرة الجنسية . راح بعض الأطفال يضرب الكلبين بالعصا والبعض يرميهم بالحجارة.. نبح الكلبان بإستغاثة..

واصل الأطفال رجمهم وضربهم.

غريبٌ شأن هذه الكلاب، فهي تُمارس غريزتها في أي مكان وفي أي وقت كلما تمكَّنَت منها الرغبة. وهم يعلمون أنهم فى كل مرة سيلتصقون وربما سيُضرَبون، ولكنهم لا يعبأون بشيء ولا يُبالون بشي!!..هل ذهب الحياء منهم فيمارسوا لذتهم في وسط الشارع ؟ وفى يومالجمعة ! ؟ ألا يسمعون ما يصيح به أبي في المسجد لتوه ؟: يوم نقول جهنم هل إمتلاتِ وتقول هل مِن مزيد؟

وعجيب أمر هؤلاء الاطفال أيضاً. ايضربون الكلاب رغبةً في تخليصهم من إلتصاقهم؟ أم انهم يحسدونهم على حريتهم؟ أم أنها فقط حلقة العنف الأبدية التي وصلت للاطفال من آبائهم ويجب ان يوصلوها لمن هم دونهم؟ واصلتُ طريقي نحو المنزل ففوجئَتْ أمي بوصولي مبكّراً للمنزل..

* "إيه.. هيَ الصلا خلصت؟"سالتني أمي وهي مشغولة بالطبيخ .

* "أنا صلاتي خلصت!" أجبتها بإختصار وصعدت فوق السطح. وكنت على بقين أن أمي لن "تبوح بذلك لابي، فقد أصبحَت تفهم نظام قريتنا وتَعلم أن أفضل الطرق للعيش هناك هي مبدأ "ولا مِن شاف ولا مِن دِري" أو مبدأ إخفاء قاذورات المنزل تحت السجادة .

كان يوماً بلا ريح، لم تتحرك ورقة فوق غصنها. رحتُ أجوب بعيوني الحقول المحيطة بالمنزل وأُراقب الرجل العجوز المتحجر. ثم جال بى النظر بين البيوت الصفيرة المجاورة. وفجاة رأيت منظراً ظننته في باديء الأمر من وحي خيالي أو من تأثير حرارة الشمس.

ولقد هالني ما رأيت.. كان هذا المنظر هو آخر ما كنت أتوقعه في مثل يوم كهذا وفي مثل وقت كهذا: إمراة عارية تماما!! كانت تجلس للإستحمام في طشت الومنيوم في دهليز بيتها المكشوف وهي تُدير ظهرها لي.

فركتُ عيني مِراراً لأتأكد أنه لم يكُن حُلماً. أمعنتُ النظر جيداً لتحديد موقع بيتها بالضبط لمعرفة أي جيراننا كانت. لابد إنها "**أنهار**" زوجة "حسن ابو عجمي"، وهي ليست من قريتنا أصلا. أتذكّرها جيداً فهيَ مثلي صليبية الهوية، عيناها خضراوتان جميلتان وفمها مرسوم كالعقود. ..

وبالطبع كانت قد وقفت مِراراً كـ "موديل" لخيالاتي أثناء ضرب العشرات قبل أن أسمع ما قاله مدرّس الدين وكان زوجها رجلا محترماً جداً. وكان قد كافح كثيراً من أجل الزواج منها، فقد كانت مخطوبة لرجل آخر من القاهرة. وعند ما قبل أهلها تزويجها لـ " **حسن**" صار أسعد مخلوق في الوجود وراح يسير في شوارع القرية وهو يُغني لأنهار، حتى ظن النالس أن جمال زوجته قد سلب عقله. ولكنه ما أن تزوج بها حتى تركها ورحل إلى السعودية بعقد عمل أشبه بصكوك بيع العبيد

كان كل الرجال في المسجد وكل النساء مشغولات بطهي الغداء، فكانت "**أنهار**" تشعر بالأمان وهي عارية في دهليزها.

لم تكُن أبداً تتخيَّل أنها في هذه اللحظة كانت تحت المراقبة من رجل إنتفخ قضيبه هيجانا ولذّة. كان جسدها جميلاً جداً وكان ذلك نادراً بين النساء المتزوجات. فقد كانت معظم النساء يُصَبْنَ بالسُمنة والترهُّل بعد الزواج، وكان عقد الزواج يعطي لهن تصريحاً بالإنفجار ..

جلستُ على كرسي أعدَّهُ أخي الأكبر تحت مظلة فوق السطح ورحتُ أُراقب جميلة جميلات القرية وهي تغسل جسدها الجميل. تسلَّلَت يدي بعفوية إلى "بعضلة الحب"

المنتصبة فى سروالي وراحت تعبث بها. شعرت باللذة المحبوسة في قضيبي منذ شهور. معذرة يا أم !! الأمر لي بيدي ..يدٌ حبلى!؟.. "أنهار" تستحق هذه المخاطرة .. لقد كان أمراً هزليا إسطورياً ان أحسن بقضيب منتصب أُراقب إمراة عارية وفي ذات الوقت أسمع صوت أبي يخطب الجمعة.

فسقٌ وقرآن.. وعظٌ وهَيَجان في آنٍ واحد..

* "إن للمُتَّقين مفازاً ، حدائق وأعنابا".. بعدما فرغ أبى من حديث الجحيم بدأ في سرد محاسن الجنة ونعيمها." فالناس في بلادنا يحبون التوازن بين الترهيب والترغيب، وأبي يفهم طبائع البشر جيداً. والقرآن حريص على هذا التوازن فقد وردت كلمة "جنة" نفس عدد كلمة "نار" في كتاب الله..

كنتُ أريد أن أسد أُذنايَ حتى لا أسمع وعظ أبي، ولكن يداي كانتا منشغلتان بما هو أهم. دعني وشأني يا "أبي".. إحكِ للجائعين عن ثمار الجنّة وللمحرومين عن حورياتها، ودعني هنا استمتع بجنة من تحتها "**أنهار**" أي خطيئة أرتكب؟ وأي رجل سيتخلّى طائعاً عن مراقبة مثل هذه المرأة وهي عارية؟ إن كل البشر متلصصون ينتطرون فقط فرصة كهذه .

سمعتُ أبي وهو يختتم خطبته الطويلة فنزلت من فوق السطح على مضض وا نهيت في الحمّام ما لم أستطع إنهاءه فوق السطح.. لقد كان إنفجاراً منوياً مدوياً. ثم أعدت الكرّة مرتين حتى الإرهاق التام، ثم اغتسلت من الجنابة وذهبت لتادية صلاة الظهر قضاة وفي يوم الجمعة التالية تسللت من المسجد من جدبد عند بداية الخطبة وذهبت للمنزل وأردت الصعود الى سطحه فإستوقفتني أمي :

* "إنت إيه حكايتك بالظبط؟ انت ما بتصليش في الجامع ليه؟ إيه اللي جرالك يا وَلَه؟ وفارق لي شعرك م"الجنب" زي عبد الحليم حافظ ليه كده؟

سيبيني في حالي الله يرضى عليكى يامّه وروحي كملي طبيخ!" قلت لها على غير صبر وانا أُسرع الخطى للسلَّم. كل ما كان يشغل رأسى هو السؤال: هل تستحم "**أنهار**" فى دهليزها اليوم أيضاً؟ صعدتُ إلى السطح ونظرتُ إلى الدهليز.

مَدد يا سيدى موسى المغربي!! كانت ترغي شعرها بالصابون ثم وقفت لتصب الماء على نفسها. كانت أول مرة أرى جسدها العارى كله من الخلف.. تقولش غزال!! شعر إيه وفخاد إيه! ومؤخراتها الجميلة كانت قد تكورت بحَرفَنة.

كان الماء ينساب من فوق شعرها بالصابون على ظهرها وكانت لمساتها لجسدها توحى عن حبها له وشوقها للمس كانت"أنهار" تنتمي إلى ذلك النوع من النساء الذي يعشقه الشعراء: ساذجة،طبيعية، تُحلّيها إبتسامة طفولية أبدية، بدائية.. نائية، داعية نافرة.. بسيطة وخطيرة.

كنتُ أتمنّى أن أقترب منها قدر المستطاع.. أن أشم جسدها وأسبح عاريا معها فى النيل.ثم نجرى عاريين معاً في الحقول.. .ثم أُقبّلُها وأُلقي بنفسس فس جحيمها.

أدخلتُ يدى في فتحة الجلبا ب اليسرى وبدأتُ في العبث بالثعبان الأقرع الغاضب في سروالي ، في حين وقف "موديل" حي من لحم ودم أمامي..

كان صوت أبي لا يزال يدوّي في السماء ولكنني لم أكُن أسمع إلّا بلبطة"انهار" في طشتها واتخيلها تتنهد لذة وأنا أغوص بداخلها وفجاة وبدون سابق إنذار إستدارت "انهار" ونظرت إليَّ مباشرةً وكأنها أحست بفطرتها بما كان يدور بداخلي.

لم أجد وقتاً لمراقبة ثديها فقد قفزتُ كحمار وحشي فرَّ من الأسد ونزلتُ درجات السلم فى أربع قفزات،واختبأتُ فى حجرتي

با ويلي! لابد أنها قد رأت وفهمت ما كنت أفعل! إنها تعرف أمي جيداً ولابد انها ستأتي لتشتكي لها. هذا جزاء من يهرب من صلاة الجمعة لمراقبة الحريم! تذكرت أغنية يحبها الناس في القرية تقول:

* "ياللي بتمشى ورا النسوان دي الآخرة هتبقى طين"

* "يا أرحم الراحمين إرحمنا يارب، يا إلهى لو أنقذتني من هذا المأزق فلن أترك فرضاً ما حييت ولن أكرر ما فعلت أبدا" رحتُ أتوسّل إلى الله ..مر يومان دون أن يفتح أحد معى الموضوع فظننت أن المسألة مرت بدون عواقب. وفي يوم الأحد بعد صلاة العشاء إصطفت بض النساء أمام بيتنا لإستشارة أبي في أمور فقهية، وكان اليوم المخصص للحريم.

وقد كان سكان القرية يعتادون زيارة أبي كل يوم لسؤاله عن رأي الدين فى الزرع والحرث وكيفية دخول المرحاض ومسائل المهارة وكيفية معاشرة أزواجهم ومسائل الميراث ورد يمين الطلاق أو أخد تعويذات لفك السحر. وكنتُ دائماً أجلس إلى جواره لأتعلّم أصول الإفتاء. وفجأة دخلت "**أنهار**" الغرفة وقبَّلَت يد أبي ثم جلسَت على الأرض..خبر أسود ومنيّل!.

يا أرض انشقّي وإبلعيني!" تبلل جبيني عرقاً وبدأ قلبي في الخفقان الشديد مثل ماتور ماكينة المياه.

جلسَت "أنهار" في هدوء وتجنبَت النظر إليَّ وبدأت في سرد قصتها:"يا مولانا انا شفت حلم غريب امبارح ونفسي تفسرهولي:

* "حِلِمت إني بَعوم في بحر كبير مالوش أخر، وبعدين سمكة كبيرة جت وعضتني وأنا بعوم" قالت بصوت منخفض .

* "ولما السمكة عضّتك. نزل منك دم؟ شفتي دمك بعنيكي يعني؟" سأل أبى بإحتراف وهويَتكيء؟ على أربكته..

* "لأ.. بس لما طلعت من المايه كانت بطني مفتوحة وكنت شايفة مصاريني" ردت أنهار ..

* "بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله. السمكة في الحلم معناها رزق ربنا هيبعتهولك: إما طفل جايلك في الطريق إن شاء الله أو جوزك ربنا حيكرمه في السعودية. العوم في بحر في الحلم معناه تخبّط في الحياة ورغبة في المعصية.
البطن المفتوحة معناها في الغالب مولد طفل. بس المصارين اللي طالعة برة البطن معناها خيانة سر. ما تأمنيش كل من هب ودب على سرك يا بنتي.. والله أعلم!"
جاءت إجابة أبي بإختصار وتَمَكُّن..

لم أَكُن أدري إذا ما كان أبي عالماً بشؤون الأحلام أم لا، ولكنني كنتُ أعلم أنه عالم نفسي وخبير إجتماعي على أعلى المستويات. كان يفهم نقاط ضعف الناس وكان يعلم ما يريدون سماعه وكيف يصل لقلوبهم.
كانت لديه موهبة عجيبة أن يقول ما يُريد في إيجاز مفيد.. لم يكن أحد يعلم أن هذا الرجل الذي يأتمنه الناس على أسرارهم وحياتهم لم يكن يقوى على حمل ثقل حياته بنفسه ويهرب من أعباء روحه إلى دنيا المخدرات. ولكن أبي كان بفضّل دائماً بين عمله ولديه"الشعل شغل"و"لحشيش حشيش"٠. وساعة لربك وساعة لقلبك ..
* "أنا عندى كمان سؤال يا مولانا " أرادت "أنهار" أن تستكمل إستشارة أبي..
* "لا يا بينتي كده كفاية النهارده. فيه ناس كتير مستنية برّة" رد أبي بإحتراف...
قَبَّلَت "أنهار" يد أبي وإنصرفت، وأنا أتعجَّب لِما قالت. هل رأت حلماً بالفعل أم أن هذه كانت فقط مجرد لعبة؟ .
يبدو أنها لم تكن على هذه الدرجة من السذاجة مثلما كنت أظن وسرعان ما نسيت وعدي لله وخرجت من المسجد في الجمعة التالية بعدما بدأ أبي يخطب بالإفتتاحية المعتادة "الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين إصطفى" وفي طريقي للمنزل وقفت أمام بيت أنهار. لابد أنها تجلس الآن عارية وتدعك جسدها الجميل. أنا كمان عايز أدعك!! فكرتُ أن أطرق بابها.. .ثُم قلتُ لنفسي:

* "لماذا الطرق؟ لماذا لا أفتح الباب بعنف وأفاجئها في طشتها فأفتحها هي أيضاً بعنف؟ لماذا لا أدخل وأُعوِّضُها عن الحرمان الذي خَلَّفهُ غياب زوجها وأُعوِّض نفسي عن حرمان عمري كله؟ وقفت متحجراً أمام بابها فداعبت اللذة شجاعتي وتداعب الأفكار منطقي، وفي النهاية أدى خوفي من العواقب أن أواصل السير للبيت وأصعد فوق السطح وكانت "انهار" تجلس كعادتها في الطشت ولكنها كانت هذه المرة تجلس في مواجهة منزلنا وكأنها كانت تنتظرني،

*.. "!وماله با عسل.. خلى اللعب يبقى عالمكشوف"

أخرجت .ثعباني من جرابه وبدأت في دعكه أمام عينيها. كانت تنظر إليَّ على إستحياء وهي تحك ثديها بليفة ببطء شديد.

نسيت صوت أبي ونسيت الأرانب في الحظيرة خلفي ورحت أحك عصاتي السحرية حتى إنفجر سائل الحياة معيوراح يسيل على الأرض حتى ظننت أنه لن يتوقف.

وكانت "أنهار" تنظر إليَّ مِن حين لآخر بنظرة منتصر.

أخفيت آثار قطرات لذَّتي من على الأرض ومن على جلبابي، والقَيتُ بقُبلة هوائية إلى انهار التي ردت بما بشبه القُبلة ثم عضَّت شفاهها الحمراء وإستدارت قليلا من فرط خجلها. قمت بأداء الغسل بعد نزولي وغيّرت ملابسي وصليت الظهر في غرفتي وحدي.. أصبحت الصلاة شيئاً لا أستطيع التخلص منه حتى لو كانت تصرفاتي ومعتقداتي تُخالف ذلك ..

إستمر الأمر كدلك لعدة أسابيع .. كان يوم الجمعة هو اليوم الذي أعيش من أجله، وكانت إنهار دائما هناك حسب الموعد .. كانت دائماً جميلة وكان مدفعي دائماً جاهزاً لإطلاق قذائفه وكنتُ في طريق عودتي من المدرسة ذات يوم فرأيتُها تجلس على عتبة دارها فالقيتُ عليها السلام بإبتسامة خبيثة، فردَّت بإبتسامة أشد خُبثاً منها :

* "يسلّمك".،

وعندما واصلتُ المسير إستوقفتني

* "يا أستاذ شاكر"" ممكن يا خويا لو سمحت تكتب لي جواب لجوزي؟"...

كانت أنهار هي أول مخلوق يطلق عليَّ لقب "أستاذ"

* "دلوقتي؟" سألتها متعجباً ..

* " أيوه يا خويا لو سمحت"..

إنتهزتُ فرصة أن أحداً لم يكُن في الشارع ودخلت إلى بيتها

* "أعمل لكشاي؟" .. سألت بدلال

* "لا"" شكرا" أجبتُ بإختصار"..

* " يبقى هاعمل لك لاموناته" قالتها وذهبت للمطبخ قبل أن تسمع إجابتي..

حتى من تحت ملابسها بدت مؤخرتها جميلة ، وعادت بعد فترة بكوب به عصير ليمون طازج وضعته على منضدة صغيرة أمامي وجلست بجواري على كنبة غير مريحة ..شعرتُ بإضطراب شديد وبدأت رعشة غريبة تدب في جسدي .. إنتفضتُ واقفاً وأخبرتها بأني ذاهب للبيت لأجلب ورق أبيض للجوابات، فأمسكت بيدي وقالت :

* "أنا إشتريت ورق وقلم" و أخرجَت بيدها الأخرى ورق مسطّر وقلم فرنساوي من تحت مرتبة الكنبة وكأنها كانت تخطط لكل شيء بدقّة .حتى بعدما جلست من جديد كانت لا تزال تمسك بيدي .. دافئة .. طريّه .، زاد إضطرابي وهَيَجاني فحاولت تغيير الموضوع :

* "هُوا أنتي مبتعرفيش تقري وتكتبي؟ "

* " بعرف على قدّي، بس مش زيّك يعني"- : تركت يدى أخيراً فرحتُ أكتب لها ما تُملي عليَّ:

* "زوجي الحبيب، بعد تحية الإسلام أسأل عن صحّتك وأخبارك وأرجو ان تكون أنت وكل من معاك فى الغربة" بصحة وأحسن حال.. أنا كويسة والحمد لله ولا ينقصني سوى رؤياك الغالية التي هي غاية المراد من رب العباد"" إسمع يا حسن ما تزعلشي مني يا خويا. أنت قلت أنك هتيجي قبل رمضان وما جيتش. قلت هتحصل العيد وبرضه ما جيتش وأهو العيد الأولاني فات والعيد التاني قرّب (....) 15 شهر يا حسن؟ انا بصراحة تعبت، تعبت قوي" شوف لك صِرفة يا خويا.. أنا بقيت أخاف أنام لوحدي في السرير دا ..

كنت أكتب ما تقوله وأنا اشعر بالرسائل الخفية بين سطور رسالتها ومن خلال صوتها المغري، لم يخف عليها ان قضيبى قد تمدد في بنطلوني فقالت لي بابتسامة خبيثة وهي تنظر الى إنتفاخة هيجاني.

* "إشرب! اللمون بيهدّي الأعصاب " قالتها وعضَّت على شفاهها الجميلة" نظرتُ إلى عينيها الخضراوتين وأطلتُ النظر ، لم يكُن جسدي ولا عقلي قادرين على تحمّل كل هذا القدر من الإثارة.. بدأتُ أشعر بالدوران، وإختلط الواقع بالخيال في رأسي"" أمسكتُ بها من خلف عنقها وجذبتها إليَّ بقوّة. ثم قبَّلتُها وعَضَضْتُ شفاهها، ومزّقت جيب صدرها ورحت أعصر ثدييها بيديَّ وأُقبلهما وأمصهما، ثم دفعتها إلى غرفة نومها ونزعت ما تبقّى من ثيابها وألقيتُ بها فوق بطنها على السرير وإرتميتُ عليها ورحتُ أُقبِّل ظهرها وأعض مؤخرتها، ثم أدخلت خرطوم لذتي في دار ولادتها الساخنة وصرت أرتج فوقها وهي تصرخُ ألماً وصرتُ أرتج فوقها وهي تصرخ لذّة ..كل ذلك حدث فقط في خيالات رأسي.. كل ذلك نبع فقط من أفكار حرماني. أفقتُ من خيالاتي وسلَّمت أنهار

الخطاب الذي كتبت ، وخرجت هارباً من بيتها بدون وداع..

* "جبان"" غبي!" كنت أقول لنفسي وأنا أسير في الشارع مُدرِكا أن فرصة كهذه لن تتكرر مرة أخرى ..

وكنتُ من فرط شعوري بالخجل لم أصعد إلى سطح البيت يوم الجمعة التي تلت الواقعة ثم تغيَّبَت هي بعد إسبوعين، وقد صادفتها مرة بعد عدة أسابيع وهي عارية يوم الجمعة، ولكن لعبة التلصص قد غاب عنها سحرها المألوف. فقد عجزتُ عن فرقعة البالون في الوقت المناسب عندما كان مليئاً بالهواء وقد تسرب الهواء تدريجيا الآن فلا جدوى ولا صوت للفرقعة وبعد شهور عاد "حسن أبو عجمي" زوج أنهار من السعودية وبنى الدور الثاني لبيته وغطّى بذلك الفناء الذي كنت أُراقب فيه زوجته، أول فناء داعب رجولتي.. آخر أبواب الرحمة، نافذتي الوحيدة الى الجنة ..لعن الله "حسن أبو عجمي" آمين ..

وداعاً أيها الأب

بلغتُ السادسة عشرة . كانت إمتحانات الثانوية العامة على الأبواب. لم أتم حفظ القرآن بعد، بل قد نسيت بعض الأجزاء التي حفظتها منه. ولكني حفظت سورتَي البقرة وآل عمران من باب حُسن النية "تجاه أبي"أصبح أبي مُدركاً أنني لن أقدر على حمل هذه المسؤولية الكبيرة ولكنه أثنى عليَّ بعدما تلوتُ عليهِ أطول سور القرآن قائلاً: * " يحفظ البقرة وآل عمران منافق!" ولم يكن أبي يعلم أنني قد صرتُ من أشد أهل القرية نفاقاً..

فكنت لا أزال أخبي عليه نواياي بدراسة اللغات الأجنبية بدلاً من أصول الدين.

لم يكن يعلم أنني لستُ ذ لك الشاب الوديع ذا الحياء الذي كان يظنني. لم يكُن.يعلم أنني قد ودّعت القرية من داخلي الى الأبد. ولكن كانت توإجهني مشكلة أخرى: فقد كان عليَّ أن أجتاز نتيجه 85% في إمتحانات الثانوية كي أتمكن من دخول كلية الألسُن في القاهرة.

وكنت قد أهملت الدراسة في النصف الأول من العام الدراسي وكان عليَّ بذل مجهود رهيب لتعويض ما فات ولكن حفظ القران خلال كل هذه السنوات الماضية قد زاد ذهني نشاطاً وذاكرتي قوة، مما جعل قدرتي على تعلم اللغة العربية واللغتين الإنجليزية والفرنسية مهمة سهلة. فقد كنتُ أحفظ القاموس بالصفحات وكنتُ أذهب إلى مكتبة المدرسة المتواضعة وأبحث عن أية كتب باللغات الأجنبية وأقرأها مهما كانت تفاهتها، وذات مره عثرتُ على كتاب غيَّر مسار فكري تماماً. كان كتاب "الدكتور فاوستوس" وهو رواية مسرحيه لـ "كريستوفر مارلو" الذي عاش في زمن "شكسبير". كانت الرواية تدور حول عالِم لاهوتي رفض حدوده البشرية وأراد أن يطير خلفها

فباع روحه للشيطان في مقابل 24 سنة بلا قيود.
بهرتني فكرة التمرد على القيود البشرية، كما بهرني كل ما قرأت من كُتّاب الغرب.
رحتُ أقرأ ترجمات لـ "سكسبير" و"كيتس " و"فيكتور هوجو" و"تشارلز ديكنز".
إطلعتُ في شهور معدودة على لمحة من إلفكر الأوروبى الذي يتمرد على كل سلطة مهما كانت قدسيتها ويضع الإنسان وفرديته مركزاً للكون.
لاحظتُ شيئبهاً كبيراً بين ما كنت أفكر فيه بالفطرة وما كان يكتب هؤلاء. هل من الممكن بالفعل أنني من أصل صليبي، ولهذا أميل إلى هذه الفردية وهذا التمرد؟ وهل العملية مرتبطة فقط بالجينات الوراثية؟: اليهود أذكياء وخُبثاء بالفطره، والعرب "فلاتية" ومتناحرون ولا يتَّفقون بالوراثة؟ اليابانيون نشيطون ومأدّبون.. الأفارقة كُسالى وسَلبيون والأوروبيون يفكرون ويُحللون وبستغلّون؟!
ما هو ولي الشيء الذي يربطني بهؤلاء الأوروبيين الذين لا يعرفونني ولا أعرفهم؟ أهوَ إحترام الإنسان والفكر البشَري؟ أم رفض أي سلطة مغرورة؟ أم عدم إكتراثهم بمن هو دونهم؟ كنتُ أريد أن أتعلّم لغاتهم.. كل لغة جديدة نافدة جديدة على العالم..
كل لغة محطة هروب.. لم أكُن أدري كيف سأواجه أبي بقراري.. لقد كنتُ الإستثمار الأكبر في حياته. لقد فقد كل شيء وصرت أنا آخر أمل لهُ..
ماذا ساقول له؟ : سامحني يا أبي.. فأنا لا استطيع أن أكون مجرّد إعتذار لحياتك؟
لا أستطيع أن أكون مجرّد تعويض عمّا لا تستطيع أنت تحقيقه، فعالمك غير عالمي.. وحياتي غير حياتك .
لا أستطيع أن أسكن بيت الأمس بعد ذلك، فقد صار مليئاً بالفئران. معذرةً يا أبى فإنا لا أستطيع أن أُضحّي بحياتي من أجل "نظامك" الذي رحت "تدافع عنه حتى بعد أن كسرك. كنت أتمنّى أن أكون قادراً على مخادعة نفسي مثلما خادعتُكَ كل

هذه السنوات. ولكنني لا أستطيع أن أتحمّل هذا الكذب والنفاق بعد اليوم .لا أريد أن يُكرر الغدر نفسه مرة أخرى: إمام آخر عذِب كلامَهُ فارغة أحلامه..
قوي أمام الناس مكسور في داخلو. لقد صرت أنت عجوزاً وضعيفاً فلا تقدر على نغيير شيء..
ومازلتُ أنا صغيراً ومكدوراً فلا أستطيع التجاهل والاصطناع وكأن شيئاً لم يكُن. لقد ظلمني "نظامك" الذي تحميه وغَرَس المرارة في حلقي فلن أستطيع حمايته ..لا ..لا أستطيع أن أكون حلمكَ .. لا أستطيع أن أكون مثلك .. لا أستطيع أن أتحدث للناس عن إله لا يتحدث إليَّ .. لا أستطيع أن أُفسّر للناس أحلامهم وحلمي أنا مخنوق.. لقد قررتُ الهروب من حلملك يا أبي وإنقاذ ما يمكن إنقاذه..
كنت جاهزاً ليوم المواجهة الكبرى مع أبي كانت إمتحانات الثانوية صعبة، ولكنني حصلتُ على 86.5 %. لم أكن أفضل طلاب المدرسة بل حصلتُ على المركز الثاني، ولكنني كنتُ الأفضل في اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية مما أهَّلني لكلية الألسُن. ولكن كان عليَّ أن أخبر أبي بمخططاتي قبل تقديم أوراقي للجامعة، كنتُ أعُد في رأسي عشرات السيناريوهات لمواجهتي معه. كنتُ أُجهّز حُجَجي وأعمل البروفات كيف سأدافع عن قراراتي،وكنتُ أتوقع من أبي أي رد فعل إلّا الذي قال لي:
* "إعمل اللي أنت عايزه دي حياتك وأنت حُر فيها. أنا مش حعيش لك في قمقم" قال أبي في هدوء فظيع.
ماذا دها أبي ؟ إما أن قراري قد أصابه بصدمة كبيرة فلم يجد رداً آخراً، أو أنه قد دخّن لتوه سيجاره مغمّسة،
ولم يرد أن يعكّر دماغه المتكلفة. كنتُ أنتظر شجاراً كبيراً أو محاكمة أترافع فيها وأدافع عن قراري. أصابني رد فعله باليأس وخيبة الأمل. كنت أستعد للمعركه الكبرى

طول السنين المنصرمة ولكنه فر من الميدان في يوم الفصل كالمعتاد. كنتُ أظن أني مشروع حياته الوحيد، فكيف يرد بهدا القدر من اللامبالاة؟

وعلى الرغم من أنني كنتُ أنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر، إلّا أن الوداع من قريتي كان صعباً. وبرغم كل ذكرياتي المؤلمة في هذا المكان فإنني قد إعتدتُ على الحياة هناك..

لم يودعني أحد.. فقط جاء أخى الكبير إبي وقال لي بعطف:

* "ربنا يوفّقك! أنت ربنا رحمك علشان هاتسيب البلد بنت ميتين الكلب دي".

كان أخي فخوراً بنجاحي في المدرسة ويتوقع لي مستقبلاً مُشرقاً في القاهرة. كانت أمي حزينة ليس فقط بسبب فراقي ولكن، لأن أبي فقد كل أملاكه وأصبح غير قادر على تحمّل مصاريف دراستي في القاهرة.

* "ما تحمليش هم يامّا.. أنا هاتصرف.. قلت لأُهَديء أمى على الرغم من أنني لم أكُن أعلم كيف سأتصرّف وأين سأعيش في بلد المقابر والمآذن..

*****

إنتابني شعور غريب بالغربة والخوف منذ أن ظهرت لي أول أبنية القاهرة خلف الشابورة. كانت أول مرّة أدخل فيها القاهرة منذ أن جاء كل طلاب مدرستي ذات مرة بالأمر محملين على سيارة نقل في عز البرد ليهتفوا للرئيس أمام مبنى محافظة الجيزة

* "بالروح بالدم"، ولكن دخولي القاهرة هذه المرّة كان مثقلاً بذكريات الطفولة القاسية والخوف من مستقبل مجهول في مدينة لا تعرف الرحمة.

شعرتُ بأنني منفي مطرود من قريتي الخضراءالصغيرة إلى مدينة الأحجار والعجلات. ركود.. ضوضاء .. إرتباك.. ضباب.. ووقت محكوم عليه بالضياع.. كل ذلك تراكم فوق بعضه عبر السنين وتحجّر وأصبح الحقيقة الوحيدة في هذه المدينة . يُسمّون عاصمة بلادنا "القاهرة" وكنت أُسميها "المقهورة".. ولكنها بالفعل كانت قاهرة، فقد قهرت أبنائها ودفنتهم تحت مقابرها.

كنت أسير في شوارعها لدلآ فتقهرني أضوائها النيون الباردة ويقهرنيالزحام وعادم اللسيارات. كنت أمشي في أول أيّامي في القاهرة فوق كوبري"قصر النبل" وأراقب الأسدين القابعين عند أول الكوبرى وقد غطاهما تراب عمره عشرات السنين ..
رحتُ أتخيّل نفسي أفك الأسدين البائسين من أسرهما وأكسر صمتهما وأنزل بهما إلى النيل الذي لا يبعد عنهما سوى بعض الأمتار فأغسل عنهما غبار القهر وأغسل عن نفسي مرارة السنين...
ولكنني كنت لا أزال اتذكر وعدي لأبي ألّا امسن مياة النيل بجسدي. رحت أجوب شوارع وسط المدينة وكنت على مسافة أمتار معدودة من الشارع الذى كان يقطن فيه جدي، ولكنني لم اقوَ على دخوله رحتُ أُراقب الطالبات في كلية الألسُن ومعظمهن كاسياتٌ عاريات:
* "نيفين" و"شيرين" و"سيمون" وأسماء أخرى سمّوها هُم وآبائهم ما أنزل الله بها من سلطان. كنت أنظر إليهن وأتسائل:
* في شباك أي فُتُن القاهرة سأسقط أولاً؟ كان معظم الطلاب حولي من أثرياء القاهرة وكنت أشعر بالاشمئزاز منهم.
كنتُ أحاول الكلام باللهجة القاهرية ولكن جذوري "الفلّاحي" كانت تطغي على سحنتي ولهجتي، ولكن كان هناك أيضاً بعض الطلاب من الأقاليم وأحياء القاهرة الشعبية. كان أول من صار صديقا لي هو "حسام".. شاب قاهري يلعن حياته ويُخانق ذبّان وشّه، ولكنه في الوقت نفسه كان يتمتع بسخرية جافة كانت تُضحكني.
وكان صديقي الآخر "جميل"متديناً جداً.. كان لا يأكل ولا يبصق إلا بإسم الله ...بدأتُ بالعمل كمساعد "سَبّاك" وكان العمل الوحيد الذي تمكنت من العثور عليه. كانت هذه هي أكثر فترة في حياتي أشمُّ والمس فيها "الخرا" فقد كان معلمي

متخصصاً في إصلاح المجاري المعطّلة،كنت أعيش مؤقتاً في بيت أحد أقاربي في القاهرة، ولكنني سرعان ما تركته خوفاً من نفسي الأمارة بالسوء.

كان بيتاً ضيفاً وكانت الأسرة مكوَّنة من أب وأم وستة أولاد، وكان الجميع بسكنون في شقة بغرفتين، وكنت أنام على سرير بجوار ثلاثة من الأطفال.. وكان أحد هؤلاء الأطفال الذين ينامون بجواري صليبي أبيض البشرة وناعم الملمس. وكان ينام ذات مرّة بجواري وهو مرتمي على بطنه، فنظرتُ إليه بهيجان وراح الشيطان يعبث بصدري. إنتصب"البتاع" وإنطفأت في رأسي كل أنوار المنطق.

لم أنصت لشيء إلّا لصوت شهوتي التي كانت أقوى من الدين والعرف والإنسانية.. اقوى من الحياة نفسها. نزعت سروال الطفل الذي لم يبلغ السادسة بعد بحذر شديد ورحتُ أتحسس مؤخرته العارية، ثم هبَّطت سروالي ورحت أفرك قضيبي على فخذه ومؤخرته.. وصلت إلى قمة وحشيتي وإلى نقطة اللاعودة، ونويت أن أنتهكه لم أشعر بأى رحمة أو شفقة تجاه الطفل...

ولكنني في اللحظات الأخيرة شعرتُ بالخوف، كنت أخشى أن تستيقظ أم الطفل أو أحد أخوته فيرى ما أفعل. أوقف فقط الخوف هذه اللعبة القذرة. ذهبت إلى المرحاض ورحت أُمارس العادة السرية لتفريغ ما بداخلي من شهوة مريضة..

كنت أفرك قضيبي وأبكي.. أبكي من قدارتي.. أبكي على ما حدث لي في طفولتي.. أبكي لأنني لم أكن أفضل حالا ممن إمتهنوني وهتكوا عِرضي.. إنسابت الحيوانات المنوية من داخلي وإنهالت معها دموع أكثر وآلام أعمق..

لم أكمل جريمتي حتى النهاية، لا لأنني كنت أكثر رحمة أو أقوى إيماناً من صبي الميكانيكي، ولكن لأنني لم أجد الفرصة المناسبة. ربما كنت سأفعل نفس ما فعله "شكمان" لو كنت قد إختلوت بهذا الطفل في مكان منعزل.

لم تؤدي آلام الإغتصاب التي عايشتها بنفسي إلى أن أكون رفيقاً بالأطفال بل قادتني إلى تقليد مَن عذبوني ودمروا حياتي. العنف لا يولّد إلّا عنفاً.. ولكننا قلّما نوجه عنفاً إلى الغاشم الذي بطش بنا، بل نبحث عن مَن لا حول لهم ولا قوَّة ونمارس معهم العابنا السادية المبهمة تركتُ منزل اقاربنا يملؤني الخزي وإستأجرت غرفة أخرى، ثم قدمت طلباً للسكن في المدينة الجامعية، وكنت على قائمة الإنتظار، ولكن كان عليَّ أن أقدّم مع أوراق التقديم "شهادة فقر" تُثبت أن عائلت ليس لديها أملاك أو دخل يسمح لي تأجير سكن خاص في القاهرة.

كان أمراً مُخجلاً للغاية، ولكن أمي إستخرجت هذه الشهادة من الوحدة المحلية بقريتنا دون أن يعرف أبي حتى لاتجرح كبريائه وهكذا تمكنت من السكن في المدينة الجامعية وتعرفتُ هناك على طلاب من كافة بقاع مصر.

وبعد قليل حصلتُ على وظيفة أكثر ربحاً في إحدى شركات السياحة بمطار القاهرة.

كانت دراستي .تسير حيثما أريد. تعلمتُفي فترة وجيزة الكثير عن الحضارة الأوربية والأدب والتاريخالعربي والنهضه والتنوير. كانت علاقتي بالجنس الآخر محدوده جداً، فقد كنت لا أثق بنفسي كثيراً لأقترب منهن.

وكان خليط غريب من التديّن والإنفتاح قد جعل مني شخصية غريبة الأطوار. ولكنني صادقت لفترة إحدى الزميلات التي أعجبتني عيونها الخضراء، ولكنها كانت بالطبع صداقه بريئة. كنا نحلم بالهجرة معاً لأمريكا والإستقرار هناك..

كنت قد أُختُرْتُ كمندوب ثقافي لقسم اللغة الإنجليزية بالكلية. وكانت مهمتي هي إعداد المجلة الخاصة بالقسم. وقد تعرفتُ من خلال هذا النشاط على الكثير من الطلاب ذوي الأنشطة السياسية والاجتماعية..

وكان من بين هؤلاء الطلاب "خالد" وكان.ثائراً إجتماعياً يُقدّس "جيفارا" و"ماو". أعجبني إخلاصه في كلامه، خاصه بعد أن عرفت انه قد أعتُقِل ذات مرة بسبب

النشاط السياسي. تعرفت من خلاله على مجموعة من الطلاب بنفس فكره ونشاطه. كنّا نلتقي سراً ونتناقش في شئون السياسة والحياة. كنّا نتبادل الكتب المحظورة ودواوين الشعر السياسي الغاضب وأحمد فؤاد نجم ونجيب سرور وغيرهم.
قضيتُ معهم شهوراً دون أن أعرف لهم إسماً.
كنّا نلتقي بالجامعة وأحياناً في بعض المنتديات "السرة" في وسط المدينة.
وعندما لاحظت أن عبارات ،مثل "عدالة إجتماعية" و"صراع الطبقات" و"الدين أفيون الشعوب" .تتكرر كثيراً بدأت أتسائل :
* "هُمّا العيال دول ملّتهم إيه بالظبط ؟ بكونوش ماركسيين؟؟ بالطبع كانوا ماركسيين ولكن أحداً منهم لم بنطق بذلك صراحة، لأن "لهذه التسمية تأثيراً سلبياً على كل من يسمعها، فهى مرتبطة بأذهان كثير من المصربن بالإلحاد وا لعياذ بالله.
وكان معظم "الرفقاء" يسمون المجموعة "إشتراكيين" كي يتجنبوا أى سوء فهم ولكنهم في الواقع كانوا ماركسيين أكثر من "ماركس" نفسه، وكان الكثيرون مفهم لا يؤمنون بأي إلــه ولا يخجلون من قول ذلك.
ولكنني حينها لم أكُن قادراً على التخلّص من الدين بهذه السهولة. كانت لديَّ شكوكي العقائدية ولكنني لم أكُن مستعداً أن أصبح ملحداً 100%. كنت الوحيد بين الرفقاء الذي يتكلم عن الصوفية وعن رحلة الإنسان اللانهائية للبحث عن الله.
تعلمت الكتير من لقائاتي مع الماركسيين. فقد كان معظمهم شباب قاريء ومُطَّلِع وذا فكر متفتّح، ولكنني كنت غير قادر على ملاحقتهم، فقد كانوا يفترسون الكتب إفتراساً وكانوا يستخدمون مصطلحات لا أعرفها، وكانوا يعرفون الأدب العالمي جيداً.
إشتريت كتباً مثل "الشيوعية في 90 دقيقة" و"100 كتاب غيرت التاريخ" وملخّصات لأهم الروايات الروسية حتي أفهم عمّا يتحدثون ولا أبدو أمامهم كفلّاح جاهل. وقد نجحَت الخُدعة ولم يشك منهم أحد أني ثور الله في برسيمه! كان يعجبني

فيهم أنهم مثقفون وأذكياء ومثاليون كما كان يعجبني أن بينهم بعض الجميلات المتبرجات المتحررات من أبناء الطبقة "المستريَّحة" واللاتي كُنَّ ماركسيات من باب المَلل وحب التغيير لا من باب الإقتناع. كنتُ أُطلِق عليهن"شيوعيات الكعب العالي".

ربما كانت تلك الجميلات السبب في أنفي أطلتُ البقاء أكثر من اللازم مع الماركسيين مع أنني لم أكُن مقتنعاً تماماً بمشروعهم إلسياسي. فبالرغم من إحترامي لعقلياتهم المتفتحة فإنني كنتُ لا أئتمنهم على مستقبل مصر. لم أَرَ بينهم ثائراً حقيقياً، بل كانوا محاربين مُتعَبين.

ومن الصدف العجيبة أنني إلتحقتُ بالشيوعيين في نفس العام الذي سقطت فيه الشيوعية، وإنطبقت بذلك عليَّ عبارة "جورباتشوف" الشهيرة:

* "من بات متاخراً، فستعاقبه الحياة" وبرغم إختلاطي بالشيوعيين كنتُ لا أزال أواظب على الصلوات الخمس. كنت أشعر أن كل مناقشة معهم تملأ رأسي بالأسئلة ولا تمنحني أية إجابة..

كنت أشعر بعد كل لقاء معهم بفراغ داخلي.. إمتلأت رأسي بالأسئلة والأفكار المحيرة لدرجة الصداع المزمن. كنت أود أحياناً أن أجرّ مخي عن طريق الأنف مثلما كان يفعل المصريون القدماء في طقوس التحفيظ، ثم القي بمخي من النافذة أو أدهسه بأقدامي حتى أتحرر من أفكار جدباء لا تجلب إلا وجع الدماغ ..

الجهاد

سنحت لي فرصة كبيرة أن أعمل عملاً حسناً في حياتي: عمل بطولي يُثبت لي أنني لا أزال إنساناً ولا أزال قادراً على إعطاء الحياة. أصيب خالي بمرض خطير في القلب .كان عليه أن يخوض عملية جراحية معقّدة يحتاج خلالها لأرتال من الدم الساخن. وكان على هذا الدم أن يُنقَل مباشرةً من وريد المتبرع لوريده أثناء الجراحة.

ولأن فصيلة دمي كانت مطابقة لفصيلتة فقد عرضت علقه أن أتبرع بدمي مما أدخل السعادة والأمل إلى قلبه المريض. أعجبتني فكرة أن أكون منقذاً أو مغيثا.

فقد كان شعوري "بالعار وعدم الإنسانية قد تعمّق منذ محاولتي الخسيسة للتعدي على الطفل أثناء نومه. وكنت أحتاج لإعادة تأهيل إنساني .. لم تكُن علاقتي بخالي جيدة بالمرّة، فأنا لم أكد أعرفه، فقلما زارنا في القرية. وكان يكبرني فقط بعشرة أعوام، فلا هو من أقراني فأصادقه ولا هو بالرجل الكهل فأعامله كخالي. زرته مرة قبل الجراحه ورأيته بقرأ القرآن لأول مرّة في حياته.

* "أنا مش عايز أموت يا إبن أُختى، أنا أفتريت كتير في حياتى ومحتاج وقت كتير علشان اكفّر عن ذنوبي".. رأيتُ الرعب في عينيه. رأيتُ كيف يسقط شاب قوي أسيراً للمرض في أسرع ما يمكن.

ورأيتُ كيف يتحوّل المرء إلى عابد وَرِع عندما يُحس بخطوات الموت تقترب منه.

ولكنني رأيت أيضاً فيه آخر آثار حب الحياة وتشبثه بها، فقد طلب مني في آخر زيارة له أن أهرّب له "بيتزا". وعلبه سجاير "مارلبورو" إلى المستشفى. لست أدري لماذا لم أتردد في فعل ذلك رغم منع الطبيب له منعاً باتاً من أكل الدهون والتدخين.

أكلَ خالي البيتزا في نهم. ودخَّن علبة "المارلبورو" في زمن قياسي ومات بعدها بثلاثة أيام. مات في عمر الثامنة والعشرين. كنت حزيناً لأني لم أعطه بعض الحياة.. وفاقد الشيء لا يُعطيه.. وأعطيته بدلاً من ذلك ما أسرع في القضاء عليه. كان آخر ما قدمته له هو المشاركة في غسله الأخير الذي تم في المستشفى التى مات فيها.

كنتُ أنظر إلى جسد بلا لون ولا حراك واتسائل كيف لشخص يخاف الموت أن يستعجل الموت بإستهلاك مإ منع الطبيب؟ وكيف أساعده بكل برود في إنتحاره؟ إستهزاء مني بالمسؤولية؟ أم إستهزاء بالحياة نفسها؟

* "أين فتوَّتك وعنفوانك؟ لماذا "تموت أنت ويحيا آخرون؟ إلى أين المصير؟" هل يمكن للماركسيين أن يعطوني أجوبة لهذه الأسئلة؟

لم يمر وقت طويل حتى وجدني "ثوار" أخرون. كنتُ اجلس ذات مرة كأول وجبة الغداء الملغّمة بذبت الكافور فى "الميز" الخاص بالمدينة الجامعية. يجلس أمامي طالب لا أعرفه وراح ينظر إليَّ طويلاً وهو يسبّل عينيه ..

* "إنى احبك في الله" قالها لي بدون مقدمات ..

* "نعم؟ " سألته متعجباً ..

* "إنى أُحبك في الله. أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم أن نُخبر مَن أحببنا بحبنا له" قال التقي الورع الطاهر

* "ماشي ياسيدى شكرا" قلت بسخرية، ولم أكن أعلم أنني قريبا سأرد على هذه العبارة بقول "أحبك الله الذى أحببتني من أجله!" كانت هذه هي أول مرّة بقول لي إنسان "إني أحبك" وشاءت الأقدار أن يكون هذا الشخص ذكراً، وكأن لعنة الشواذ تُطاردني أينما ذهبتُ كان للأخوان المسلمين نشاط كبير في الجامعة والمدينة الجامعية. وكنت بالنسبة لهم عضوا نموذجياً: طالب تائه من الأقاليم .يعرف القرآن ويحمل بعض الأفكار المثالية ويرغب في أي شكل من أشكال المشا ركة السياسية.

كنا نجلس بعد الصلاة نتناقش حول أوضاع المسلمين وقضاياهم الغير محلولة في فلسطين والعراق والبوسنة والشيشان. كان الإخوان يَصِلون إلى قلوب الطلاب أسرع وأسهل من الماركسيين لأن أفكارهم كانت أقرب لمزاج الشعب وطبيعته، وأفكارهم لم تولد في المانيا أو روسيا، وحركتهم لم تستورد من ا لخارج.

كما كانت لهم شبكة إجتماعية محكمة، وكانوا يفعلون ما لا تفعله الحكومة: كانوا يبحثون عن الفقراء والغرباء ويحاولون مساعدتهم. كانوا يتوادّون ويتزاورون، وكان يحركهم الإيمان وليس المنفعة الشخصية. أحسست حين إنضممت إليهم أنني أصبحتُ رجلاً ،أنني صرتُ قادراً على المشاركة السياسية التي لم تكُن مُتاحه لمثلي من الشباب في أي مكان آخر في مصر. أعجبتني قراءاتهم الثوربة التحررية للاسلأم والقرآن.. فالمسلم الحقيقي لا يتجادل ولا يقلّد وإنما يُبدع ويُغيّر عالمه. كان إسلامهم يختلف كثيراً عن الإسلام الذي تعلمته من أبي.. إسلام أبي كان هادئاً مُصالحاً يُعلّمني إحترام سلطة الكبير والقوي وتجنّب الفِتنة والصراع، وتقبيل يد عمي رغم أني لا أُطيقه.

كان إسلامه مبنياً على حرفية النَص وقُدسية الحرف فلأ قدرة لي على تفسير أو إجتهاد. كان أبي يستخدم الإسلام حتى يبقى الحال على ما هو عليه، بينما كان الإخوان يستخدمون الإسلام كثورة إجتماعية من أجل التغيير، وهذا ما أعجبني كثيراً. وكانوا يَختلفون عن الجماعات الأسلامية الأخرى في أمرين أولاً كان الإخوان أكثر ثقافة عقلانية في أطروحاتهم، فكانوا لايستندون فقط إلى النص المقدّس وإنما يُبررون إيديولوجيتهم بالمنطق السياسي والإجتماعي.

وكانوا لا يثيرون النقاش حول مسائل فقهية تافهة مثل "هل الخيار المخلل حرام أم حلال؟" أو هل يجوز للرجل أن يجلس على مقعد بالأوتوبيس بعد أن تغادره امرأة؟" ثانياً كانوا لا يأمروننا بحمل السلاح من أجل التغيير وإنما كانوا يعتمدون على الحشد

المعنوي والتجهيز الإيماني أولاً، رغم أن الجهاد كان سبيلهم والموت فى سبيل الله أسمى أمانيهم. كانوا يقولون إن شخصية الفرد المسلم وإيمانه هما نواة تغيير المجتمع بأسره ، وكانوا يستخدمون مقولق الشيخ " ا لهضيبي" أحد مؤسسي حركة الإخوان كثيراً وهي:

* "أقيمو دولة الله في قلوبكم تُقَم على أرضكم" ..

كان خروجي من القرية هروباً من العائلة وتقاليد الريف وكا ن إنضمامي للإخوان هروباً من الإسلام ا لتقليدي

..السلطوي ... هروباً من أبي ،وكان لنا زميل إخوانجي كنا نعتبره مثلاً أعلى. كان يدرس اللغة العربية في الجامعة ولكنه كان يتعلم اللغة

العبرية في "خفاء". كان يقول لنا إننا لن نستطيع أن نهزم عدونا حتى نعرف نقاط ضعفه، ولكي نعرف نقاط ضعفه فلابد من تعلم لغته

كان يعجبني جو السرية المحيط بمعسكراتنا في القناطر والسويس والفيّوم. كُنّا أحياناً نُغير أسماءنا وندَّعي إننا أطباء، وكان ذلك يعطينا الإحساس اننا نعمل شيء في غايه الأهمية أو كأننا في أحد أفلأم "جيمس بوند". كُنّا نُصلّي جميعاً في الخلاء ونُردد الأناشيد المُلهِبة للأحاسيس مثل:

* "فآلمني وآ لَمَ كُلَّ حُرٍ .... سؤال الدهرِ أينَ المسلمونا ؟"

وكان الإخوان يبكون ورَعاً وحَماساً، ولكن قلبي كان لا يزال مثل قطعة حجر بارد. كان الإخوان يتصافحون ويتعانقون طول الوقت وكان ذك يُضايقني كثيرا، لأن التصافح والعناق يشترطان أن يثق المرء بمن يعانقه ثقة تامة، وهذا ما لم أقدر عليه، فقد كنتُ ولا أزال لا أثق بأي مخلوق له عضو ذكري.. ولا أستثني نفسي ..

ولكنني كنتُ في الوقت نفسه أشعر بالإرتياح لوجودي مع مجموعة من الرجال المؤمنين حقاً والمخلصين فيما يقولون ويفعلون. لم يكن وجودي وصَلاتى معهم أكثر

من طقس إجتماعي خالي من العواطف والاحاسيس. كنتُ أستمتع بلعب الكرة وممارسة الأنشطة المختلفة معهم، ولكنهم كانوا أحيانا ينظّمون أنشطة غريبة لا أفهمها. فقد قسَّمونا مرَّةً أثناء معسكر صيفي إلى مجموعات صغيرة وجعلوا لكل مجموعة أميراً وأمرونا بالسير في الصحراء لساعات وكان كل منّا لا يحمل معه سوى برتقالة. وبعد ساعات من المشي والعرق أمرنا أمير جماعتنا أن نتوقف وأن نقشّر البرتقالة. كنتُ سعيداً جداً عندما قال ذلك وكنت انظر للبرتقالة كأنها ثمرة من ثمار الجنة. وبعدها أمرنا الأهبر بدفن البرتقالة في الرمال وأكل القشرة. كدتُ أصيح في وجهه:

* "إيه الهَبَل دا؟"، ولكنني لم اجرؤ بعدما رأيت كل المجموعة تفعل ما أمر به وكأنهم الصحابة في غزوة الخندق. دفنتُ البرتقالة في الرمال على مضض ورحتُ آكل القشرة المُرة وأنا ألوم نفسي على أنني لم اقتطع بعض لحم الثمرة مع القشرة وكنت رغم إرتباطي بالإخون لا ازال ألتقي ببعض الماركسيين من وقت لآخر.

وقد تمكنتُ من تجنيد أحدهم لحماية الإخوان، وكان ذلك الامر يحدث كثيراً.

فالطالب تعجبه أفكار الماركسيين لكنه يخاف من الإلحاد فيتحول قريباً إلى الإخوان.

وقد زارني هذا الرفيق الإخوانجي الماركسي ذات مرة في المدينة الجامعية وطلب مني أن أجلده مائة جلدة. فسألته لماذا؟ فقال أنه وقع في الخطيئة مع إحدى الماركسيات أيام العصيان ويريد أن يُطهّر نفسه من هذا الذنب الكبير. ل

م أتردد لحظة واحدة، فقد كان بداخلى كم هائل من العنف وكنت أبحث عن طريقة لتفريغه. سألته أن ينزع قميصه ويُعرى ظهره، ثم نزعت حزام بنطلوني وبدأتُ في جلده بكل قسوة حتى دَمَت كل بقعة في ظهره. رحتُ أضرب وأضرب وكانت ممارسة هذا العنف تُهدأني، بل وتُثير نشوتي. وكان صراخ الطالب يَزيد من بهجتي.

وعندما فرغتُ من المائة جلدة لم أحس بالإكتفاء بعد، فقلتُ له إني سأضربه خمسين جلدة أخرى لأن الحزام أقل فاعلية من الكرباج، فوافق وواصلت نشوة عنفي وبعد فترة طويلة من الغياب ذهبتُ لزيارة أسرتي في القرية. ثماني عشرة شهراً من الحياة السريعة المتقلّبه في القاهرة جعلتني أفتقد القرية وإيقاعها البطيء.

أصبحتُ أرى سُكّان القرية فجأة بعيون أخرى. رحتُ أنظر إليهم بإمعان فأرى فيهم أصالة الريف وبساطة الحياة التي لم بفقدوها رغم كل شيء. كانوا لا يزالون يُطاردون لقمة العيش بدأب وصبر ولم يكُن لديهم وقت ليفكروا في النظام الذي يعيشون فيه. ربما حالت آلام السنين الماضية بيني وبين رؤية كل هذه العيون الطيبة.

كانت علاقتي بأبي لا تزال باردة، ولكننا كنّا لا نزال قادرين على التحاور. سألته عن "الإخوان المسلمين" وعن رأيه في مفهوم الجهاد فقال لي أن الإخوان يفسرون الجهاد تفسيراً ضيقاً. فالإسلام ليس حزباً سياسياً والجهاد في المقام الأول هو جهاد النفس.

قإل أبي أنه من السهل التركيز على عدو خارجي أو قريب،

ولكن أصعب شيء هو العدو الداخلي. ولكن عدو أبي الداخلي لم يكُن النظام المستند كما كان يرى الإخوان وإنما داخل الإنسان ذاته ونفسه الأمارة بالسوء. قال إن وظيفة الدين في هذا الزمان لا يمكن أن تكون تجييش الجيوش، وإنما على الدين أن يُضمّد جروح الأمة ويُعيد بناء الفرد ليكون مواطناً صالحاً.

حذّرني أبي من أن أنساق إلى أي مُخطط جهادي إخواني وقال:

* "لو عايز " تُجاهد في سبيل الله ذاكر وإنجح في دراستك، خليك راجل صالح ينفع بلده وعيلته. أمّا لو عايز تموت في سبيل الله، قول لي الأول مين دا اللي حسيستفيد من موتك؟" أبي لا يزال قادراً على إعطائي حجج قوية ونصائح قيّمة،لكنّه كان يصعب عليَّ أن أُصدّق كل ما يقول، فما أيجهل الكلام! أو ربما كان أبي قد تغيّر في الشهور التي مضت بالفعل.. ربما أصبح يفكّر في حياته وإخفاقاته ويحاول التغيير من

نفسه، رحت أتخيل قريتي بدون دين ولا مِلّة. لابد أن ذلك سيكون الجحيم بعينه لأهل هذا البلد. وأي خيار يتبقى لهم إذا فقدوا الدين؟ أي ركيزة أخرى يمكنهم أن يجدوها لهويتهم وتعاملهم وقيَمهم؟ فقد كان الدين في بلدنا دائماً هو المدخل لأي مصري مسيحاً كان أم مسلماً.

كانت لغة الدين هي لغة الاتصال والتفاهم والتصالح. وأنا لم أسمع في أي خطبة من خطب أبي سَباً لأقباط القرية أو لعناً لهم كما سمعتُ في القاهرة. بل كان أب وقسيس الكنيسه صديقين حميمين يتزاوران ويتوادان. وكان كلاهما يتوسط لحل أي نزاع ينشب بين مسلم ومسيحى . ولم تكُن مثل هذه الصراعات تنشب أبداً بسبب عقائدي ولكن كانت في الغالب شجارات حول حدود ا لحقول أو مشاكل جيرانية عادية . وقد أدان أبي بشدة تصرفات مُسلمي القرية المجاورة الذين إستغلّوا شجاراً بسيطاً بين مسلم ومسيحي فراحوا يسرقون عروق الخشب من الكنفيسة وهم يصيحون "حي على الجهاد"

كنتُ لا أستطيع أن أُفرّق مُسلم من مسيحى في قريتي من حيث الشكل واللبس والأخلاق. حتى عاده ختان الإناث كانت منتشرة بين المسلمين والمسيحين على السواء. وكانت العادات والتقاليد المصرية حَسِنُها وسَيئُها شأنها شأن اللهجة المصرية: خليط فرعوني إسلامي قبطي متجانس.

ولكن عندما عاد بعض العمّال من السعودية إلى القرية جلبوا معهم فكراً وهّابياً مُتعصّباً وخِطاباً دينياً لايخدم الوحدة الوطنية والتعايش السلمي. وراحوا يُطيلون اللِحى ويأمرون نسائهم بإرتداء الخِمار. وأدَّت هذه الممارسات إلى ان الأقباط أيضاً بدأوا بإظهار رموزهم الدينية أكثر مما أدّى إلى بعض المُصادمات. ولكن هؤلاء العائدين المتعصبين كانوا في ذلك الوقت لا يزالون قِلّة قليلة، وكان سكان القرية يُسمونهم "الجماعة السلفية" أو "الجماعة بتوع الذقون" من باب السُخرية ..

فوجيء أبي عندما حكيت له أن الجامعة لايزال بها ماركسيون، فقد ظن أن السادات إستئصل شأفتهم بعدما سَلَّط عليهم الإخوان، وعلمت من أبي أيضاً أن السادات هو الذى أخرج الإسلاميين من السجون كي يضيّقوا الخناق على الإشتراكيين.

وشاءت الاقدار الّا يقتله الإشتراكيون بل الإسلاميون الذين عفى عنهم وساعدهم: قال أبي أنه بعد نكسه 67 لم تقُم للإشتراكية قائمة أخرى في مصر، فلم يعد أحد يُصدّق أنظمة غربية، فتوجه الشباب إلى التيارات الإسلامية "المضللة" حسب تعبير أبي وهكذا ظللتُ مُمزّقاً بين "جهاد" أبي و"جهاد" الإخوان.

وقطعت بالتدريج علاقتى بالماركسيين وصرت إخوانجياً 100% . كنت أشعر مع الإخوان بتضامن وإعتراف كامل بشخصي لم أجدهُ مع أى مجموعه أخرى. ولكن إحترامي لأبي وتقديرى لرأيه منعاني من الإنخراط في أي نشاط إخواني يتخطّى نشر بعض المقالات الثورية أو الإشتراك في المظاهرات ضد حرب الخليج وحرب البلقان..

المرَّةُ الأولى

كان من الصعب الحفاظ على التوازن بين تديّني كإخوانجي ومُتطلبات جَسدي الطبيعية كشاب في العشرين.

وكنتُ من خلال عملي في المطار أحتك ببنات "الفِرَنجة" ولكني كنتُ خجولاً وغير قادر على تخطي الحدود. وذات مرة طلَبَ مني صديقي "حسام" والذي كان أيضاً يعمل في إحدى شركات السياحة – أن ارافق صديقة أمريكية له كان يعتبرها زوجه المستقبل، فقد رأى فيها عفّة وجمال وبراءة لم يرها في بنات مصر.

وكان حسام مشغولاً وغير قادر على مرافقة صديقته وكان يخشى أن تقع في حبائل مَن لا يرحم من شباب مصر فيستغل براءتها وبغرر بها. وقد فعلتُ ما طلب مني صديقي ورافقتُ الجميلة العفيفة البريئة اثناء رحلتها في القاهرة، وكنت أعاملها بكل أدب وإحترام كما "تتطلب شروط الصداقة" و"المرجلة".

لم أكُن حتّى أرفع عيني فى عينها كي لا تُسيء فهمي. ويبدو أن "تحفظى الشديد مع الأمريكية قد أثارها كثيراً. وقد سألت الامريكية حسام في هذا اليوم عبر الهاتف لماذا أنا خجول لهذه الدرجة، فقال لها لأن "شاكر "لا يزال يحتفظ بعذريته ولم تكن له علاقة باية إمراة من قبل. ويبدو أن ذلك قد زاد من إثارتها، فلاحظتُ في اليوم التالي أنها كانت "تُحاول إغرائي بكل الطرق.

كان وقت الظهيره وكنّا نزور مقبرة فرعونية في جوف الأرض بمنطقة "**سقارة**" ولم يكن في المقبرة أحد إلا أنا وهي، فراحت تفتح أزرَّة بلوزتها بحجة الحَر الشديد حتى رأيت ثلاثة أرباع ثديَيها، ثم إقتربت مني وقالت " أشعر بسخونة شديدة، وأنت أيضا ؟" ثم طلبت مني أن أدلك لها عنقها ففعلتُ وكنتُ أُحاول أن أبدو طبيعياً قدر المستطاع،

ولكن "الثعبان الأقرع" كان قد تمدد فى بنطلونى بصورة لا يمكن إخفاؤها.فلاحظت الأمريكية ذلك وخرَّت على ركبتيها وفتحت سوسته بنطلوني وأخرجَت " أبو العرب" من مرقدِهِ وراحَت.....

كنتُ أقف مُتحجراً رغم شهوتي الكبيرة وتركتها تفعل ما بدا لها. ثمَّ خرجنا من جوف الارض بعد أن لاحظ غفير المقبرة أن شيئاً غير طبيعي يحدث في القاع. وذهبنا إلى الفندق الذى كانت "تسكن فيه،

وكان عليَّ أن أتسلل لغرفتها، فشرطة السياحة حريصة كل الحرص الّا بقع شباب مصر في حبابل الغربيات الفاجرات حتى لا يصابوا بعدوى الإيدز.. خاصة الشباب الدين لايقدمون الرشاوق للشرطة علقهم أن يحتفظوا باخلاقهم الحميدة. أما الأغنياء من شباب مصر ورجال الخليج فيبدو أن لديهم حصانة طبيعية ضد الايدز ،، سألت الأمريكية لماذا أختارتني أنا ولم "تختر "حسام" الذي كان أكثر مني خبرة ومرحاً، فقالت:

* "أنت طاهر مثل الملاك، وأنا أريد أن أكون أول إمرأة تقبّلك وتشاركك فراشك."

كنت أتعجب أن الغربيين لا يحترمون المراة العذراء ولكنهم يحبون الرجل الذى يحتفظ ببراءته. خلعَت الامريكية ملابسها ثم بدأت في خلع ملابسي وكانت تتلذذ بذلك. طرحَتْ بنفسها على السرير وقالت:

* "إفعلها يا صديقى الصغير " ... فألقيت بنفسي فوقها وكنت مُصمما الّا ألعب دور الصغير. حاولتُ أن أكون فظاً عنيفاً فأعجبها ذلك. كان يثيرها كثيراً أن أشدّها من شعرها وأن أكتم أنفاسها. كانت تتلوى في الفراش كالأفعي وتصرخ بألم. لم يكن هناك مكان للحب أو للنعومة بداخلي...

فقد كان هذا اللقاء إستعراضاً للعضلات لا أكثر... لم تكُن "تهمّنى شهوتي بقدر ما

همَّني أن أجعل الأمريكية تصل إلى اقصى درجات اللذة... كنتُ العب معها وأُغيّر الإيقع وكنتُ أتوقف عندما أشعر أن لحظة ذروتها قد قرّبت ثم أُعيد الكرّه من جديد حتى انهكتها تماماً... وفي وسط هذه اللحظة صرخت قائلة:

* "أوكى.. لقد فهمت الدرس، تريد أن تفول لي إنك لستَ ملاكاً ولكن شيطان. نعم أعرف أنك شيطان رهيب!" عندها أعددتُ الإنطلاقة الأخيرة بكل تركيز وأعطيتها الرجفة الكبرى التي كانت تبغي.

* إعترفت لي بعدما فرغنا انها تعمل "راقصة "ستربتيز" في أمريكا، وجاء ذلك تفسيراً منطقياً وحركاتها الأكروباتية وليونتها الغير عادية في السرير.ورحت أتعجب كيف أن حسام كان يعتبرها بريئة طاهرة. لم يكن في هذا اللقاء أي نوع من الرأفة أو الأحاسيس ..

كان مجرد لعبة ظننتُ انها ستكمل قوس رجولتي. ولكنني لم أشعر بتغيير ملحوظ بعدها. حاولَتْ الأمريكية بعدها مراراً ان تَلتقي بي ولكني كنتُ أتهرّب منها .. أحسستُ بقدر هائل من الشعور بالذنب .

* هل سأذهب إلى أحد الإخوان وأساله أن يُقيم عليَّ حد الله؟ بالطبع لا! لستُ مجنوناً كي أذهب لأصولي "مكلكع" وأجعله يضربي. إذا كان الله يريد عقابي فليفعل هو ذلك بطريقته. لم أحكِ لحُسام أيضا ما كان، ولكنه أحسَّ ، أن تغيّراً ما قد ورد على المرأة التي كان يرغب في الزواج منها بعدما إئتمنني عليها.

تكرَّرَت نفس القصة تقريباً مع صديقي الآخر "جميل" فقد وقع في غرام إحدى الطالبات الثريات في الجامعة وكان يتقرب إليها بكل الطرق، وعندما تعرفت عليَّ فقدَت كل إهتمام به. بعدها قرر جميل قطع علاقة الصداقة معي نهائياً، رغم إنني لم أفعل شيئاً هذه المرّة... قال لي أنه سَئِمَ لعب دور عبدالسلام النابلسي في حين أني دائماً ألعَب دور عبدالحليم حافظ وقد عشتُ في هذه الحالة من الأرجَحَه

لفترة طويلة : عدم توازن بين التديّن والتفحّش.. عدم تصالح بين جهاد النفس وجهاد الثورة. قادني هذا الإنفصام إلى حالة من عدم الرضى فرحتُ أُفكِّر في حزم أمتعتي للهجرة بعد إنهاء دراستي. وفي هذه الفترة إلتقيت بأنطونيا التي ساعدتني على أُسافر لألمانيا. وعُدتُ إلى مصر زائراً بعد غياب عامين فلم أجد لي مكاناً في بلدي. نعم.. كنتُ أُلاحظ أن تغييرات كثيرة قد طرأت على القاهرة فأصبحت المدينة أكثر إنفتاحا وإزدهاراً. ولكن هذه التغيرات لم تكن أكثر من قطرة ماء على حجر ساخن. ففد كانت تغيّرات شكلية سطحية لا تصل الى عمق مشاكلنا. فما فائدة أن ندهن واجهة المنزل بلون جميل في حين أن العفن الفطري قد تمكَّن من كل حجرة في البيت؟ !! ..

ألمانيا من جديد

رجعتُ إلى المانيا وقررتُ البقاء فيها رغم إنني لم أكُن أُطيق جوَّها ولا شعبَها. ولكنها كانت رغم كل شي أرحم من بلدي. قطعتُ أي علاقة لي بالمسجد أو بالمهاجرين وحاولتُ أن أصير المانيا أكثر من الألمان أنفسهم. بدأتُ اشرب "البيرة" التي لم أكُن أُطيق رائحتها من قبل وجربت جميع أنواع الخمور.

وكنت أظن أن شربي للخمور سيسهّل عليَّ الإنصهار في المجتمع الألماني ولكن الألمان أنفسهم كانوا يتعجبون كلما رأوني أشرب وسألوني "سمعنا أن المسلم لا يشرب الخمر.. فلماذا "تشرب؟" كانت تضايقني مثل هذه التعليقات وتزيد من غضبي.

كنتُ أُريد أن .بيراني الناس فقط كإنسان ولكنهم كانوا ينظرون إليَّ أولاً كمهاجر وثانياً كمسلم : أي مشكلة مزدوجة! رحتُ أمارس الفواحش بأنواعها ولكنني لم أشعر بأي إرتياح.. شربتُ من المياه المالحة التي لم تزدني إلّا عطشاً وشعوراً بالذنب.

كنتُ أحاول الإبتعاد عن جذورى قدر الإمكان.

ولكني كنتُ في صميمي مُرتبط بهذه الجذور برباط مطاطي. فكنت مهما إبتعد عن الجذور يُعيدني الرباط المطاطي ويرطمني بأصولي من جديد. وكيفما كان بُعدي وسرعة هروبي كانت قوة إرتطام العودة! وكانت علاقتي بأنطونيا قد وصلت إلى شبه الجمود التام، مما زاد من عزلتي.

سحبت ورقة جديدة من لعبة "بوكر لهويات"، رحتُ العن المانيا وأجعلها المسؤول الوحيد عن ضلالي وحيرتي ..

وصلني خبر حزين من قريتي بمصر عمّق من شعوري بالخوف والذنب. أنتحر صديقي القديم "أحمد عبد المعبود." يتصل بي قبل إنتحاره من فترة لأخرى ويسألني إن إجلب

له تأشيرة للرحيل إلى ألمانيا. .

حاولتُ أن أشرح لهُ أن ألمانيا ليست كدول الخليج، ولكنه واصل الإلحاح. وقد أتصل بي إسبوعين قبل وفاته وقال لي :

* "شاكر..أرجوك..ساعدني أسيب البلد دي أحسن أنا حاسس إني بتخنق.شوف لي أي حاجة عندك أو أي واحدة ألمانية طالبة الحلال إن شالله لو عندها ميت سنة حتى" ..

* "صدقني يا أحمد.. ألمانيا مش جنّة زى ما انت متخيّل.. وأنت لو ما لاقتش حل لنفسك في مصر مش هتلاقيه في أي مكان تاني" قلت له فى آخر مكالمة لي معه لم يجد صديقي حل في مصر فتجرع السم ومات قبل وصوله للمستشفى.. ملأتني رعشة الخوف والشعور بالذنب طوال الليلة التي سمعت فيها هذا الخبر. وكنت أشعر أن دورى هو القادم. لم أجد مكاناً التجيء اليه إلّا المسجد.

* ذهبت الى مسجد عربى جديد ورحت أُصلّي لصديقي ونفسي.

مرة أخرى دفعني الموت أن أتسكّع على أبواب الله. شعرتُ بضربة شديدة داخل المسجد. رأيت هناك شباباً عربياً كنت أراهم أيضاً في الحانات والديسكوهات فبدت لي قصة حياتي وكأنها نسخة مصوّرة وغير أصلية.. فقصتي مثل قصص معظم هؤلاء الشباب: شاب يحلم بالحرية فيلهث ورائها دون حسابات فتلسع أصابعه نار الحرية فيعود للمسجد طالباً العزاء والمواساة ..

فتح انتحار صديقي ملف هويتي من جديد.. ماذا جرى لنا؟ السنا قوم إيمان ونتوكل على الله؟ أَلَم نقُل أن الآخرين هم الذين ينتحرون؟ بدأتُ أنظر لنفسي ككيان قذر قبيح الوجه. ولكنني لم أكُن أدري أأَلوم الألمان لأنهم هم الذين نبّهوني لقبحي وصاروا يسخرون منه؟ أم أُلقي باللوم على أبي وأمي الذين ورثت عنهم ملامحي وطباعي؟

كم عملية تجميل ستكفي لإزالة هذا القبح؟ كم كذبة أُخرى يمكن أن نتحملها حياتي؟ هل خلقفا الله ليرى محدوديتنا ويعاقبنا عندما نفشل؟ لماذا لم يخلق بشراً أقوى وأكثر صلابة؟ أسئلة كثيرة راحت تدور في ذهني من جديد. ولا إجابة سوى الضباب والخوف ....

تعرفتُ في المسجد على مجموعة من الشباب الباكستانيين جاءوا من إنجلترا لدعوة الشباب المسلم في المانيا للرجوع إلى الله. وجدتُ في جلوسي معهم تلهية عن همومي وأحزاني وصرتُ أرافقهم في جولاتهم في الجامعة وبيوت الطلبة. كنّا نقرأ الأسماء المكتوبة على أجراس البوابة الرئيسية لبيوت الطلبة وندق على كل باب بَدا من إسم صاحبه أنه مُسلم. وكنا ننصح الشباب بالعودة الى الله وعدم التخبّط في الغربة. صرتُ واعظاً مُبشّراً دون أن أحس.

وأصبحتُ عضواً مُميّزاً في جماعة التبليغ والدعوة. ولكن جسدي بدأ يُصرّح بعد فترة للحصول على الخمر ورائحة أجساد النساء، وكنتُ قد صرتُ مدمناً لهم. فكانت تمر عليَّ بعض الأيام أعِظ فيها الشباب المسلم بتجنّب الفواحش بينما كنت أقع بالفاحشة في نفس الليلة ..

نَفذَت كل أوراق لعبة الهوية. صرت لاأستطيع أن أتحكّم في حياتي على الإطلاق. أصبحتُ قارباً مُهشّماً تتخبطه الأمواج. لم أجد تفسيراً لتصرفاتي. وكنتُ أشعر أن هذه الحالة الإنفصامية يمكن أن تستمر كثيراً بدأَت آلام ظهرى في الإزدياد وأصِبتُ بإنزلاق غضروفي ثاني. زادت حدة نوبات غضبي حتى أصبحتُ "أنطونيا" تخاف أن تنام" معي في نفس البيت ..

شعرتُ برغبة عارمة فى ممارسة عنف جديد. أظنني كان من الممكن أن أصير إرهابياً في هذه الفترة لو ان تنظيم القاعدة قد جنَّدني. فقد كنتً أبحث عن مشروع قصير

المدى يريحني إلى الأبد. ولكنني لم أجد الفرصة التي أفرغ بها عنفي المدفون. فبدأ ذلك العنف يتوجه إلى نفسي. صرتُ أجلِدُ نفسي كل مساء..

ذهبت "أنطونيا" معي للتمشية قرب إحدى البحيرات في ليلة قاسية البرودة. وكانت المراة الحنونة تُحاول بكل ما في وسعها تخفيف آلامي وفهم مشاكلي.. كانت البحيرة التي نسير بجوارها قد تجمدت من فرط البرودة.. وقرأتُ لوحة تحذيرية مكتوب عليها الدخول الى البحيرة مجازفة. خطيره بالحياة. .

فطبقة الثلج هشّة ويمكن كسرها بسهولة ، أحسست أن هذه اللوحة قد كتبت فقط من أجلي وأنها دعوة صريحة لي كي أتخلّص من حياتي وقرفها. تكت أنطونيا وحدها عند الشاطيء ورحتُ أدوسها بأقدامي فوق البحيرة المتجمدة.

راحت أنطونيا تصرخ من مكانها أرجوك عود.. ستموت يا مجنون، لم أعبأ بصراخها واكملتُ المسير حتى وصلتُ لوسط ا لبحيرة وصرت أدبُّ بقدماي فوق الجليد لكي يُكسَر وأغوص تحته فلا ينقذني أحد .

صرخَت أنطونيا مِرا راً وأنا أُواصل ضرب سطح الحيرة بقدمي ثم جرت بشجاعة غير عادية تجاهي حتى وصلت إليَّ لاهثة الأنفاس،فأمسكَت بذراعي وقالت باكية :

* "هذا كثير جداً.. أنا تعبت للغاية"،، أمسكَت بيدى بقوة وسحبتني الى خارج البحيرة وهي تبكي بحرقة ..

في مُستشفى المجانين

أقنعتفني "أنطونيا" أن أعرض نفسي على طبيب نفسي، فوافقت، لا لإقتناعي بجدوى الطب النفسي، ولكن لأنني كنتُ لا أُريد أن أُثقِل على المرأة الطيبة أكثر من ذلك..
بعد عدة جلسات في إحدى العيادات الخاصة لاحظ الطبيب المُعالج أن مشكلتي تستوجب البقاء في المستشفى بصفة دائمة فحوَّلني إلى قسم العلاج النفسي بإحدى مستشفيات "ميونخ". وتعرّفتُ في هذا القسم على عيّنات أخرى من المجتمع الألماني لم أرَ مثلها من قبل.
كانت "كاتارينا" كاتبة فاشلة لم يُحقق أي كتاب لها نجاحاً يُذكَر . وكان يتركها ا لرجال بعد فترة وجيزة من المعاشرة، فصارت مذعورة مضطربة تميل إلى الكآبة والإنتحار. أما "كارل" فقد كان يعمل محاسباً في إحدى إلشركات الألمانية وكان من أبناء الجيل القديم الذي يستخدم في حساباته النوتة والآلة الحاسبة.
وقد طُلِبَ منه أن يستخدم في عمله ا لكمبيوتر فأُصيبَ بالرعب وتفجَّرت منه ذكريات الطفولة المؤلمة. كانت هناك فتاة ألمانية شابة تعاني من إضطراب حاد بعدأ إغتصبها كل من أبيها وجدّها.
كانت تعجبني "سوزانا" وكانت نصف فرنسة نصف ألمانية. وقد حاولتُ الإيقاع بها ولكنها كانت قد وقعت في غرام "ميشائيل". ولكن "ميشائيل" كان شاذاً وكان يحوم حولي طول الوقت . لكننا كُنّا جميعاً نتعامل مع بعضنا ببساطة شديدة دون أحقاد أو حسابات . كُنّا نلعب تنس الطاولة ونرسم معاً ونشاهد الفيديو في أوقات فراغنا .

كان العلاج يعتمد في المقام الأول على الطرق الحديثة مثل الموسيقى والفن والحوارات والتمارين الرياضية والنفسية.. ولكن الطبيب المختص بي كان من عشاق مدرسة التحليل النفسي.

وكان قد احبعن أني أُخفي ذكريات طفولة مؤلمة لا أُريد الحديث عنها وكان يظن أن هذه الذكريات هي سبب مشاكلي النفسنة وليس إضطرابات الهجرة والهوية. حاول الطبيب بكل الطرق لإقفاعي أن أفتح ذاكرتي لهُ وأحكي لهُ عمّا يؤرقني ولكنني رفضتُ بعنف.. فإقترح عليَّ أن يستحدم طريقة التنويم المغناطيسي لكي أشعر بالإسترخاء وأتعامل مع جروحي بهدوء، فوافقت دون أن أدري أنه كان يُحاول بذلك إغتصاب ذاكرتي عنوةً ...

خرجتُ من جلسة التنويم المغناطيسى وأنا أصرخ بعنف وهربت حافياً من المستشفى وصرتُ أجري في شواع "ميونخ" في ليلة قارصة البرودة.

ثم حاولت إيقاف جميع السيارات في الشارع وكانني كنت أريد إيقاف المدينة الألمانية التي كنت أشعر أمامها بالعجز والخصيان. تسببتُ في إحداث زحام رهيب فجاءت سيارة الشرطة بسرعة والقت القبض عليَّ واعادتني فيما بعد للمستشفى. ولكنني بدأت في ضرب الممرضين بطريقة وحشية حتى خدَّروني بحقَن مهدِّئة هدأتني الحقَن ليلة واحدة فقط .

ففي الصباح حاولتُ خنق نفسي بكابل التليفون ورحت آكل زجاج كوب الماء وأبتلعه. فاجريت لي عملية جراحية عاجلة لاستخراج شظايا الزجاج من معدتي. تم قرر مدير المستشفى تحويلي لمستشفى المجانين المُغلَق والذي يقع تحت حراسة الشرطة، إذ يُعالَج فيه المجرمون والمغتصِبون والمدمنون. لكني رفضتُ ذلك فلم يجد ا لمدير بديلاً عن إستدعاء الشرطة التي قادتني إلى المستشفى المُغلَق..

شُكِّلت لي محكمة عاجلة وقررت حبسي بالمستشفى لأنني أُمثِّل خطراً على نفسي وعلى محيطي ومنعي من إدارة شئوني بنفسي ومن التوقيع على الأوراق الرسمية. أظنني كنت سأتخذ نفس القرار لوكنت أنا القاضي.

فلم يدع تصرفي لأحد أي خيار آخر. لم يفهم أحد في مستشفى المجانين مشكلتي بالمرة. حبسون في غرفة بلا نوافذ ونزعوا منها أي شيء حاد يمكن أن أستخدمه للإنتحار .. كانت العقاقير النفسية والعصبية تصيبني بالخَبَل والعجز التام . كانت تحبس مخي ولا تترك منه إلا القليل في حالة التشغيل .

كان أسوأ هذه العقاقير دواء يُسمى " هالوبيريدول" فكان تُصيبني بشلل تام فى الوجه فيلتوي لساني بألم. ولكنني عندما إشتكيت لم ينصت أحد لشكواي وكأنني حيوان هائج يجب فقط تهدئته. وعندما رفضتُ تناول الدواء كانوا يُقيدوني ويدسون الدواء عنوةً في فمي أو في عروقي . كنت أنام مقيّداً في السرير كل ليلة كي لا أؤذي نفسي وكان ذلك يؤلم ظهري كثيراً..

كان الألمان لا يرغبون في رؤية أمثالي في الشوارع. فكانت هذه المستشفيات بمثابة مقالب زبالة يُخفي فيها المجتمع قاذوراته حتى يستمر في الإستمتاع بالجنة الزائفة .. أمضيتُ شهوراً لا أرى نور السماء ولا أتكلّم مع بشر عاديين، فقد كان كل النزلاء مجرمين أو مهددين بالإنتحار أو مجانين على درجة عالية من العنف.

وكُنّا لا نذهب لأي قسم في المستشفى إلّا تحت الحراسة المشددة..

أحسستُ يوماً أني مخنوق وكنتُ أرغب في شم هواء طلق ورؤية السماء. فطلبتُ من أحد الممرضين أن يصطحبني لأي شرفة ولكنه رفض وقال إنَّ ذلك ضد تعليما ت الطبيب فرحتُ أصرخ بشدة حتى فقدتُ صوتي، تماماً فقادوني لغرفتي وخدَّروني بالسموم،

أمضيتُ أسابيعاً لا أنطق بحرف واحد وكانت "أنطونيا" "تزورني من وقت لآخر وكانت تُحاول تحويلي إلى مستشفى آخر قرب جبال "الألب" يُقال عنه أنه أكثر إنسانية مع مخبولي العقول. ولكن الطبيب قال إن هذا الإجراء لن يكون ممكناً قبل أن تتحسَّن حا لتي العقلية كثيراً. كنتُ أُحاول التحكّم في أعصابي قدر المستطاع فلا أصرخ ولا أتشاجر مع أحد..

وبعد بضعة شهور عصيبة سمح لي الطبيب بالإنتقال إلى المستشفى الآخر وكان الجو في المكان الجديد مختلفاً بالفعل عن السجن القديم. كان أيضا مستشفى مغلق، ولكن كان مسموحاً لنا بالمشي في الحديقة الجميلة تحت الحراسة. لم يكن العلاج يعتمد هناك فقط على أدوية المخ والأعصاب .

ولكن كان يشمل علاجاً إبداعياً وعلاج الإسترخاء في الماء والعلاج بالكهرباء وبالتحليل النفسي كان مبنى المستشفى مليئاً بالنور الطبيعي كانت تُعلَّق على جدرانه لوحات سيريالية جميلة. كان الأطباء والمعالجون يتعاملون معنا بإحترام ورِفق. ولكن الأدوية السامة كانت أيضا جزءاً مهماً من العلاج.

وقال لي أحد الأطباء أنني لستُ مجنونا فعقلي سليم 100% ولكن مشكلتي هي الأعصاب والمشاكل النفسية. وقال أن مرضي سببه شخصية مركّبة وهوية مرتبكة ويرجع ذلك في الغالب لصدمات في أيام الطفولة. ولكنني لم أتحدث مع هذا الطبيب أيضاً عن ذكرياتي..

تعرفت في هذا المستشفى على بعض أصدقاء الجنون. وكانوا يقبلوني كما أنا. وقد كنتُ دائماً، حتى قبل مرضي أجذب المجانين والمعتوهين بصورة غريبة فيرتاحوا معي وأرتاح معهم منذ الوهلة الأولى.. هناك مقولة جميلة لـ "هاينرش هايني" :

* "لا يوجد مجنون واحد على درجة من الجنون تجعله لا يجد مجنونا آخر يفهمه!!"

كان "أولاف" طفلاً كبيراً فاق الأربعين وكان يكتب كل يوم خطابات إلى سكان

الكواكب الأخرى يشكو لهم فيها من قسوة أهل الأرض وغبائهم وكان "منفرد" مدرس رياضيات فقد عقله بعد أن تركته زوجته لأنه صار مُدمنا للخمور. كان يزحف كل يوم على الأرض ويصرخ " الروس قادمون" كنت كلما أساله :

* "كيف حالك اليوم يا منفرد؟" يرد عليَّ قائلاً :

* "أنا دائماً بصحة جيدة لأنني أضرب العشرات ثلاث مرات يوميا!"..كان "إبراهيم" شاباً تركياً مدمناً للمخدرات وكان ذا شخصية مرحة وبديهة حاضرة.. وكان أكبر إنفتاحاً من كل الأتراك الذين قابلتهم في المانيا ، وكانت "سراب" فتاة تركية أخرى.. وقد هربت من عائلتها بعد أن وقعت في غرام شاب ألماني.

ولكن علاقتها به إنتهت فصارت بلا سند وأصيبت بالاكتئاب، كنت أجلس بعد منتصف الليل في غرفة التلفزيون، فقد كان مسموحاً لي بالبقاء مستيعظاً في الليل لأنني كنت أُعاني من أرق وكوابيس ليلية. وكنت أُشاهِد أحد أفلام " السكس " .. عندما دخلت "سراب" عليَّ الغرفة فلم أُغير المحطة وواصلتُ مشاهدة الفيلم الخليع. فجلست سراب بدون تعقيد وراحت تبتسم لي إبتسامة فهم وتضامن.

فقد فهمت أنني سئمتُ التقاليد والممنوعات.. ربما مثلها تماماً رحنا نمزح حول الفيلم وممثليه. ربما لو كنا في مكان آخر لنشأت بيننا علاقة جميلة ولكن المكان لم يكن يسمح باكثر من المزاح والمغازلة البريئة. وكان لقائي مع "سراب" قد أسعدني ومنحفي الشعور بأنني لا زلت أتمتع بالشهوة الجنسية.

كنت من وقت لآخر أتحسس "نبّوت الغفير" المسترخي في سروالي لأتأكد أنه لايزال على قيد الحياة . لم أكُن أُمارس العادة السرية ثلاث مرات يومياً مثل "منفرد" ولكنني كنت أطرد شهوتي من حين لآخر.

كان سلطان المرح في المستشفى هو "هانز" وكان طياراً سابقاً في سلاح الجو الألماني. وكان من عشاق الصين ونساء الصين . وكان يغني كل يوم اغنية لـ "ماو" وقد

أصيب "هانز" بالجنون عندما دعته عائلة خطيبته الصينية في إحدى قرى الصين للأكل في أحد المطاعم التقليدية.

وأرادت العائلة أن تُقدّم طبقاً خاصاً للضيف الألماني فجلس الجميع على طاولة الطعام وكان بوسطها فتحة مدورة برزت منها رأس قرد كان لا يزال حياً ومُقَيَّداً تحت الطاولة. ثم جاء "الجرسون" بفأس صغيرة راح يضرب بهارأس القرد حتى انفتحت، فراح الرجال الصينيون يأكلون من مخ القرد بالعصي الخشبية بينما راح القرد يصرخ ألماً.

كان الرجال يعتقدون أن مخ القرد الحي يُضاعف من القوة الجنسية وكان أكثر الناس كآبة في المستشفى هو "فيلي" وهو أُستاذ لاهوت في الجامعة كان قد فقد إيمانه بالمسيحية وبالله كليَّةً. كان يُدخِّن السجائر طوال اليوم بشراهة ثم يبكي بعد أن تنفذ سجائره ونقوده. وقد كان لهُ كبرياء غريب فكان لا يقبل معونة من أحد.

وأردنا ذات مرّة أن نجمع له بعض المال ونُعطيه إياه دون أن نجرح كبرياءه. فقررنا تنظيم دورة لتنس الطاولة وسألنا كل واحد أن يدفع ثلاثة ماركات ألمانية على أن ينال الفائز الأول كل المبلغ في النهاية.

وكنّا قد إتفقا أن نترك " فيلي" يفوز بالدورة حتى يقبل المال بعزة نفس ولكن الطفل الكبير "أولاف" كاد أن يُفسِد كل شيء ي الدور قبل الفهائي. فقد نسيَ ما إتفقنا عليه وكان يُصمم على الفوز. فأخذتُهُ على جنب وذكّرته بإتفاقِنا فترك "فيلي"يفوز .

وكان كل من يلعب ضد " فيلي" يجد صعوبة كبيرة في الخسارة لأن "فيلي" كان لاعباً سيئاً للغاية.

ولكنه كان على درجة من الجنون جعلته في النهاية يصدّق أنه الفائز الحقيقي.

فأخذ المال بسعادة وإشترى الكثير من علب السجائر ...

كانت علاقتي جيدة بالجميع هناك.. وكان الجميع يحبونني ويحترمونني. لم يلعب الدين ولا لون البشرة أي دور في علاقتنا. كنّا نرى أنفسنا فقط كبشر لايفهمون العالم ولا يفهمهم العالم. وكانت الدموع تسيل حزناً عندما يترك أحدنا المستشفى. ولكن الدموع كانت في اغلب الاحيان بدون داعي، فقد كان معظم من يغادر المستشفى يعود بعد أيام لأنه لا يطيق الحياة مع البشر "العاديين".

فقد خرج الطيار من المستشفى ثم ذهب إلى إحدى الحانات وكسر زجاجها فجاءت به الشرطة إلى المستشفى من جديد وقد كانت مستشفى المجانين قد صارت واحة هروب لمعظم النزلاء من ضغوط الحياة الخارجية ومتطلبات العالم "الطبيعي". صارت المستشفى قفصاً ذهبياً يحتضن المعتوهين ويتعامل معهم على قدر عقولهم ومتطلباتهم وعيوبهم ..

فقد كان كل شيء تقريباً مسموحاً. كان الفرد يزحف على الأرض وقتما يشاء ويصرخ إذا أراد ويُغنّي أينما شعر برغبته في الغناء. كان "أولاف" .يتبوّل في قصرية الزرع دون عقاب وكان "منفرد" يقفش مؤخرة الممرضة دون تعنيف.

ولذلك لم يكن أحد يرغب في مغادرة ذلك الكهف المسالم ليُعيد اقلَمَة نفسهُ على العالم الخارجي بقوانينه الغريبة.. ولكنني كنت أريد الخروج بإلحاح .. كان شيء ما بداخلي لا يزال يريد الحياة. حاولت كل ما بوسعي لأقنع الطبيب بالإفراج عني ولكنه قال أن الأمر صعب للغاية، فأنا أرقد هنا "بأمر قضائي ...ولابد من الشفاء شبه التام حتى أترك هذا المكان ولا بد من مراقبتي لفترة طويلة قبل تسريحي ..

لم يزرني في المستشفى غير أنطونيا المخلصة وطالب جزائرى واحد كنتُ أعرفه من الجامعة. كان معظم الزملاء يخشون من دخول مثل هذه الاماكن "الخطيرة".

دخل عليَّ الزميل العربي حاملاً القرآن في يده وقال

* "المؤمن مصاب دائماً يا شاكر"..

* "والله لو كان هذا صدق فلابد أن أصبح أنا أمير المؤمنين" قلت له ساخراً..
* "ماذا تفعل هنا يا أخي؟ علاجك ليس في دواء الغرب ولكن في جذورك إلتي بعدت عنها".. تلى عليَّ الزميل الجزائري من القرآن {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } فقلتُ له:
* "لستُ أنا مَن نسيَ الله بل هو الذي نسيني ونسيَ العالم كلّه منذ زمن"..
* "إستَغفِر الله يا أخي وأسالهُ الرحمة، فهو وطننا الوحيد في الغربة ورجاؤنا إذا إنقطع الرجاء".. قالها وأهداني المصحَف ..

رحتُ أقرأ القرآن فشعرتُ براحة نفسية غريبة. لم تكُن معاني الكلام الذي قرأت هي التي جلبت عليَّ الإرتياح وإنما مجرد الترتيل نفسه كان يُذكّرني بطفولتي وقتما كنت أجلس أمام أبي أتلو عليه القرآن فيهز رأسه مُستحسناً. نعم..

لقد كنت بحاجة إلى ديني ولكن ليس كنظام عقائدي وإنما كحلقة وصل بيني وبين ماضيي وجذوري. رحتُ أتذكر مفهوم الجهاد كما شرحه لي أبي على أنه جهاد النفس والتغلب عليها.. لقد كنت في أشد الحاجة لهذا الجهاد في موقفي هذا. كنت بحاجة الى أن اتخلّص من رفضي للدين ومن خوفي أن أفقد الدين. ربما كان ذلك هو الجهاد الحقيقي الذي يجب أن أقوم به وبعد شهور تحسنت حالتي بعض الشيء فصرح لي الطبيب بمغادرة المستشفى .

خرجت من القفص إلذهبي دون أن أودّع أحداً ورحتُ أتأرجح في العالم "العادي" وكأنني جئتُ من عالم آخر.كان كل شيء غريباً وبارداً من حولي. كنت ما أزال أُعاني من الخوف والكوابيس ولكنني كنتُ مُصمماً على أن أبدأ بداية جديدة..

كنت أود

أسافر ولكنني كنت لا أزال ممنوعاً من مغادرة البلاد . كانت إحدى موظفات المحكمة "تزورني من حين لآخر لتتأكد أن "شعرة الجفون تعاودني من جديد.

وبعد شهور من المراقبة والمتابعة حصلت على العفو وسُمِحَ لي بالسفر والتوقيع على الوثائق الرسمية مرة أخرى سافرتُ إلى مصر ولكنني ظللتُ في القاهرة.
فكنت لا أُريد أن يراني أهلي بهذه الصورة. فكنتُ قد نقصت أكثر من عشرين كيلوجراماً من وزني وكنت أبدو مثل الشبَح. وكنتُ لا أُريد أن يرى أبي أن نبوئته قد تحققت.

أقنعني صديقي "حسام" بالذهاب إلى أحد الشيوخ البارعين في طرد الجان من داخل البشر. كان ما تبقّى من عقلي يناهض مثل تلك الخزعبلات، ولكنني ذهبت معه لأنني كنت أبحث عن حل سريع لمشكلتي، حتى لو كان هذا الحل سَراباً لا أكثر.
كنتُ أبحث عن حل خارجي كي أتجنَّب فتح "الباندورة" العجيبة المليئة بالافاعي دخلتُ مع "حسام" إلى ساحة المسجد فوجدتها مكتظة بالناس وكأَنَّ نصف شعب مصر قد مسَّه الشيطان!

وراح الشيخ "أبو سر باتِع" يتلو القرآن والتعاويذ على الجمع فراح الناس يخرون على الأرض الواحد تلو الآخر ويرتجفون وكأنهم دجاج مذبوح. وكان الشيخ يقترب من الشخص "الممسوس" فيقرأ القرآن في أذنيه ثم يكبّر ويقول:

* "أخرج من يده.. أخرج من رجله.. أخرج من دبره .. أخرج من قبله " ثم يخز الشخص الطريح بإبرة في إصبعه أو قدمه حتى تسيل منه كمية كبيرة من الدم.
فيقوم الشخص عافياً وكأنَّ شيئاً لم يكُن..

كنتُ أنظر لهذا المشهد وكأنه حلم أو منظر إخترعَهُ مخرج سينمائي ساخر. وجاء دوري وراح الشيخ يلطمني ويكلني ولكن يبدو أن شيطاني كان عنيداً فلم يخرج في هذه المرة. طلب مني الشيخ العودة مرة أخرى.. ولكنني لم أفعل .

السلام التام

شعرت بتحسن نسبي بعد هذه الرحلة. فعدتُ إلى ألمانيا ولكني لم أواصل دراستي في الجامعة التي لم أدخلها منذ أكثر من عام. عملتُ من جديد في مغسلة السيارات ورحتُ أجمع المال. حاولتُ العودة للصلاة ولكني لم أستطع هذه المرة، فرميتُ سجادة الصلاة في صفيحة الزبالة.

أرسل لي "أولاف" رسائلاً شبه يومية من المستشفى يتفلسف فيها عن سر الشر في نفوس البشر تقلّب على المواجع.

رددتُ عليه مرة واحدة كتبتُ لهُ فيها ألّا يراسلني بعد اليوم لأنني لستُ من سكان الكواكب الأخرى! كنت لا أريد أن يُذكّرني بشيء بهذه الفترة تعرفت من خلال طبيبتي "جيزيلا"على عالم التأملات الهندية.

فقد كانت تقيم في بيتها ندوات عن الروحانيات الشرقية والتأملات. وعرضت ذات مرة شريط فيديو يتحدث فيه رجل هندي وسيم يعيش في أمريكا إسمه "ماهاراجي راوات" وكان يختلف عن أي "جورو" هندي آخر فقد كان حليق الذقن يرتدي ملأبس غربية ويطير بطائرته الخاصة بنفسه.

* "هل تبحث عن إجابة؟ أنك أنتَ الإجابة! فكل ما تبحث عنهُ فهو بداخلك!"

كانت هذه هي رسالته البسيطة التي كانت تُذكّرني بالصوفية. قال "ماهاراجي راوات" أنهُ يُعطي كل تلميذ يستمع اليه لمدة عام مجموعة من التمارين السرية تخلق منه إنساناً آخر. فإذا أبدى التلميذ جديّة في الإنصات سيعلّمه ماهاراجي هذه التمارين بنفسه وبدون مقابل. كانت دعوة مغرية وجاءت في حينها تعرض على الكثيرين من أتباع هذا الـ" ماهاراجي" في ألمانيا وكان معظمهم مثقفين وأغنياء.

بالطبع كا ن بينهم أيضاً بعض الرعاع وا لفقراء ولكن هؤلاء كانوا الإستثناء. وكا نت "جيزيلا" قد تعرفت على "ماهاراجي" وهو طفل صغير جاء لإلقاء المحاضرات في إحدى المدن الألمانية فأُعجِبَت برسالته وتعلمت منه تقنيات التأملات السرية، فتحولت من إنسانة فاشلة مدمنة للمخدرات لإنسانة سعيدة أكملت دراستها وأصبحت طبيبة وتزوجت وأنجبت ستة أطفال .

كان نموذج "جيزيلا" يُغريني أن أخوض تجربة "ماهاراجي" ففعلت. عجبتُ كم من إلألمان يبحثون عن الأشكال المختلفة للروحانيات. كنت أظن أن الله قد مات إلى الأبد في أوروبا ولكنني رأيتُ الكثير من الدائل التي يعرضها مجتمع الإستهلاك كعوض عن الله : دورات تأمل سريعة ودورات التعرّف على الذات.

كان السوق يمتليء بالكتب عن الروح وأسرار السعادة وتأثير النجوم على القدر. وكان ذلك يشبه ما تقوم به المصانع والشركات الكبرى مثل "مرسيدس" وبي. أم. دبليو" فهى كثيرما تقوم بتنظيم حفلات موسيقية للدعاية للحفاظ على البيئة بالرغم من أنها اكبر ملوّث للبيئة.

ولكنني لاحظت ان أتباع "ماهاراجي" كان لديهم أستمرارية أكثر وإخلاص في البحث. فكان معظمهم يعرف ماهاراجي منذ سنوات عديدة ويسافر لكل أركان العالم كي ينصت لمحاضراته. وكان كل مَن حصل على التقنيات السرية يقول أنها حوَّلت حياته تماماً.. وكان من بين مُريدي ماهاراجي رجل كبير السن إسمه "هنري". كانت تعجبني بساطته في التفكير والحياة وروحه الخفيفة.

كان من أسعد البشر الذين التقيت بهم في حياتى وقد صرنا أصدقاء في وقت قصير ثم جاءت المفاجأة التي كادت تقضي على صداقتنا. فقد أخبرني أنهُ يهودي الديانة وأنهُ يتعاطف – مثل كل اليهود – مع شعب إسرائيل رغم أنهُ أمريكي الجنسية. بل وقد علمتُ منهُ أنه كان يسكن إحدى المستوطنات الإسرائيلية في سيناء في

السبعينات .. أي أنهُ كان يُعمّر الأرض التي نهبتها إسرائيل من مصر بعد حرب النكسة .. الأرض التي فرَّ منها أبي زاحفاً على الرمال . كانت مفاجئة قاسية. فقد كنتُ أعتز بصداقته كان عليَّ أن أقطعها لأنني لم أكُن أستطيع أن أتناسى عِداء السنين لمجرد أنهُ رجل ظريف وكان ما أدهشني هو أن "هنري"

لم تنطبق عليه أية صورة من الصور النمطية التي كانت بذهني لليهود، فهولم يكُن يمتلك بنكاً ولا محطة تليفزيونية ولا شركة إنتاج سينيمائي، ولم يكن يبدو عليه أنه غليظ القلب أو مُتكبّر أو بخيل. بل كان هذا الرجل فقيراً جداً ومع ذلك كان في غاية الكرم والسَخاء. كان حنوناً مرحاً. أُصيبَ بالحزن عندما قلتُ له أني لا أستطيع أن أستمر في صداقتي معه وقال لي:

* "أنتَ لستَ عبد الناصر وأنا لستُ ليفي أشكول" .

رحتُ أنصت لمحاضرات ماهاراجي عبر الفيديو وكانت تعجبني آراءه في الحياة. وكنتُ أُجهّز نفسي لكي أتلقّى منهُ التقنيات السرية للتأملات.. وفي الوقت نفسه قررتُ أن أترك ألمانيا وأبحث عن بلد جديد أبدأ فيه بداية جديدة.

فقررتُ السفر الى اليابان. ولماذا اليابان؟ أولاً: نظرتُ إلى خريطة العالم وكنتُ أُريد أن أذهب إلى اقصى الغرب أو اقصى الشرق. وكانت اليابان تقع في آخر الدنيا من الشرق. ثانياً: أوحَت إليَّ القصص والقصائد والرسوم اليابانية بجو من السلام والروحانية الهادئة، كانت اليابان ترتبط بذهني بحديقة منسَّقة ومُنمَّقة بها بحيرات صغيرة وأحجار جميلة. وكنتُ أتذكّر مسلسل "أوشين" الذي أوحى لي أن الزوحة اليابانية هي أكثر النساء إخلاصاً لزوجها مهما كانت الظروف.

واصلتُ عملي في مغسلة السيارات كي أجمع المال لرحلتي الجديدة. كنتُ أتخيَّل ماهاراجي يُحدّثُني عن رأيه في قراري بالذهاب الى اليابان. أظنه كان سيقول:

* "إلى أين تُريد الذهاب ؟ ومن ماذا تهرب؟ تخيل لو ان حذاءك به حجر مدبب يضايقك. كم من الأميال يجب أن تجرى حتى يتوقف الحجر عن إيلامك؟
كنت أعلم الإجابة. كنت أدري أنهُ لا فائدة من الهروب وأن المشكلة بداخلي أنا.
وإنَّ عليَّ أن أتوقَّف عن المسير وأجد الشجاعة لأنزع حذائى وأخرج منه الحجر.
ولكنني كنتُ مُرهَقاً وكنتُ لا أزال غير قادر على المواجهة..
إنتهت فترة إختباري عند ماهاراجي وتم ترشيحي لكي أتلقى التأملات السريةمنه مباشرة في "تايوان" فطرت إلى اقصى الشرق وكنتُ أنتظر اليوم الموعود بفارغ الصبر.
قضيت الليلة التي سبقت لقائي بماهاراجي في إضطراب جميل.
رحتُ أتخيَّل التاملات وهي تَحوّل حياتي من بائس يائس إلى شخص مُتفائل وسعيد مثل"جيزيلا" و"هنري".
تجاهلت الفتاة التايوانية الجميلة التي جاءت لترتيب غرفتي قبل خروجي من الفندق رغم فضولها الكبير عني ورغم غزلها الصريح معي. فقد كنتُ لا أريد أن أُفسِد الجو الروحاني الجميل المُخيِّم عليَّ.ذهبت إلى مكان الإجتماع سعيداً وكأنهُ يوم عُرسي.
جلستُ في القاعة الكبيرة بين آلاف من طالبي الخلاص الروحي من كل أنحاء العالم.
بدأ ماهاراجي في الحديث بلهجة أكثر جدية من لهجته الناعمة المعتادة.
طلب منّا قَسَماً مُقدَّساً الّا نبوح بسر التأملات لأي شخص آخر وأن نُكرِّس حياتنا لخدمة "المعلم". رحتُ أتساءل في داخلي : أي فعلم وأي خدمة؟ هل لماهاراجي نظاماً سلطوي أيضاً؟ ألَم يكُن يقول مَن قبل:
* "كل ما تريده فهو بداخلك؟" فلماذا القَسَم؟ على كل حال كنتُ أنتظر أن يفرغ "المعلم" من محاضرته ويبدأ في تلقيني أسرار التأملات. أقسمتُ لهُ كيفما أراد فراح يُزيح الستار عن السر الدفين..
أربعة تمارين للتأمل كانت أقرب لـ "اليوجا".

أدت هذه التمارين الأربعة الى نوع "من الإسترخاء بداخلي بالفعل٠ ولكنني لم أشعر بأي تغيّر وجداني على الإطلاق. لم أُحِس بأى تجربة روحانية بالمرَّة. خرجتُ من القاعة ورأيتُ الدموع في عيون الآخرين.

يبدو أنني كنتُ هنا أيضاً الوحيد الذي كان قلبه مُغلقاً ما سبب هذا؟ هل أنا سجين أزلي في العالم الواقعي المؤلم؟ .يبدو أنني لا أستطيع أن أرى الوجود إلّا في أكثر صوره تجرّداً وعُرياً. هل تحهلم هذا ا لجزء من مخي المسؤول عن الروحانيات؟ أم أنني وُلِدتُ بدونه ؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا ألهثُ راجياً خلف كل من يبيع الروحانيات! ولماذا لا أقتنع !! إذاً أنه لا يوجد شيء أكثر مما أرى وألمس من حولي؟ فلا روح ولا غيبيات ولا إله؟! ولكن اليست الرغبة في البحث عن الله هي دليل على وجود الله؟ أليس العطش دليلاً على وجود الماء؟ ولكن أين هو هذا الماء؟ لماذا أتيهُ في كل صحراء والهث خلف كل سراب ثم أعود مرهقاً خائب الأمل؟ كانت خيبة أملي شديدة جداً أني قطعت كل هذه الأميال من أجل بعض تمارين "اليوجا".

وفي الصباح التالي دفعت لعاملة الفندق التي جاءت لترتيب غرفتي مبلغ 20 دولاراً فنَزَعَتْ عنها ملابسها ومارَسَت معي الجنس..

طرتُ بعد ذلك إلى اليابان ولم أرَ"أنطونيا" بعدها أبداً، وكأنها لم توجد في حياتي من الأصل. قدِمَتْ أنطونيا بعد أسابيع من سفري أوراق الطلاق إلى المحكمة وحصلت عليه في غيابي. ربما كنتُ فقط أستَغِل هذه المرأة الطيبة.

فقد كانت مجرد محطة هروب لي. لم أقُل لها حتى "وداعا" أو "شكراً على كل ما فعلتي من أجلى" ..

نظرتُ من نافذة إلطائرة إلى مدينة "أوساكا" فلم أرَ حدائق ولا معابد وإنما نسخة مشابهة لفرانكفورت.. مدينة حديثة ذات أنوار وبنوگ ومصانع. فوجئت في المطار أن اليابانيين يتحركون بسرعة شديدة دون أن يصطدم بعضهم ببعض.. ل

م يتكلم أحد ولكن كل الماكينات كانت تتكلم لإرشاد مَن يشتري التذاكر ثم تشكرهم بعد أن ينتهوا من الشراء ..

رحت أدرس اللغة اليابانية قرب "أوساكا" ثم بدأت بالعمل في أحد المطاعم ثم كمدرس للغات الإنجيبربة والألمانية بإحدى المدارس الخاصة. ل

م أذهب خلال إقامتي باليابان مرة واحدة إلى المسجد ولم أكن حتى أعلم أين يجتمع المسلمون. كنتُ مع الوقت قد نسيت حتى أني "مسلم"، حيث أن أحداً من اليابانيين لم يسألني أبداً عن ديني، فقد كانوا حينها لا يعلمون أى شيء عن الإسلام إطلاقاً. معظمهم كان يظن أني "أمريكي" لأن اليابان .تكاد "تكون خالية من الأجانب الغير آسيويين ..

إشتريت جواز سفر لدخول المعابد في البابان، وهو مايفعله الحُجاج البوذيون هناك.. وكنتُ أحصل علي ختم كل معبد وتوقيع راهبه. وكنت أعتبر كل ختم خطوة في طريقي إلى سلامي الداخلي. حاولت جاهداً أن أحتفظ بصورة اليابان المثالية في رأسي أكبر وقت ممكن ولكن سرعان ما إكتشفتُ أن اليابانيين أيضاً بشر ولهم مشاكلهم وعدوانيتهم .. ولكنهم لا يُسمح لهم بأبراز شعورهم لأحد.

والياباني يُفضَّل أن يحتفظ برأيه لنفسه حتى لا يعكّر صفو الوئام الاجتماعي الذي هو أهم شيء في اليابان بجوار العمل والمال. ولكن هذا السلام الإجتماعي لم يكُن سوى نفاقا مهذّباً أو كومة من الكذبات البيضاء والسوداء .. إذ كيف توجد صداقة بدون مصارحة ورأي واضح..

وكيف يوجد حل حقيقي للمشاكل بدون نقاش مفتوح؟ ولكن اليابانيين كانوا يعتمدون في حل مشاكلهم على نفس طريقة المصريين : "يكنسها تحت السجادة"

رأيت المجتمع اليابانى مقسَّم إلى طبقات وكل شيء مبني على الأسبقية والمراتب.. فالشركات والمصانع وحتى الجامعات مبنية على نظام سلطوي درجي ليس فيه متكافئون بل أعلى وأدنى..

وحتى الطلبة مقسَّمون الى سابق ولاحق.. وكان ذلك يُزيد من صعوبة وجود صداقات، فالياباني لا يُقدّم نفسه كفرد وإنما يذكر إسم شركته أو جامعته قبل ذكر إسمه ..

اليابان جزيرة منعزلة عن العالم تماماً والمجتمع الياباني مغلق إغلاقاً محكماً ومحاط بطقوس كثيرة وشاقة، مما يجعل إنصهار أي أجنبي هناك أمراً في غاية الصعوبة.

والأجانب في اليابان مُقَسمون إلى :

* أجانب غير مُرحَّب بهم وهم الكوريون والصينيون والآسيويون.

* وأجانب الدرجة الأولى وهم الأمريكيون والأوروبيون. وكان الصنف الأول غير مرحب به لأنه يعيش في اليابان بصفة دائمة وله بنيته التحتية الخاصة به. كما أن علاقة اليابان بجيرانها مثقلة بجرائم اليابان في الحروب العالمية ورفض اليابان الإعتذار عن هذه المذابح لسنوات طويلة. أما الصنف الثاني والذي كان اليابانيون يحسبونني عليه فقد كان يعيش لفترة محدودة في اليابان ثم يُغادر إلى بلده..

وكان للأجانب المؤقتين معاملة خاصة، فلا يَنتظِر منهم أحد أن يُتقنوا اللغة اليابانية أو طقوس الأدب المعقّدة. وقد أعطاني ذلك قدراً من الحرية أن أتعرّف على الكثير من جوانب المجتمع الياباني وأخوض العديد من التجارب هناك دون أن أخاف من أن أقع في خطأ إجتماعي فادح..

أعجبني في اليابان في باديء الأمر أن كل واحد كان في حاله، فلا فضول ولا سؤال عن دين أو تاريخ ولا الخوض في نقاشات عميقة. وكان ذلك مهم بالنسبة لي لكي أعيد توازني من جديد.

ولكن المميزات الخاصة بالأجانب المؤقتين سقطت عني بمجرد أني بدأت في العمل في اليابان.. فعندما لاحظ اليابانيون إني أصبحتُ أُجيد اليابانية صاروا ينتظرون مني أن أستخدم مصطلحات الأدب. و

كنتُ قبل أن أعمل مدرساً قد وجدتُ عمل كـ "جارسون" في مظعم خمس نجوم. وكان عليَّ عندما أقدم الأكل للزبائن أن أقول عبارة تقليدية من باب الأدب ترجمتها الحرفية هي " معذرةً فأنا قليل الأدب!" وكنت أرفض أن أستخدم هذه العبارة وأكتفي فقط بـ "معذرة"

ولكن مدير المطعم أصرَّ على أن أستخدم العبارة فقررتُ ترك العمل ..

لاحظتُ أن حقوق المرأة في اليابان ليست أفضل حالاً من مصر، رغم أن اليابان بلد "ديموقراطي".كنتُ أجلس في القطار ورأيت رجلا يابانيا يصرخ في وجه أمرأة غريبة عنه لأنها كانت "تضع "الماكياج" في القطار وقال لها بفظاظة:

* "توقفي عن قلة الحياء هذه فوراً" فلملَمَت المرأة مساحيقها وقالت في تواضع وهي تنحني له:

* "معذرة يا سيدي لسوء سلوكي". ومن العجيب أن جار هذا الرجل بالمقعد المجاور كان يتصفح مجلة بها صور عارية تماماً لفتيات لم يبلغنَ السن القانوني بعد. ولكنه لم يُعنّفه على الإطلاق. فمعظم الرجال في القطار كانوا يفعلون نفس الشيء.

إنه أمر طبيعي جداً أن "تحصل المرأة على راتب أقل من الرجل حتى ولو كانت بنفس مؤهلاته وتؤدي نفس مهامه.. والمرأة في العمل تطهو الشاي لزملائها ولا ترفع صوتها ولا تُقاطعهم إذا تحدَّثوا. والقليل جداً من النساء يعملن فى الوظائف الهامة.

ومعظمهن ربّات بيوت أو يعملنَ كبائعات في المحلات حتى من حصلت منهن على الدكتوراة...

وكانت لي زميلة يابانية في الجامعة تعمل في إحدى المتاجر الكبرى، وكانت وظيفتها الوحيدة هي أن تقف طوال النهار في المصعد تنحني لكل زائر يستقلّه..

ووقعت حادثة غريبة في مدينة أوساكا أثناء وجودي هناك أثبتت لي أن المرأة في اليابان مهما كان منصبها فهي مواطن من الدرجة الثانية: كانت مسا بقة رياضة السومو "تُقام في أوساكا، وهي الرياضة التي يتصارع فيها رجلان في غاية السُمنة يكسب منهما مَن يطرح منافسه أرضاً أو مَن يدفع به خارج حلبة المصارعة.

وليس للاعب السومو وظيفة أو نشاط سوى الأكل والنوم حتى يصل لأكبر درجة ممكنة من السمنة.

ومن التقاليد المتوارثة لإتحاد رياضة السومو أن يُسلّم محافظ المدينة الجائزة للاعب الفائز. ولكن كان من التقاليد المتوارثة أيضاً ألّا "تطأ قدم إمرأة حلبة المصارعة، لأن دم المحيض يُدنس المكان ويجلب الارواح الشريرة. وكانت المشكلة تكمن في أن أوساكا قد إنتخبت للتو إمرأة كمحافظ..

فرفض إتحاد السومو السماح لها بالدخول للحلبة. طال الجدل حول هذه القضية حتى توصَّل أحد العقول الفذّة هناك لحل يُرضي جميع الأطراف:

* قررت اللجنة المنظّمة للمسابقة إستئجار "وِنش" صغير – أي رافعة- مثل ونيش المطافي ليحمل السيدة "النجسة" بطريقة تجعلها تصل للحلبة دون أن تطأ بأقدامها فوقها. وهكذا تمكّنت المحافظة من تسليم الجائزة وكان أتفه ما في اليابان هو التليفزيون.

فقد كانت برامجه مليئة بالألعاب الساذجة والفكاهة الرخيصة وصور لفتيات صغيرات يرتدين الـ"بيكيني" وكأَنَّ التلفزيون هناك قد أُخترِعَ لتسلية 130 مليون معتوه. ولكن لا يتسلى بالتلفزيون في اليابان سوى ربّات البيوت. فالرجال هناك يبحثون عن أنواع أخرى من التسلية : فهناك مشاهدة سبق الخيل ومباريات كرة "البيسبول" ولعبة قمار

إسمها "باتشينكو" بالإضافة إن التسلية السرية الليلية. فهناك في اليابان 2 مليون فتاة يعملنَ في الملاهي الليلية ونوادي الإستضافة وبيوت الدعارة. ويشير هذا الرقم الهائل من العاملات إلى الحاجة الملحة للترفيه عن الرجل الياباني بعد عناء يوم عمل طويل وذهاب الرجل إلى مثل هذه الأماكن أمر بديهي ومقبول للمرأة التي لا يُسمح لها أن تسأل زوجها أين كان. فهي تعلم أن هذا عشاء عمل

اليابان ليس لها دين معيّن.. والمال هو الإله الحقيقي هناك. والعمل هو أول الأولويات. فلو فقد أحد وظيفته يوصَم بالعار مما يؤدي في أغلب الحالات للإنتحار.. ولكن بعضهم أيضا ينتحر عملاً.. أي بموت من فرط العمل..

وتقديس العمل يلاقي إحتراماً كبيراً في اليابان ..

فقد كان هناك مدرب لفريق "البيسبول" في "اوساكا" وكان على فريقه أن يخوض المباراة النهائية في نفس اليوم الذي كانت زوجته ستخوض عملية جراحية خطيرة. ففضل المدرّب الذهاب إلى مباراة فريقه على الوقوف بجوار زوجته . ثم جاءه نبأ وفاة زوجته اثناء المباراة ولكنه لم يترك الملعب .

ووقف يحتفل مع فريقه بعد المباراة بالفوز بالكأس ولم يُلاحظ أحد أنه فقد زوجته ..للتَو.. إنهالت وسائل الإعلام على الرجل بالمديح حتى لدرجة التقديس ولم يُنتَقد شخص واحد تصرفه..

اليابان بلد مزدحم جداً ويتحرك فيه الناس بسرعة جنونية كالنحل الدؤوب. فلم أرَ هناك أبداً شخصاً يتسكّع .الكل يعمل وبكِد ثم يبحث في آخر النهار عن وسلية رخيصة..

والرجال اليابانيون يعشقون البنات الصغيرات ويدفعون الآلاف من أجل فض عذرية فتاة.. رأيت ذات مرة رجل ياباني "محترم" وهو يقف تحت سلّم متحرك في أحد المتاجر ويصور بعدسة كاميرا "الموبايل" فتيات المدارس وهُنَّ ينزلن من السُلَّم ليلتقط

ملابسهن الداخلية .. ورأيت أستاذي في الجامعة في "عشاء عمل" مع طلبة يابانيين وأجانب وهو يشرب الخمور بنهمٍ ..

وإدمان الخمور أمر مألوف جداً في اليابان ويُمثّل مشكلة حقيقية لا يتحدث عنها أحد .. وفجأةً بدأ الاستاذ في البكاء بدون سبب فراحت إحدى الطالبات اليابانيات تواسيه، فراح يُحسس على شعرها وظهرها أمام الجميع وهي لا تستطيع إيقافه. حتى عندما جرح شعورها بقوله لها :

* "لماذا لايزال ثدياك صغيران هكذا؟" لم تجرؤ الفتاة على أن تُطالبه بالكف عن "قلة الادب!

* "أي سلام إجتماعي هذا؟ رحتُ أسال نفسي، فالمجتمع كله مبني على مباديء العمل الشاق واالتنافسية الطاحنة والترفيه الرخيص. وإذا كان اليابانيون يخشون شيئاً فهم يخشون جارهم المجنون "كيم جون إل" في كوريا الشمالية الذي يهددهم من وقت لآخر بإلقاء الصواريخ عليهم. وهم أيضاً يخافون من الشيخوخة والعجز، فمجتمعهم هَرِم جداً وكثير من العجائز محبوسون في بيوت المسنين بقوم على خدمتهم "رجل آلي" يحملهم مرة كل يوم بذراعيه وبغطسهم في "بانيو" ساخن ثم ينتشلهم منه كشرائح البطاطس المحمّرة ثم يُنشفهم ويُعيدهم إلى السرير..

فلا يد حنونة تلمس ولا عين محبّة تبتسم.

وهذه نتيجة تقديس العمل أكثر من اللازم، فيصير مَن لاعمل له أو مَن هو غير قادر على العمل مُجرّد عقبة يجب التخلص منها..

كنتُ أعيش في بيت عائلة يابانية ولكني لم أخُض معهم في حوار واحد، وكنتُ عندما أنتقد جوانب معينة في المجتمع الياباني كانوا يبتسمون بحرج ولا يردّون.

كان رب الأسرة.يسهر في الملاهى بينما تكسر زوجته مللها بشرب الخمور طول النهار. وهذه ظاهرة معروفة في اليابان يُسمونها "سِكّيرات المطابخ".

ولكن الجميع يتغاضى عن مثل هذه الظواهر ولا يتعرض أحد لمناقشتها بصراحة. حتى زملائي في الجامعة كانوا لا يُجيدون النقاش.. وفجأة شعرت بأني أفتقد الالمان وصراحتهم..

كنتُ أفتقِد نقاشاً ساخناً يقول فيه كل واحد رأيه بصراحة ..

بدأتُ أتأكَّد أن مشكلتي ليست البلد الذي أعيش فيه وإنما "أنا" والحجر الأزلي في حذائي ولكن أعجبني إحترام اليابانين لكل دين..

كل الديانات مسموحة وكلٌّ لهُ الحق في بناء مسجده أو معبده أو كنيسته. ربما كان ذلك نابعاً من تسامح اليابانيين أو من عدم مُبالاتهم بالآخرين. ولكنه شيء مُدهش أن ترى المعبد "البوذي" بجوار المعبد "الشنتوي" بجوار الكنيسة..

واليابانيون يخلطون بين الطقوس المختلفة للأديان المختلفة. فالمولود الجديد أو السيارة الجديدة يُباركها راهب المعبد "الشنتوي" الذى يؤمن بألوهية الأجداد والطبيعة..

وإذا تزوج الياباني فإنه يعقد قرانه غالباً في الكنيسة الكاثوليكية حتى لو لم يكُن مسيحياً، وكان ذلك دليل على المدنية والاقتراب من الأوروبيين والأمريكان..

أما الموت فهو في يد بوذية، يجرى طقوسه المعقّدة الراهب البوذي. ولا شيء فى اليابان أغلى من الموت، فطقوس الحرق غالية وطقوس الدفن أغلى ومكان الدفن أغلى وأغلى.

فاليابانيون يحرقون جثث موتاهم ولكنهم لا ينثرونها في الهواء مثل الهندوس. وهناك دين آخر له أثرهُ فى اليابان وهو تعاليم الحكيم "كونفوشيوس" الذي يُسميه اليابانيون "كوشي" المبنية على التسامح والوئام بين البشر والطبيعة واحترام المسنين..

وفي الواقع فإن تعاليم كونفوشيوس لا تُعتبر ديناً بالمعنى المألوف فهو لا يتحدث عن إله أو سماوات. واليابانيون لا يُقدّسون "كونفوشيوس" ولا يعتبرونه نبياً..

وأهم الفضائل عند كوشي هي الحب (جن) والحِشمة (لي)، وهو صاحب الحكمة المشهورة: "أحب لغيرك ما تحب لنفسك"

ربما لاحظتم انني أتحدث طول الوقت عن اليابان ولم أتحدث عن نفسي أو عن حياتي بها. فلم تكن حياتي هناك إلّا مجرّد هروب. حاولت إرساء غطاء خرساني فوق روحي المتألمة كما فعل السوفيت فوق مفاعل "تشرنوبل" بعد إنفجاره. كنت أُحاول أن أُقنِع نفسي أنني قد وُلِدتُ من جديد..

حاولتُ أن أُجرّب كل شيء بدون أدنى إعتبار لدين أو ضمير. كنتُ أُريد أن أستمتع بالحياة في اليابان وان أستجم من عناء السنوات الماضية.

كنت أُصادِق اليابانيات والأجنبيات الجميلات لفترة بسيطة ثم أقطع علاقتي بهن بدون سابق إنذار.

ولكن اليابانيات يختلفنَ عن الأوروبيات فهنَّ عندما يدخلن في علاقة – حتى ولو كانت قصيرة – يُلقون بكل ثقلهم فيها، ويقعون في غرام الشخص بعمق. وقد جرحت مشاعر الكثيرات منهن.

كنت أستغل الفتيات الطيبات كمنديل ورقي أمسح به عرقي أو دموعي ثم أرميه فى أقرب سَلة مُهمَلات.. فأنا رجل من بلد الرجال يعيش في عالم يحكمه ويكتب تاريخه ويخوض حروبه الرجال ..

كنت اترك النساء بسرعة، ربما لأننى كنت أخشى ان يبادروا هم بتركى إذا علموا بخيغتى. او ربما.يصعب عدى الوقوع فى غرام إمراة لأننى كتت أعرف اننى ساقارن حبها لى بحب أمى لأبى، فتخسر اى إمرأة اقارنها بامى.. كنت غير قادر على الحب أو الإيمان بدوام المحبة بين البشر. كنت أظن أبي وأمي إستثنائين لم أجد لهما مثيلاً كنت أُفضّل العلاقات المفتوحة..

وكانت لي علاقه مفتوحة مع إحدى تلميذاتى في المدرسة الخاصة التي كنت أدرّس فيها الإنجليزية والألمانية، وكانت تلميذتي تعمل مغنية في ملهى ليلي.
ودعتني مرة لحضور إحدى حفلاتها هناك فذهبت معها وتعرفت على صاحب الملهى، فراح ينظر إلى بغرابة وهويقول:
* "انت شاب وسيم.. ملامحك لاتينية وشعرك إسود ومموَّج.. رائع.. رائع.. هل أنت قادر على التدخين وشرب الكحول بكثرة؟" لم أفهم أي شيء مما قال أولا وكنت اظنه شاذاً، ولكنه شرح لي الأمر، فقد كان يملك أيضاً ملهىً ليلياً خاص بالنساء فقط، تأتي إليه النساء الثريات ليرفهن عن أنفسهن مع الشباب الصغير خلال رحلات عمل يقوم بها أزواجهن .. فقال لي صاحب الملهى ان النساء اليابانيات يعشقنَ الأجانب من عيّنَتي..
وأنه مستعد أن يدفع لي 400 دولار أمريكى في الليلة لو قبلت العمل بملهاه. لم أفكر كثيراً وقبلت العرض، ليس فقط بسبب الإغراء المالق، ولكن لأنني كنت أريد أن أخوض تجربة جديدة... وقد كانت حياتي كلها تحولت منذ زمن ألى مجرد "تجربة معملية"... وحياتي كانت بالفعل مليئة بالعار فلا مانع من عار جديد مدفوع الثمن.
كان على فقط أن أشرب الويسكي والبراندي وأُدخّن السجائر مع اليابانيات الشاعرات بالملل في حياتهن وأُقدّم لهن بعض المجاملات، فقد كُنَّ فقط بحاجة لمن ينصت إليهن. وكانت النساء – على عكس الرجال – يفعلن ذلك في الخفاء. فلو عرف زوج إحداهن بذلك كان يحق له تطليقها وحرمانها من كل حقوقها المشروعة..
وقد كان يعمل معنا في الملهى شاب إسترالي وقعت إحدى اليابانيات في غرامه فتركت زوجها من أجله، فإستاجر زوجها "فتوة" من عصابات"الياكوزا". المشهورة وسلطه على الشاب الأسترالي حتى أجبره على مغادرة اليابان .
بدين أو بدون الدين، الرجال دائما قادرون على تضييق الخناق على زوجاتهم

وحرمانهم مما يُحلّونه لأنفسهم ..

تعرفت في عملي على كثير من إلنساء. ولم تكن كلهن كبيرات العمر بل كان بين زبائني أيضا بنات مدارس من عائلات غنية، بل وعاهرات أيضا كن يرغبن في تغيير الادوار ولعب دور "الزبون وكانت معظم النساء بالفعل لا ترغب إلّا في الحديث للتنفيس عن الكبت والملل، ولكن إحدى زبائني دعتني ذات مرة إلى العشاء في مطعم بأحد فنادق المدينة إلفاخرة.. وكانت هذه شفرة معروفة : إذا كان المطعم في فندق يعني "الليل وآخره!" قالت لي :

* "أريد أن أتناول معك العشاء ثم نستريح قليلاً بغرفة في الفندق لكي لا ندع مجالاً لسوء الفهم. ثم قالت:

* "عندى لك هدية رائعة!" فقبلتُ دعوتها، فقد كانت لا "تزال صغيرة وكانت على قدر لا بأس به من الجمال. قادتني بسيارتها إلى الفندق وعندما وقفت معها أمام الفندق تحجرت قدماي فجاة ولم أقوَ على مواصلة الذهاب معها

* "انا آسف جداً ، أنا لا أستطيع أن أفعل ذلك ".. قلتها بحرقة .

شعرت المرأة بالخزي ولكنها فهمت موقفي وقادتني بعدها لمنزلي .. إتصلت في اليوم التالي بصاحب الملهى وقلت له أني ساترك العمل لالتفت لدراستي. وتنازلت بذلك عن مكسب كان بحلم به أي شاب.

ولكن ما سر هذا "الشرف" المفاجيء؟ وما الفرق بين عار وعار آخر؟ ألم أمارس الجنس مع خا دمة فى الفندق التايواني منذ شهور مقابل المال ؟ ألم أُضاجع العاهرات والسا قطات من قبل ؟ فما ذا حدث؟

رائحة الحب الأول

مضت سنة لي في اليابان وكنتُ لا أزال لا أدري ماذا أفعل هناك بالضبط وماذا أنوي للمستقبل. ولكنني كنت أبحثُ من وقت لآخر عن نشاط يُلهيني. شاركتُ في مؤتمر دولي عُقِد في مدينة "كيوتو" العريقة والتي كانت عاصمة اليابان قبل "طوكيو".
دار المؤتمر حول "دور الشباب في زمن العولمة". وكانت تتناقش فيه نُخبة من العلماء وصانعب السياسا ت والمفكرين مع 30 طالب وطا لبة من 30 دولة مختلفة.
وقد ذهبتُ إلى المؤتمر ممثلاً لبلدين، فقد كُتِبَ على صدري "مصر/ألمانيا".
إنتهى اليوم الأول بعد مناقشات ساخنة. نظَّم الطلاب في مساء اليوم الأول حفلة رقمى بإحدى قاعات الفندق الذي كُنّا نُقيم فيه. وكنت أرقمى مع طالبة إسرائيلية تعرّفت عليها،
وأعجبني أنها كانت تنتمى لجماعة "جويش شالوم" أو "السلام ألآن" وأنها "شاركت في إسرائيل في مظاهرات إحتجاج ضد المستعمرات. كانت جميلة وكان لها طابع شرقي وكانت ترقص معي علىأنغام موسيقى تركية رقصاً شرقياً "فشر سهير زكي" كنت امسك أثناء الرقص بزجاجة نبيذ أحمر وأشرب من فوهتها كأنني مسطول مُحترف.
كانت الإسرائيلية ترقص بإغراء وصعد الخمر في نفوخى وكانت كل الدلائل تُشير إلى أن هذه الليلة ستكون طويلة وأن مفاوضات السلام لن تكون شاقة جداً فيها..
وأصبح واضحاً من نظراتها وإيماءاتها أنها تود عقد معاهدة سلام من نوع خاص في نهاية المطاف وفجاة دخلت القاعة الطالبة التى "تُمثّل اليابان في المؤتمر.
وكانت أجمل إمراة رأيتها في اليابان بل وفي العالم كله..

كانت طويلة.. أنيقة ذات شعر أسود طويل جداً وعيون واسعة لم أرَ مثلها في اليابان من قبل وبشرة بيضاء تختلف عن البشرة الآسيوية.

دخلت القاعة بثقة وراحت "تتمختر" في فستانها الأزرق الغالي وجلست على كرسي بأحد أركان القاعة. كنت أتذكر أنها كانت الوحيدة التي طلبت مثلي غذاء نباتياً هذا الصباح وكانت مثلي أيضاً تمثّل دولتين.

ولكني نسيت الدولة الأخرى. حاولت مواصلة الرقص حتى لا تلاحظ الإسرائيلية أن إهتمامي قد تحوَّل تماماً. لكنني لاحظت أن اليابانية الجميلة كانت تنظر إليَّ طول الوقت.

حاولتُ تجاهل ذلك وبدأت في الرقص بطريقة "هستيرية" كي أطرد الإضطراب الذي بدأتُ أشعر به. نظرتُ إلى فاتنة الشرق مرةً أخرى خلسةً فوجدتها لا زالت "تنظر إليَّ بعين حنونة مُبتسمة وكأنها كانت تريد أن تقول لي :

* "إهدأ قليلاً . توقفتُ عن الرقص وقادتني قدماي بطريقة غير إراديه إليها. فوقفتُ أمامها لا أدري ماذا أقول. لاحظتُ أن كوبها قد فرغ من عصير البرتقال الذي كانت تشربه فصببتُ لها من خمري في كأسها ولكنها ٠٠ ردَّت بحنان:

* "آسفة.. أنا لا أشرب الخمور". جاء هذا الرد قاسياً جداً على نفسي، ولكني لم أدرِ لماذا نظرت إليَّ بابتسامة ساحرة وسألتني :

* "هل انت مسلم؟"

شعرتُ بزلزال داخلي عندما سمعتُ هذا السؤال.فقد كنتُ أتوقع أي شيء منها إلّا هذا السؤال في هذا المكان. لم يكُن الوقت المناسب على الإطلاق.. إذ كانت قنينة الخمر يدي وإسرائيلية جميلة فئ حلفة الرقص ٠ننتظر السلام العادل الشامل في آخر الليل. خيَّم عليَّ الصمت تماماً ولم أجد رداً لها ولا لنفسي.

رحتُ فقط أنظر لعينيها الجميلتين وجبينها الذي ينُم عن شخصية شجاعة وشفاهها الخمرية التي توحى بأنها إنسانة عنيدة وحساسة في نفس الوقت ..

* "هل أنا مسلم؟' طرحتُ السؤال على نفسي بداخلي.

* "مَن أنا؟ أنا لا اعرف من أنا. أعرف فقط مَن لستُ أكون. أستطيع أن أقول أنني لستُ يابانيا، لستُ أمريكياً.

ولكنني حتى لا أستطيع القول أنى لستُ المانيا"..قلت لنفسي دون أن أفتح فمي.

لاحظَتْ الجميلة صمتي وإرتباكي فقالت أنا آسفه جداً إذا كنتُ قد سببتُ لكَ أي إحراج بسؤالي.

فقد ذهبتُ في العام إلماضي في رحلة مع جدتي إلى" ماليزيا" ودخلتُ هناك إلى أحد المساجد فشعرت بداخله براحة نفسية لم أعهدها من قبل. وإشتريت ترجمة للقرآن ورحتُ أقرأ فيها.. أعجبنى أن الله في الاسلام لست له صورة ولا ولد ولا صَنم، وأن كل الناس سواسية أمامه ..

وأن المسلم يستطيع أن يُصلّي لله مباشرةً دون وساطة قسيس أو قدّيس ولكن لا يزال عندي الكثير من الأسئلة التي لا يُجيبها القرآن .. ولم أُقابل منذ عودتي شخص مسلم واحد أطرح عليه هذه الأسئلة. وقد قرأت إسمك على صدرك هذا الصباح وإستنبطتُ منه أنكَ مسلم" كان صوتها عذب جداً ولغتُها مؤدّبة للغاية..

* "صوت الموسيقى عالٍ جداً هنا. دعينا نذهب لمكان آخر كي نتكلّم بدون إزعاج" قلتُ لها لكي أكسب بعض الوقت أُرتّب فيه أفكاري . خرجنا من القاعة والإسرائيلية تنظر إلينا وهي لا تُصدق ما ترى . جلسنا فى بهو الفندق وكنت لا أزال لا أجد ما أقوله .

* "ما اسمك؟" سألتها لكي أغيّر الموضوع بعض الشيء.

* "إسمي كونستانس" قالت بابتسام فاصبح من الواضح لي أنها ليست يابانية فحسب "-

* "من أين يأتي هذا الأسم الأوروبي؟" سألتُها بفضول..

* "أبي دانماركي وأمي يابانية" جاءت إجابتها تفسيراً لعيونها الواسعة وبشرتُها البيضاء النقية، وقد جمع جمالها أجمل ما في الشرق وما في الغرب. وكانت نظراتُها نابعة من شخص ينتمي إلى عالمين.

حكت لي أن جدتها الدانماركية نصف بولندية، وأنها نشات في عائلة تختلط فيها البوذية بالكاثوليكية بالبرونستانتية . كانت "كونستانس" تتكلم بجوار اليابانية والدانماركية والسويدية الإنجليزية والفرنسية وا لكورية، وقد بدأت في التو في تعلّم الروسية والعربية..

* "مرحباً بك في نادي الهويات المركّبة!" قلتُ لها بإبتسام. يبدو أن أصحاب الهويات المعقدة لديهم جاذبية أكثر لعالم الروحانيات، وكأنهم يهربون من الإنشطار إلى الكمال ..

لم أحكِ لـ "كونستانس" شيئاً عن الإسلام التقليدى وعقيدتة ولكني حكيت لها الكثير عن عالم الصوفية وفلسفتة. وقلت لها أن هذا هو أكثر جانب يعجبني في الإسلام..

كانت سعيدة جداً بما حكيت لها وقالت لي أنها تشعر أنها غريبة فيكل مكان. فإذا ذهبت إلى الدانمارك لا يراها الدانماركيون كواحدة منهم لأن ملأمحها الآسيوية واضحة وإذا عادت إلى اليابان لايصدق اليابانيون أنها يابانية، فهي تختلف عنهم من حيث الشكل والشخصية وإسلوب الكلام.

قالت أنها لاقت صعوبات كبيرة عندما عادت مع عائلتها لأول مرة من الدانمارك التي وُلِدَت ونشأت فيها وإستفرت في اليابان في عمر الثانية عشر.

فقد عانت في تعلم اللغة والتعوّد على إسلوب الحياة والتفكير ا لمُختلفَيْن عن أوروبا تماماً. قالت أنها كانت تبكي في المدرسة عندما كان يقول عليها زملائها الطلاب "أجنبية".وقالت أنه صعب جداً أن يكون لك وطنان وفي الوقت نفسة تكون بلا وطن.

أحسستُ بتقارب شديد بين قضيَّتي وقضيتها، وكانت هي أيضاً تشعر بذلك بفطرتها رغم إني لم أحكِ لها أي شيء عن نفسي. أحسستُ أني أريد أن أبقى معها طول الوقت..

كونستانس.. أُريد أن أطلب منكِ طلباً، ولكن برجاء ألّا تُسيئي فهمي:

* "هل ممكن أن تقضي هذه الليلة معي؟" ..

هزَّت رأسها حالاً بالأيجاب وهي تبتسم إبتسامة تنم على إنها فهمت أن نواياي غير سيئة.. ويبدو أنها كانت لديها نفس الرغبة أيضاً. ذهبتُ معها إلى غرفتي والقيتُ بنفسي على السرير. فإرتمت بجواري ورحنا ننظر لبعضنا بعمق..

لم نَقُل أي شيء بعد ذلك في هذه الليلة ولم نفعل شيئا. راح كلٌ مِنّا يغوص في عيون الآخر ويقرأ فيها ما لم تَقُلهُ الكلمات حتى غفت عينانا ورحنا في نومٍ عميق.

كانت كونستانس أول إمراة تنام في سريري دون أن المسها.

فقد كان إحترامي لها يفوق كل شيء وكانت مشاعرء تجاهها أقوى من أية رغبة جسدية وفي اليوم التالي كنا نستغل كل دقيقة فراغ ونقضيها مع بعضنا.

بدأ الطلاب الآخرون يهمسون ويلمزون ولكننا لم نكترث بذلك. وبعد يومين إنتهى المؤتمر وعُدتُ أنا إلى"أوساكا" بينما بقت " كونستانس" في "كيوتو" التي كانت تعيش فيها وتدرس بجامعتها اللغات الأجنبية.

ولكنا كنا نتزاور كثيراً. كانت تنام في سريري دون أن أمسها، وكنتُ أنام في سريرها كطفل عاد إلى ذراع أمه بعد ضياع سنين ..

ذهبت كونستانس معي في جولة بمدينة "كيوتو" وراحت تشرح لي معالمها التاريخية. فكيوتو مدينة الحدائق والمعابد ولا يزا ل عرش اليابان موجوداً بها رغم إنتقال العاصمة لطوكيو. وكيوتو هي مدينة " الجيشا" والـ"دايو" وهُنَّ عاهرات مُقدّسات في اليابان. فحتى الدعارة في اليابان مقسمة إلى طبقات ودرجات أعلاها هي "الدايو" وقد كانت عاهرة خاصة فقط بالإمبراطور وحاشيتة و"الجيشا" كانت راقصات غاليات الثمن لا يقدر على زيارتهن سوى"الساموراي" أو أثرى الأثرياء. والـ"مايكو" وهن تلميذات الجيشا . وكانت عذرية "المايكو " تُشترى بمبلغ يكفي لشراء قصر. أما الـ "أويران" فهن عاهرات تقليديات للطبقة المتوسطة .. ثم تأتي العاهرات العصريات وبنات الشوارع في آخر القائمة ..

أصبحت أرى اليابان بعيون جديدة منذ أن التقيت بـ"كونستانس". كانت هي نظارتي ومرئاتي، وعندما دخلتُ شقّتها لأول مرة رأيت صورتين مُعلّقتين بجوار بعضهما لا يمكن أن أراهما معاً في أي مكان آخر في العالم: صورة الكعبة بجوارها لوحة زيتية رسمتها كونستانس بنفسها لرجل بلا وجه يعانق إمراة عارية من الخلف. أحسستُ أن ما يجمعني بهذه المرأة الجميلة أكثر بكثير من الهوية المزدوجة..

ذهبتُ مع كونستانس لمعبد "شيمو جامو" ووقفنا بمواجهة قدس الأقداس. كان يُعجبني في كوستانس أنها كانت قادرة على الصلاة في كل مكان ببساطة الطفل وإيمانة الفطري ..

القت كونستانس ببعض النقود في صندوق التبرعات وصفقت بيديها ودقت الجرس الكبير المعلّق أمام قدس الأقداس لكي "نوقظ الآلهة من نومها . ثم راحت تهمس بأمنياتها وصلاتها. ثم ذهبنا إلى ركن آخر في المعبد لقراءة الطالع. جذب كل منّا ورقة من صندوق الحظ. جاء في ورقة حظي :

* "العمل: إذا بذلتَ جهداً أكثر ستجني ثماراً أكثر. العائلة : لا تغيير. الحب: كُن متواضعاً!. المستقبل: سيصبح كل شيء على ما يُرام" ...ضحكتُ بسخرية ثم سالت كونستانس عن حظها المكتوب في ورقتها فقالت :

* "!اسوء حظ"...

* "أخبريني عن المكتوب فية!" سألتها..

* "لا أستطيع ذلك. فلو فعلت لتحققت النبوءة. سأذهب الى هذه الشجرة وأُعلّق الورقة هناك وستعالج الشجرة قدري".

ذهبنا بعد ذلك إلى خيمة بقاع المعبد فخلعنا أحذيتنا ودخلنا في خندق قادنا إلى نهر صغير غير عميق فأمسكت كونستانس بيدي وقادتني إلى النهر بعد أن كشفنا عن ساقينا. شعرت برجفة في جسدي عندما لمست مياة النهر بقدمي، وتذكرتُ حلمي القديم بأن أخوض مرة في نهر النيل. وبعدما عبرنا النهر ذهبنا إلى صخرة عليها شمعات بيضاء ..

أخذت كونستانس منها إثنتين وأوقدتهما وأعطتني واحدة. ثم عُدنا إلى النهر من جديد وقالت لي:

* "!حذارِ أن ينطفيء ضوء الشمعة منك قبل أن "تصل إلى المنصّة"-

* "لماذا ؟-

* "لو حدث ذلك فسينطفيء نور حياتك"-

* "وما معنى ذلك؟"-

* "لا تكُن مُلِحّاً في أسئلتك مثل الألمان!" قالت فاتِنَتي بإبتسام.

وصلنا الى الجانب الآخر من النهر وثبّتنا الشمعتين في أماكنها على المنصّة، ثم ذهبنا إلى نافورة صغيرة طبيعية تدفقت منها مياة يُطلقون عليها"ماء الله" قالت كونستانس

* "لقد طهّرنا جسدنا من الخارج عندما خضنا في مياة النهر والآن سنُطهِّرها من الداخل عندما نشرب ماء الله فتسفط عنا كل الذنوب"..

رحتُ أُفكّر في كل ذنوبي.. هل تكفت حفنة لم من الماء لغسلها؟

وقفنا في طابور طويل إصطف فيه اليابانيون للشرب من "ماء الله" وكان بعضهم يملأ زجاجة بعد أن بشرب ليأخذها معه للبيت .. ربما لتطهير الذنوب القادمة .

كان ذلك يُذكرني بماء "زمزم".

وكان اليابانيون يشربون من النافورة ثم يغسلون أيديهم ووجوههم وكأنهم يتوضأون .

.يبدو أن الطقوس الدينية في كل العالم متشابهة.. فللبشر جمبعاً نفس الأحلام ونفس المخاوف.. وكلهم يشعرون بالوحدة والعجز كنتُ أتعلم الكثير عن المدينة من صديقتي الجديدة وكنتُ أحصل على ختم من كل معبد أدخلة وكاد "جواز السفر" يمتليء بالأختام، وهذا يعني أن رحلة سلامي الداخلي أوشكت على نهايتها.

إنتهت الفترة المحددة لدراستي في اليابان، فقررتُ مغادرة البلد. سألتني كونستانس:

* "لماذا لا أُقدِّم طلباً للجامعة لتمديد فترة الدراسة!"، فقلتُ لها :

* كلّما خُيّرتُ بين البقاء والذهاب فإنني دائماً أختار الذهاب..

قضيتُ مع كونستانس أربعين بوماً كانت أسعد وأهدأ أيام حياتى. ولكن سعادتي لم "تدُم طويلا. فقد كان يطاردنى هروب بعد هروب.. هروب من هروب..

قررت العودة لألمانيا وحجزت تذاكر السفر.

ذهبتُ لزيارة كيوتو في آخر يوم لي في اليابان. ولكنني لم أقوَ على زيارة كونستا نس أو حتى الإتصال بها.

ذهبتُ وحدي إلى معبد "الماء الطا هر" فوق إحدى هضاب المداينة، وهو مكان لم أذهب إليه مع كونستانس من قبل .

لم يعُد هناك مكان خالي في جواز سفر المعابد لكي أتلقّى ختم جديد. كان المنظر من فوق الهضبة جميلاً.. رأيتُ منه الجبال المحيطة بـ" كيوتو"وبعض مناطق المدينة. وكانت "باجودة" المعبد هي أقدم برح في اليابان..

وكان بجوار المعبد خشبة مسرح "النو" التقليدى التي بُنيَت من الخشب الخالص دون مسمار واحد بطريقة فنية معقدة.. وكان المسرح على حافة الهضبة مباشرة. وقد كان هذا المسرح مكاناً مُحبباً للإنتحار في اليابان. وكانت الأسطورة تقول إن من يسقط من هذا المكان دون أن يموت فسوف تُحَل مشاكله..

ومَن يُلاقِ الموت بعد القفز سيذهب إلى جنة الخلود.. أي أنه شيء مثل الجهاد في سبيل الله ..

* "سأقفز من أجلك من فوق مسرح الماء الطاهر" يقول الياباني عندما يُريد أن يُبدي إخلاصه وتمسكة بأحد. لم أستطع أن أقول مثل هذه الجملة لأحد في حياتي، حتى للمرأة الوحيدة التي أَحبَّها قلبي وشعرتُ معها أني في وطني، والتي قالت لي ذات مرة أنها ستدخل للجحيم إذا طلبتُ منها ذلك ..كانت تُعجبني فكرة "الإختفاء" فى فلسفة "الزن" البوذية : الرجوع الى العدم.. "بقاء.. فناء.. توكل"..

"توكل.. فناء.... فناء". السقوط الى الوراء.. السقوط الى العالم من جديد..

القيت بجواز سفر المعابد من فوق الهضبة وذهبت.

غادرت اليابان دون أن أودع "كونستانس" ودون أن أشرح لها تصرفي.. وكان الإستنتاج الذي خرجتُ به من إقامتي في اليابان هو أن واحة السلام التام لا توجد على ظهر الأرض ، وأني غير قادر على إصلاح نفسي المتعفنة..

رحتُ أُراقب من الطائرة ألمانيا الخضراء من جديد.. لم يعُد هذا اللون.يُخيفني.

لم يعُد شيء يهددني ولا يمكن أن يُحزنني شيء أكثر مما أنا حزين.

أحسستُ بالقرف والغثيان من نفسي..أحسست أني أستحق أي شيء إلّا السعادة.
لا أستحق إلّا حياة الغجري الرَحّال إلى الأبد.
لم أكن ولن أكون سوى ريشة تعبث بها الرياح في يوم عاصف.. ولكنني ليس لديَّ توكل الصوفي كي أتأرجح في الريح بإيمان.. .

ألمانيا .. قَدَري

رجعت إلى المانيا وحاولت إبتلاع آلامي. واصلتُ دراستي من جديد وبدأت العمل في مكتب رعاية الطلاب الأجانب بالجامعة. كان رئيسي في العمل إمرأة.. لأول مرة في حياتي. كانت إمرأتي عظيمة ومُحترمة وكانت تُحارب في عالم مليء بالرجال.
كانت تبذل أقصى مجهود كي تُحسِّن وضع الطلاب الأجانب في الجامعة.
كانت وظيفتي هي تنظيم الندوات التي تجمع الطلاب الأجانب والألمان. سكنت في بيت أحد الأساتذة في الجامعة مؤقتاً، وقد كان أستاذ علم نفس من أصل سوري.
كان يعيش حياة غربية ويفكّر بمنطق غربي ولكنه في الوقت نفسه كان مؤمناً بالله ويُصلّي بإنتظام.. أدهشني هذا الخليط العقلاني الإيماني.
ولكني عرفتُ فيما بعد أنه كان لا يقرب المسجد حتى عمر الستين. فيبدو أن كبر سنه وقربه من الموت هما اللذان جعلاه يُغازل الله من جديد..
إستأجرت بعدها غرفة في بيت طبيبتي"جيزيلا" ورأيتُ لأول مرّة عائلة ألمانية من الداخل. ولكن عائلة "جيزيلا" لم تكُن مثل كل العائلات. فقد كان منزلاً تملؤهُ بالحركة والحياة على عكس معظم البيوت الألمانية.
كانت جيزيلا أماً رائعة. كانت برغم إنشغالها بحياتها الخاصة وندوات "ماهاراجي" لا تزال تجد الوقت لتطبخ لأبنائها بنفسها وتُخيط لهم ملابسهم. وفوق كل ذلك كانت تذهب مرتين كل عام إلى مدينة "تشرنوبل" في أوكرانيا وتأخد معها المعونات والملابس للأطفال اليتامى والمشوَّهين.
كما كانت تدعو بعض طلاب المدارس الثانوية في أوكرانيا للبقاء في بيتها لمدة شهر وكانت تتحمل كل نفقاتهم بنفسها. كان زوجها "سيجفريد" بحيرة هدوء عميقة.

كان لا يمكن أن يُثير غضبه أي شيء. كان يجن فى ورشتة بالمنزل بالساعات في صمت وهو يصنع الحُلي والمجوهرات من الاحجار الكريمة الغالية التي كان يستوردها من الهند.

كنتُ أتسامر والعب كثيراً مع الطفلة "صوفيا" التي كانت حاضرة البديهة وجميلة الصوت. كانت يلعب على "البيانو" وتُغنّي لي بصوتها العذب. كان "رالف" يبلغ من العمر 16 سنة وكان يعشق "البانجو" والبنات. كان يغيّر صديقتة كل أسبوع تقريبا وكان أحياناً يجمع بين الصديقتين. وكان يزرع نباتات مخدرة يمنعها القانون الألمانى في غرفتة. وقد جاءت الشرطة مرة ليفتيش المنزل.. فكانت كل العائلة مشغولة بتهريب قصريات النباتات المخدرة من الشبابيك لبعضهم قبل أن يدخل رجال الشرطه للغرفة..

راح الجميع يضحكون بعدما ذهبت الشرطه ولم يلُم أحد أرالف" على إحتفاظة بالمخدرات..

وكا ن إبنهم " ديفيد" ذكي وطموح وكان يبلغ من العمر 11 سنة. وكان له مزاحاً سخيفا أحياناً. سألني مرّة :

* "ما هو دينك؟".

* "أي الديانات تعرف؟"

* " ....المسيحية واليهودية و"-

*: "هل تعرف أنني في مثل سنَّك كنتُ أبحث عن الله، أيها المعتوه؟" قلتُ له بمزاح وواصلت سؤاله":

* "هل لديك زملاء أتراك في المدرسة؟"

* "هل تعرف ما دينهم؟".

* "لست أعرف.. ربما دين "الشاورما" أو شيء كهذا؟"

وكانت الأخت الكبرى "هايدي" قد هربت من منزل الأسرة في عمر 17 سنة وذهبت إلى المكسيك وعادت بعد أربعة أعوام بزوج وطفلتين، فسكت الجميع في البيت الكبير. أما الأخ الأكبر "أنجلو" فقد ترك المنزل عندما إكتشف أن "سيجفريد" ليس أباه الحقيقي. أما الطفل السادس فقد كان شاحباً ومُملاً للغاية،ولا عجب أني قد نسيت إسمه بدأت كونستانس في الإتصال بي عبر الإنترنت وراحت تسأل عن صحتي وأحوالي. ولكنها أبداً ما وجَّهت لي اللوم على ما فعلتُ.

وكانت "تتصل بي هاتفياً عند بيت جيزيلا حتى طلبت منها أن تكف عن ذلك. وبعد فترة شعرتُ بالتعب من البيت الممتليء دائماً ونهبتُ الى أحد بيوت الطلبة. وكان هذا المكان أفضل الأماكن لصيد البنات ولكنني داومت صومي وعزفت عن بنات حواء.

وبرغم وحدتي وعُزلتي فإنني لم اقوَ على فتح ذاكرتي ومواجهة نفسي بقصة حياتي. راحت آلامي الروحية المدفونة تحت طبقات خرسانية عديدة بداخلي تُكشر عن أنيابها وترسل لي الإشارات من خلال آلام الكلى والظهر والقرحة المزمنة ..

إسطنبول

كنتُ أزور بيت "**جيزيلا**" في كل عطلة نهاية الأسبوع. وذات مرة إتصلت بي كونستانس وأنا هناك بالصدفة، ولم تكن تعلم أني غادرت المنزل. قالت لي أنها تود زيارتي في ألمانيا. ولكني قلتُ لها إني أعتقد أن هذه فكرة غير جيدة.

قالت أن أمها قد منحتها رحلة سياحية إلى إسطنبول كهدية عيد ميلادها. وكانت ترغب أن تأتي بعد تلك لألمانيا لزيارتي .

فأقترحتُ عليها أن أذهب أنا إلى إسطنبول لرؤيتها هناك. فقد كنتُ أرغب في لقائها على أرض محايدة،كي أهرب إذا إستدعى الأمر وقتما أشاء . وسافرتُ الى إسطنبول وإحتفلتُ معها بعيد ميلادها هناك ولكنني كنتُ أحتفظ بمسافة بُعْد بيني وبينها.

لاحظت كونستانس تَحَفّظي فلم تُحاول الإقتراب مني.

كنتُ أسكُن في فندق آخر وكنتُ أذهب إليها كل صباح وأصطحبها للمدينة.

ذهبتُ معها الى مسجد السلطان أحمد ومسجد السليمانية. وكانت أول مرة أدخل فيها مسجد منذ سنوات. كُنّا نقف ذات مره على كوبري "جالاتا" الذي يربط آسيا بأوربا ..فحكت لي كونستانس أن إسمها يعني "إسطنبول" قالت إن أباها الدانماركي وأمها اليابانية كانا يبحثان لها عن إسم يربط آسيا بأوروبا فإختاروا "كونستانس" وهو يرمز إلى "كونستانتينوبل" أو "القسطنطينية" بالعربية. وقالت إنها كانت تحلم بالمجيء لإسطنبول والوقوف على هذا الكوبري منذ طفولتها وانها سعيدة بأنها تقف عليه الآن معي أنا بالذات .

ثم ذهبنا بعدها لمقهى " بيير لوتي" وهو مبني فوق أعلى قمة في" إسطنبول" وشاهدنا من هناك الميناء والمآذن وأبراج الكنائس وإستمتعنا بشاي التفاح الذي يشتهر به هذا

المقهى . وزرنا مقبرة الصحابي"أبو أيوب الأنصاري"المدفون في مسجد صغير عند أطراف المدينة . إرتدت كونستانس الحجاب ودخلَت إلى ضريح الأنصاري وراحت تبكي عند ما رأت الزوار يَلمسون الضريح ويبكون .

ولكنني كنتُ أقف في المكان مثل سائح عادي.. وهكذا شعرتُ عند دخول أي مسجد هناك. ثم أخذنا "تاكسي" لوسط المدينة من جديد وكان سائق التاكسي ظريفاً جداً، وقد أعجبهُ إرتداء كونستانس للحجاب وقال لها:

* "موسلِمان تشك جوزل" أي "المسلمون هم الأفضل!" ثم بدأ السائق في الكلام بلغة إنجليزية ضعيفة وشرح لنا مفهومه للإيمان :

* " عمري الآن 40 سنه، أُريد أن أستمتع بالحياة وأشرب الخمور لبعض الوقت. وعندما أصبح في الخامسة والخمسين أو الستين أُريد أن أذهب إلى مكَّة وأحج وأغسل ذنوبي، ثم أعود وأصبح إنسانا صالحاً قبل أن أُلاقي الله" ..

في الواقع كانت إستراتيجية السائق الإيمانية إستراتيجية جميلة ومنطقية. وكنتُ أسأل نفسي لماذا لا آخذ الأمور ببساطة مثلة !؟

قادنا التاكسي إلى "البازار" الكبير وإشترت كونستانس العديد من الأطباق والتُحَف المنقوش عليها آيات القرآن بينما إشتريت أنا شرائط كاسيت لـ "طارقان" و" إبراهيم طاطليس". وكانت كونستانس ،

تحصل بفضل حجابها على "تخفيض كبير في الأسعار. "ثم أكلنا العشاء في "دار الضيافة" وهو المطعم التاريخي الذي كان يُعِد الطعام للسلطان العثماني. وكان بالمطعم في ذلك اليوم عرس فراحت كونستانس تُراقب العروسين وهي تبكي،فحاولتُ تجاهل ذلك.

كُنّا نرى في كل مكان نذهب فيه عروسين وفي كل شارع قطط شاردة. كنت أشعر كل ليله برغبه أن آخذ كونستانس في أحضاني، ولكنني كنتُ أُكافح ضد رغبتي كي

لا أجرحها فيما بعد وكي لا أُعذب نفسي. أعطيتها بدلاً من ذلك هدية صنعتها بنفسي في ورشة "سيجفرد" وهي عقد من الأحجار الكريمة ففرِحَت به كثيراً. وبعد خمسة أيام إنتهت رحلة كونستانس وكان عليها الرجوع لليابان. كنتُ دائماً أكره مشاهد الوداع،

لذا فقد بررتُ عدم الذهاب معها إلى المطار. ووقفت معها أمام الفندق فراحت تُحارب دموعها بلا جدوى وهي تقول:

* "أُريد أن أراك قريباً مرّةً أخرى. فأنا أحتاجك كثيراً". رحتُ أُلَوِّح لها مودِّعاً و"التاكسي" يتحرك بها في إتجاه المطار، وكان عليَّ أن أبقى يوماً آخراً في إسطنبول. فقد كانت رحلة عودتي إلى المانيا لا تزال في الغد.

ذهبت بعدما ودعّت كونستانس إلى وسط المدينة ودخلت مسجد "ييني" المطل على خليج البوسفور. دخلتُ للمسجد لا لغرض الصلاة وإنما للارتياح من عناء اليوم الحار.. ولكنني عند ما سمعت المؤذن يُنادي للصلاة ورأيت المصلين يصطفون، خَجِلتُ أن أبقى جالساً، فوقفت في الصف بدون وضوء وحاولتُ تقليد المصلين. وكنتُ قد وضعت حقيبتي خلفي.

وبالطبع لم أشعر بأي شيء في صلاتي. كنتُ فقط أتذكّر رجاء كونستانس الاخير لي. وبعدما فرغت من الصلاة نظرت خلفي لألتقط حقيبتي فلم أجدها ..سُرِقَت حقيبتي في بيت الله وبها جواز سفري وتذاكر السفر وكل نقودي، ذهبت إلى مكتب شركة السياحة لعمل محضر فقال ضابط الشرطة أنه متاكد أن سارق حقيبتي ليس تركياً.. فالأتراك لا يسرقون أبداً في المساجد.. فلا بد أن يكون السارق إما شيشانياً أو روسياً. وقد طمأنني ذلك كثيراً بالطبع. فقد كان كل ما أخشاه أن يكون سارق شنطتي –لا سمح الله – من نسل الأتراك!!

نصحني الضابط بالذهاب فوراً للقنصلية المصرية وأطلب إستخراج جواز سفر حتى لا أقع في مشاكل مع الشرطة التركية. وكان الضابط كريما فأعطاني ثمن تذكرة الأتوبيس بعدما عرف أني لا أمتلك مليماً واحداً .

عندما رأيت العلم المصري يُرفرف فوق القنصلية شعرت بالأمل. كان قصراً شامخاً في أجمل أحياء أسطنبول.

رَنَنْتُ جرس البوابة الحديدية فرد عليَّ صوت كسول من خلال السماعة

* "!نعم"–

* "أنا مواطن مصري.. وضاع مني جواز سفري وتذاكري وكل فلوسي وعايز أطلّع جواز سفر جديد" قلت راجياً ..

* "معاك ما يُثبت شخصيتك؟" سأل الصوت من خلال جهاز التحدث ..

* "مانا لسّه قايل لحضرتك إن جواز سفري ضاع" قلت مستغرباً ...

* "إنت عايش في تركيا؟" سأل الصوت من جديد..

* "لأ.. أنا عايش في ألمانيا"..

* "خلاص.. يبقى لازم تطلّع جواز سفر من سفارة مصر في المانيا" ...

* "بس عشان أروح ألمانيا لازم يكون معايا جواز سفر الأول"..

* "أنا آسف جداً لو مش عايش في تركيا ما إقدرش أعمللك أي حاجة".. قال الصوت بلا رحمة..

* "يا أُستاذ.. أنا إتسرقت. راحت كل أوراقي وفلوسي، أروح لمين وأنا في البلد دي؟"..

* "وعلى فكرة محدش في السفارة حيدّيلك فلوس. أنت عارف كام واحد مصري بيجي هنا كل يوم ويرمي بلاه ويقول فلوسه ضاعت علشان يطلع له بقرشين؟ إسطنبول مليانة شباب مصريين صيَّع..

* "يا سيدي أنا مش عايز منكم فلوس. أنا عايز جواز سفر"..
* "وأديلك بس جواز سفر إزّاي وإنتا مَعكشِ اللي يثبت إنك مصري ؟ وأنا أيش عرَّفني إنَّك مش إسرائيلي"؟
*"يعني أنت مش سامع إني بكلملك٠ بالمصري"؟"..
* "ماهو فيه إسرائيليين كتير بيتكلموا مصري أحسن مني ومنَّك"..

غادرت بوابة السفارة المغلقة دون أن أرى وجه مَن كان يتحدث معي ورجعتُ الى المدينة ماشياً لمسافة ستة كيلومترات رغم آلام ظهري الشديدة لأنني لم يكن لدي ثمن تذكرة الأتوبيس. جلستُ مُنهكاً وبائساً على كوبري "جالاتا" ورحتُ أُراقب البحر والمآذن والمارة.

ماهي قيمة شخص غريب بلا أوراق تثبت هويته ولاء نقود يسد بها جوعه؟ لم يتبقَ لي سوى إبتسامة ساخرة مُتعبة.

ساقني الجمع الشديد إلى وسط المدينة باحثاً عن الطعام. دخلتُ أحد المطاعم التي أكلت فيها مع كونستانس وكنت آمل أن يتذكّر أحد وجهي ويتذكّر أني دفعت بغشيشا كبيراً عندما أكلتُ في المطعم. سألتُ أحد العاملين هناك بإحراج شديد أن يعطيني "شوربة" أو أي شيء بلا مقابل. فطردني من المطعم بأدب.

يبدو أن المطاعم هناك كانت مُعتادة على أمثالي كثيراً. حتى صفائح الزبالة كانت خاوية من بقايا الطعام القابلة للأكل، فقد كانت القطط تملأ المكان. في النهاية لم يبقَ لي إلّا أن أذهب للفندق وأنام بلا غداء أو عشاء.

وفي الصباح أكلتُ الفطور في الفندق كالمسعور وملأتُ حقيبة بلاستيكية من "البوفيه" بالجبن والمربى والخبز. وكنتُ لا أعبأ بنظرات النُزلاء الإحتقارية لي.. فلا خَجَل مع الجوع..

حكيتُ لموظفة الإستقبال في الفندق عن مشكلتي فأعارتني بعض النقود البسيطة. ذهبت إلى السفارة من جديد وتكلمت مع موظف آخر عبر جهاز التحدث. وكان أكثر كَرماً من زميله ففتح لي الباب.

ذهبتُ إلى الموظف المختص بالجوازات فقال لي أني أحتاج لمعجزة كي أحصل على جواز سفر. فقد جاء إلى القنصلية قبل ثلاثة شهور شاب مصري قال أيضاً أنه يعيش في ألمانيا وأنه فقد جواز سفره. فأصدرَت له القنصلية جواز سفر، وعندما إستقل الشاب المصري الطائرة المتوجهة إلى المانيا إقتحم كابينة الطيار وهددهُ بقلم رصاص دَسَّهُ في عنقه وطلب منه أن يُغيّر مسار الطائرة..

وقد تم التغلّب عليه في الطائرة. وبعدها أصدرت وزارة الداخلية .قراراً يمنع القنصليات من إستخراج جوازات سفر لمصريين لا يسكنون في البلد الذي توجد به السفارة

* "طيب. وأنا أعمل إيه دلوقتي؟" سألت الموظف"..

* "المسألة سهلة جداً. حضرتك هتروح الفندق وتقول لهم هناك أنك ممعكش فلوس تدفع الحساب. الفندق هيتصل بالشرطة والشرطة هتتصل بينا. إحنا ندفع حسابك ونرحَّلك لمصر، ولما حد من أهلك ييجي يستلمك من المطار في مصر لازم يدفع حساب الفندق ومصاريف الطيارة والترحيل والذي مِنّو.

بس ده لو كان معاك ما يثبت شخصيتك. لو ممعكش مايثبتت شخصيتك.يبقى برضه هنرحلك بس مش حنسلّمك لأهلك وإنما لمديرية الأمن وبعدين يلففوك كعب داير لحد ما يتأكدوا أنك مش هربان من حكم ولا من بلوة سودة..

* "يانهار أسود ومنيل! كان كل من الخيارين أسوأ من الآخر. بل أن الأسوأ أن يتلقاني أبي في المطار وأنا مُكبَّل بالكلبشات .

لقد ذقتُ مرارة البيروقراطية المصرية مِراراً من قبل، ولكن مذاق هذه البيروقراطية في الغربة وفي أشد لحظات الضيق مُر جداً ومُحزن جداً ولكن لم يبق لي إلّا أن أزور

القنصلية كل يوم وصار ذلك طقسا أعتمد عليه...
أبدأ النهار بالأمل وأنهيه باليأس وسب الدين. وكان حسابي في الفندق يتضاعف يوماً بعديوم حتى وصل إلى 2000 دولار بعد أربعة أسابيع وكنتُ أنتظر أوراقي من المانيا على أحر من الجمر.
كنتُ قد طلبت من زميل مصري بالجامعة أن يذهب لبيت الطلبة الذي أسكن فيه ويسأل البوّاب أن يفتح لهُ غرفتي ثم يبحث عن بطاقتي الشخصية وشهادة إنهاء الخدمة العسكرية. وقد وجدها الزميل ولكنه أرسل الأوراق بالبريد العادي من باب الإدخار فتأخرت أكثر من عشرة أيام.
عندما وصلت الأوراق ذهبت بها إلى القنصلية. ولكن الموظف كان لا يزال مُصمماً على موضوع الترحيل ولكنني خرجتُ عن أدبي وصبري ورحت أصيح في القنصلية
* أحَّه .. هي وزارة الخارجية بَعتاكو هنا عشان تتاجروا في "الموبايلات" وإلا عشان تساعدوا المصريين اللي واقعين في ورطة؟
* أنا عايز أكلّم القنصل شخصياً والّا مش خارج من المبنى دا النهارده..
قال موظف القنصلية أن القنصل ليس لديه وقت لكل مَن إدَّعى أنه فقد جواز سفره. فزاد ذلك من غضبي وواصلتُ الصراخ. فلم يجد في النهاية حلاً إلّا أن يذهب إلى القنصل ليسأله عن قضيتي. عاد الموظف بعد قليل وقال :
* "أتفضل يا سيدي القنصل عايز يكلّمك" ..
دخلت الى غرفة القنصل فاستبشرتُ عندما رأيته. كانت ذبيبة الصلاة تُزيّن جبينه وكانت تملأ غرفته الآيات القرآنية..
هبَّ واقفاً للترحيب بي وقال لي "إحكي لي يابني إيه مشكلتك؟"..
أنصَت القنصل المحترم لقصَّتي وراح يهز رأسه..

* "لاحول ولا قوة إلّا بالله! .. في الجامع؟" وقال لي إن إبنه في نفس عمري تقريباً وأنه يدرس في أمريكا وممكن أن يحدث له ما حدث لي في أي وقت. وقال أنه سيفعل كل ما فى وسعه ليحل مشكلتي.

وقال لي أنهُ تلقّى فاكس من الجامعة التى أدرس فيها في المانيا تُفيد أن لديَّ إمتحانات وعمل في قسم رعاية الطلاب الأجانب ولا بد من عودتي فوراً، وأن هذا..سيسهل القضية.

كانت مديرة مكتب رعاية الأجانب قد تفضلت بإرسال الفاكس ،إتصل القنصل أمامي بمدير مصلحة الجوازات في القاهرة وطلب منه أن يحصل على إستثناء لإستخراج جواز سفر وأن يرسل هذا الاستثناء بالفاكس لأن الحقيبة الدبلوماسية تستغرق وقتاً طويلاً حتى تصل.

وأمر القنصل موظف الجوازات بإستخراج جواز سفر فوري لي. وأثناء إعداد جواز السفر جاءت إليَّ زوجة القنصل التي تسكن معه في نفس القصر بغداء لذيذ: دجاج ورُز وخضار.

كانت أول مرة آكل فيها وجبة ساخنة منذ أسابيع. وقبل خروجي من باب القنصلية دسَّت زوجة القنصل مبلغ 200 دولار في جيبي وقالت "إعتبرني زي والدتك.

وكان الزميل المصري في المانيا قد قام بحملة جمع تبرعات من الطلبة العرب بالجامعة وأرسل إليَّ حوالة بريدية إستطعتُ صرفَها بعد حصولي على جواز السفر وتمكنتُ من تسديد ديوني في تركيا.

قدمتُ طلباً للسفارة الألمانية وحصلتُ على التأشيرة في نفس اليوم. فقد كانت مديرة مكتب رعاية لطلاب الأجانب قد أرسلت فاكساً آخر للسفارة الألمانية.

شعرت أيضاً بالإرتياح عندما رأيتُ أني أتلقّى العون من كلا الألمان والمصريين .

أجنبي نموذجي

أقنعتني مدرسة اللغة اليابانية بالجامعة إن اشارك في مسابقة للخطابة باللغة اليابانية تنظمها السفارة اليابانية في برلين. كان عليَّ أن أُلقي خطاباً غير مقروء عن اليابان وثقافتها. وكسبتُ التصفيات الأولى لمنطقة جنوب المانيا. ذهبت للمسابقة النهائية، ورحت أتنافس مع 15 متسابق من النمسا وسويسرا والمانيا.

القيتُ خطبة عن الفرق بين مصر والمانيا واليابان وحصلت بها على المركز الأول.

وكانت الجائزة هي رحلة مفتوحة لليابان تشمل تذاكر الطيران والاقامة وتذاكر مفتوحة لإستخدام القطارات السريعة. ذهبتُ إلى اليابان والتقيتُ بـ "كونستانس" هناك. لم يكن الوقت مناسباً بالمرة للطيران فقد ذهبت لليابان أياماً معدودة بعد أحداث 11 سبتمبر وكانت إجراءات الأمن مشددة جداً.

ولكن رجال الأمن في اليابان كانوا أشد صرامة من الألمان. أصبح اليابانيون الآن يعرفون ما هو الاسلام وأين تقع " قندهار" و"طورا بورا" بالضبط على الخريطة.

مصرى يسكن في المانيا ؟ يبدو أن ذلك ذكرهم بـ "محمد عطا" الذي أصبح أشهر من النبي محمد نفسه.

إستجوبوني بالساعات في المطار بل وأرسَلوا "مُخبرا" يمشي ورائي أينما ذهبت ليراقبني. إستغليت هذا الموقف للدُعابة. ورحتُ العب مع المخبر لعبة القط والفار فاختبيء فى المتاجر أو أجري بسرعة شديدة أو أتظاهر أني سأُخرِج مُسدساً من جيبي.....

وهكذا كان لقائي بـ "كونستانس" مثل لقائي بها في إسطنبول دون عناق.

كنتُ لا أزال أشعر بحُبي لها ولكنني طلبت منها ان تنساني أفضل وتبحث عن رجل آخر أكثر إستقراراً يمكنها الإعتماد عليه. ولكنها قالت:

* "سأنتظرك حتى الموت"

عدتُ إلى ألمانيا فوجدتُ خطابا لي في صندوق بريدي يدعوني إلى مركز الشرطة. ذهبتُ إلى هناك فراح الضابط يسألني أسئلة خاصة عَمّا إذا كنت أزور المسجد بإستمرار وإذا ما كانت لديَّ عشيقة وهل أشرب الخمور أم لا وهل لي علاقة بأية جماعة مُتطرفة. رفضتُ الإجابة على هذه الأسئلة وقلت للضابط إن الذي يزور المساجد بإستمرار ليس إرهابياً بالضرورة.

ومن يشرب الخمور اليوم قد يكون إرهابياً بالغد، وأن مَن لهُ علاقة بإرهابيين لن يبوح لضابط مباحث بذلك.

لم تضايقني أسئلة الضابط كثيراً، ولم يضايقني شعور الألمان بالخوف من كل مسلم.. كنتُ أفهم نظرات الرعب في عيونهم عندما يرون شاباً عربياً يدخل القطار.. ولكن كان يضايقني مبالغة بعضهم في وصف أحداث سبتمبر على أنها نقطة تحوّل في تاريخ العالم.

أثار غضبي تعليق أحد الأساتذة في الجامعة الذي وصف الأحداث على أنها أبشع ما رآه العالم منذ الحرب العالمية الثانية. فرددتُ عليه ثائراً "أي عالم؟ عالمي أم عالمك؟ ماذا عن فيتنام وفلسطين ورواندا والبوسنة والشيشان وكوسوفو؟ أم أن العالم هو فقط غرفة نومكم؟..

أنهيت دراسة الماجستير بسرعة. وصرت بين عشية وضحاها أجنبي نموذجي.. نُشرَت لي العديد من المقالات عن الإرهاب والعنف ومشاكل الهجرة والاندماج ورحتُ أُلقي المحاضرات في جميع أنحاء ألمانيا.

إنهالت عليَّ الجوائز والأوسمة التقديرية، وكأنني لم أكن مجنوناً بالأمس ممنوعاً من التوقيع على الأوراق الرسمية. إختفت مخاوفي وهلوستي لفترة وكنتُ أبدو لكل مَن يراني

كرجل مثقّف متوازن. لم يكن أحد يدرى أن خلف هذه الواجهة الجميلة روح مريضة وآلام غير مُنتهية.

حاولت تجاهل ماضيي ورحتُ أستمتع بالحياة العادية ولكنني كنتُ

من فترة لأخرى أسمح لنفسي بتخطي الحدود لأُثبت لنفسي أنني ما زلتُ قادراً على الجنون. فقد عرض عليَّ أحد المخرجين الشباب أن العب دور البطولة في فيلم تجريبي قصيرة عن حياة طالب تركي يدرس الحقوق ويُعاني من مشاكل في الهوية. قبلتُ العرض بدون تفكير. وكان عليَّ أن أخلع كل ملابسي في الفيلم وأزحف في القطار تحت أقدام المسافرين .

كما كان عليَّ أن أقبِّل إمرأتين قُبلات حارّة فى الفيلم. قبلتُ العرض لأنه يُذكّرني بقصه حياتي..

وأن الممثلتبين كاتتا فا غاة الجمال ،حصلتُ أيضاً على جائزة الهيئة الألمانية للتبادل العلمي كأفضل أكاديمي أجنبي بالجامعة.

وعُقِدتْ مراسم نسليم الجائزة في مبنى المحافظة. وراح محافظ المدينة ورئيس الجامعة يُلقيان خُطَب المديح والإطراء عليَّ. ثم جاء دوري في الكلام. قررتُ ألّا أشكر أحداً وأن أستغل فرصة وجود 600 مستمع ووجود وسائل الإعلام وقمتُ بإنتقاد سياسة المدينة مع الطلاب الأجانب وقلت للمحافظ:

* أنتم اليوم تكرّمون أكاديمي أجنبي وستضايقون غداً الآلاف من زملائي في مكاتب الهجرة. أنا أرفض أن تستخدموني دليلا على سماحتكم وتعاونكم"..

ثم وجهتُ كلأمي لرئيس الجامعة:

* سيدي الرئيس. لقد أَطِلْتَ فى إطرائي ومديحي ولكن هل تعرفني؟ أنت لم تتحدث إليَّ من قبل أبداً فكيف تصفني بهذه الصفات الجميلة؟ أليسَ من الممكن أن يكون

هذا الشخص الذي أطِلْتَ مديحه مجنوناً مثلا؟ أيها المغرورون، توقَّفوا عن الحديث عنا، وإبدأوا في الحديث معنا..

هاجت القاعة بتصفيق الحضور وخرج المحافظ منزعجاً من الحفل. وبالفعل غطَّت الصحف هذه "الفضيحة" وكان لكلامي على ما يبدو أثر بالغ. فقد أمر المحافظ بعدها بإنشاء قسم خاص للطلبة لإجراءات الهجرة داخل الجامعة نفسها . وكانت التجربة الأولى من نوعها فى ألمانيا كلها "ولكنني كنتُ في قرارة نفسي أقول :

* "لماذا أَلوم الألمان؟

حصلت على وظيفة مُحترمة فى أحد مكاتب هيئة "اليونيسكو" في مدينة "جنيف" السويسرية. أعجبني الجو هناك فقد كانت مدينة تنصهر فيها كل الثقافات والأعراق. وكان الأجانب في هذه المدينة يختلفون عن أجانب المدن الأخرى.

فقد كانوا فى أغلب الأحيان أكاديميين أو دباوماسيين أو من رجال الأعمال.

وكان رئيسي في العمل هنا أيضا إمرأة قوية وحازمة.

كانت تُصارع الرجال وكانت "بألف رجل". ولكن موظفيها كانوا قلَّما يُكرسون عملهم لخدمة التعليم والثقافة. ولكن كانوا يخدمون أنفسهم على "بوفيه" الأمم المتحدة المفتوح وكانوا يتصارعون في الخفاء بخُبث وعقلية البلطجية.

حتى أجانب البلاد الفقيرة الذين كانوا يعملون هناك كانوا لا يستغلّون مناصبهم الحسّاسة لمساعدة بلادهم.. ولكنهم كانوا يلهثون خلف الدولارات الخضراء فقط..

عرضت عليَّ مديرة المكتب الأرجنتينية الأصل وظيفة ثابتة براتب محترم وأعطتني مهلة شهرين للتفكير.

وفي نفس الوقت حصلت على عرض آخر من إحدى الجامعات الألمانية أن أصير محاضراً بقسم الدراسات الإسلامية فيها رغم أن ذلك لم يكن مجل "تخصصي بالتحديد. فقد أدت أحداث سبتمبر إلى إهتمام الألمان فجأة بالإسلام والمسلمين.

فكرتُ كثيراً ثم قررتُ العودة لألمانيا من جديد بعد سنة من الغياب.
رأيت في تدريس الاسلام فرصة أن أحقق لأبي حلمه القديم وأتقرّب منه بذلك بعض الشيء. وبالفعل فرح أبي كثيراً عندما سمع ذلك الخبر وكان فخوراً بي جداً ..
مرت سنوات وبدا أن شيئاً مثل الإستقرار قد دخل إلى حياتي.
وفجاة وبدون مقدمات كتبت كونستانس لي خطاباً إلكترونياً طويلاً تقول فيه : أنها لا تزال في إنتظاري وأنها لن تتخذ في حياتها زوجاً غيري.. وأنها سوف تنتظر سواء أعطيتها الأمل أو سكتت كعادتي.
هز هذاء الخطاب كياني وغيَّر كل حساباتي.
فقد كان كل شيء يبدو على ما يُرام في حياتي.. ولكن مثلي يحن دائماً للعواصف.
فكتبتُ لـ"كونستانس" وبحتُ لها لأول مرة أني أُحبُّها ولن أُحِب غيرها وعادت كونستانس إلى أحضاني بعد غياب سبعة سنوات.
عادت وكأنها لم تغِب عني يوماً واحداً. فقد كانت دائماً في أفكاري ووجداني.
جعلتها السنوات أكثر جماولاً وأكثر رصانة.
ذهبتُ معها فى رحلة إلى "كوبنهاجن" و"باريس" واثناء سفرنا بالقطار كانت كونستانس تنام بجواري كالملاك فأيقظتُها وسألتُها:
* "هل تقبلين الزواج من مجنون مثلي؟" فردَّت مُبتسمة:
* "نعم، وبأقرب وقت ممكن قبل أن نغيّر رأيك .. سافرتُ معها إلى مصر وعقد أبي قراننا في القرية، وإحتفلنا بالعرس الذي حضره آلاف من أهل القرية.
رقص أبي يوم فرحي لأول مرة في حياته.. وقال وهو يُنقَّط المطرب :
* "أُريد أن أحيي زوجتي المخلصة. فأنا وهي أول قصة حب في هذه القرية".
لم أكُن أصدّق ما أسمع، فقد تحول أبي تماماً وصار مرحاً مُقبلاً على الحياة.
راح يقضي الكثير من الوقت مع أحفاده .يُداعبهم ويحكي لهم الحكايات ..

حصلتُ على وظيفة ثانية بجانب وظيفة الجامعة بأحد المعاهد التربوية في شمال ألمانيا. وكانت وظيفتي هي إعداد المؤتمرات حول إصلاح التعليم العربي. وكنتُ أُنظّم مؤتمراً في القاهرة وكان عليَّ زيارة السفارة الألمانية للتنسيق لهذا المؤتمر.

تذكرت الليلة التى قضيتها أمام السفارة وأنا أدخل من الأبواب. ولكن هذه المرة فُتِحت لي الأبواب بسهولة ورحَّبت بي المُلحقة الثقافية للسفارة بنفسها وقدَّمت لي الشاي ذا الطعم الكريه، فتذكرتُ شاي "خميس" الذى كان يبيعه خفيةً أمام السفارة. وكانت ظاهرة الطوابير أمام السفارة قد إنقرضت..

ليس لأن الشباب أصبح لايقدم على الهجرة، ولكن لأن السفارة إكتشفت إمكانية الربح من هذه الجموع، فأعدَّت بالتعاون مع إحدى شركات الإتصالات خطاً ساخناً غالي الثمن يحجز من خلاله المتقدمون للسفر مواعيدهم ..

بالطبع كانت فكرة جيدة. ولكني رحتُ أفكّر بـ "خميس" ماذا يفعل الآن وأين يبيع شايه وسندوتشاته! ؟

كنت أعيش في هدوء مع زوجتي كونسانس في ألمانيا.. كان.يبدو أن حياتي قد دخلت أخيراً في مسارها الصحيح. ولكن البركان الخامد بداخلي بدأ في الغليان من جديد.. وكانت بعض قطرات الماء غير قادرة على كبح جماحه ..

طلب مني أستاذي في الجامعة أن أكتب ملخصاً لقصة حياتي كي ينشره في كتابه الأخير عن "الهجرة والدين"، ولكن " كونستانس" رفضت هذه الفكرة وقالت إنني لا بد أن أتفاوض مع قصة حياتي بنفسي قبل أن أعرضها على جمهور عريض قد يكون على غير المسؤولية المرجوّة.. ولكنني عاندت وجلست لأكتب قصة حياتي.

ربماكانت الأنانية وحب الظهور هما الدافع وراء ذلك. أو ربما كانت رغبتي الملحة أن أُملِم أشلاء قصة حياتي فوق الورق حتى لا أتمكن من الهروب منها مرةً أخرى..

رحتُ أكتب وأكتب وكان ما لا أكتبه يؤلمني أكثر مما كتبت. فلم أتمكّن في 25 صفحة سوى من رصد بعض محطات هروبي فى الغربة دون التعرض للمصائب التي غيّرت مسار حياتي.

حاولتُ أن أختتِم قصتي المصغّرة بنهاية سعيدة، فإخترت قصة زواجي من كونستانس لأختم بها ، لكنني كنتُ أشعر أن هذا كذب ، فرغم حبّي الشديد لزوجتي إلّا أنني أشعر أنها مجرّد وهم مؤقت ،فحياتي أعمق من ذلك وآلامي أكبر .

يقول لي البعض أنني عشتُ خبرات فى 35 سنة لم يعشها من فاق عمره الثمانين. ربما كان ذلك صحيحاً. ولكنني أشعر إني، ورغم خبراتي الكثيرة، كنتُ أسير في طريق و تسير الحياة في طريق آخر، فلم نلتقِ بعد.

فقد كنت دائماً أعيش من أجل الآخرين.. كنت أعيش من أجل أبي وأمي وأخي الذي ورثتُ إسمَهُ وشهادة ميلاده. بل إني قد صرتُ أعيش من أجل الرجال الذين إنتهكوني وعذّبوني.

لم أحس أبداً بطعم الحياة إلّا عندما كنتُ أُمارس العادة السرية أو عندما تنطلق بي الطائرة إلى السماء.. حتى إرتمائي في أحضان زوجتي يشبه الحلم ..

بعد أن فرغت من كتاية قصة حياتي الملخَّصة أحسستُ أني تغيّرت تماماً. فجأة عاد الإنسان المكسور المُشتت مرة أخرى. أحسستُ أن كل الأساس الذي بُنيَت عليه حياتي وشخصيتي هش ومتعفّن.

أحسستُ أني مثل إنسان سحب كل رصيده من البنگ ثم أكثر من الديون ليعيش بلا فكر ولا مبدأ، ثم جاء اليوم لكي يُسدِّد كل ديونه بما فيها الفائدة.

كم كذبة .. كم جرح عميق سينفجر داخلي من جديد؟

خلَّف صراع الهويات وإضطرابات المشاعر وتناقضها عبر السنين آثاراً لا يمكن طمسها بعد ذلك. أدّى الهروب المتواصل إلى إنهاكي التام. أحسستُ ببركان الغضب ونافورة

العنف تقترب شيئاً فشيئاً من الإنفجار ،شعرتُ بموجة غضب شديدة تتحرك بداخلي، وأحسستُ برغبة قوية في أن أواجه أبى بكل شيء.

سافرتُ إلى مصر مجدداً وأمضيتُ أسبوعين في قريتي. صارحتُ أمي لأول مرة بقصتي وحكيتُ لها ما حدث لي في القاهرة منذ ثلاثين عاماً.

بكت أمي كثيراً ولكنها ذكّرتني أنني رغم كل شيء بجب الّا أنسى أيضا الجوانب الإيجابية في حياتي:

* "مراتك اللي زى حتة السكّرة ووظيفتك اللى كل الناس بتتمناها وشباب البلد كلهم اللي واخدينك. مثَل أعلى ليهم ..

ترجّتني أمي الّا أحكي قصتي لأبي لأنه مريض ولن يتحمل أية صدمة أو تعنيف. ولكنني كنت مصمماً على المواجهة. ذهبت في نزهة بين الحقول مع أبي. كان قد بلغ إلسبعين في هذا العام.

أردتُ أن أفتح معه ملف حياتى بطريقة غير مباشرة، فسألته عندما كنا نسير بجوار أحد الحقول التي كان يمتلكها في الماضي إذا كان يندم على أي شيء في حياته الطويلة فرد قائلاً:

* "الدنيا ما تستاهلش أن الواحد يندم عليها، ولو كانت تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء! وبعدين يابني خلاص، أنا يالله حسن الختام والندم مش هيغيَّر حاجة".

إنعقد لساني للحظات فرحتُ أنظر إلى عينيه طويلاً ثم قلت:

* "!ربّنا يدّيك طولة العمر"

ذهبتُ للقاهرة قبل أن أُغادر مصر بيومين. كنت أسير مع صديقي حسام في شارع طلعت حرب في المساء وكان الشارع شديد الازدحام في هذا اليوم حتى كدتُ أشعر

بالإختناق. كنتُ أتعجَّب بداخلي على حال هذه المدينة التي تشبه برج بيزا المائل "، لا تستقيم ولا تسقط. راقبتُ فيضان البشر من حولي وقلت لحسام:

* "سبحان مَن يُطعِم كل هذه الأفواه 'ثلاث مرات يوميا". قال حسام إن البلد تقترب من ثورة جياع وقال إن حوادث السرقة والاحتيال زادت بشكل غير عادي.

حكى لي قصة سائق تاكسي أستوقفه أحد الشيوح المُسنين قُبيل الفجر قرب ميدان رمسيس وطلب منه أن يوصله لأحد المساجد.

كان الرجل يرتدى جلباباً أبيض وكانت له لحية بيضاء طويلة. وبعد مائة متر استقل التاكسي رجل آخر كان يرغب أن يذهب إلى نفس الإتجاه. راح السائق يتحاور مع الرجل المُسِن بجواره فاستوقفه الراكب الآخر من خلفه قائلاً:

* "انت بتتكلم مع مين با ريّس"-

* "بتكلّم مع عم الحاج. إبه مش شايفه؟" سأل السائق مُستغرباً..

* "لا أنا مش شايف غيرى وغيرك".. عندئذ تكلّم الرجل العجوز وقال للسائق:

* "..يابني ..لا أحد يستطيع رؤيتي غيرك. أنا ملك الموت وقد أرسلني الله لكي أقبض روحك الليلة"..

هُلِع السائق وركن التاكسي على جانب الطريق بجوار المسجد وراح يبكي. ولكن ملك الموت طمأنه وقال:

* "أمامك فرصة للتوبة. إذهب للمسجد وصلي لله صلاك الأخيرة. وسآتي إليك وأنت ساجد وأقبض روحك بسلام،لا توجد مكرمة اكبر من ذلك" ..

قفز السائق من التاكسي ودخل المسجد وتوضأ وراح يُصلّي ويُصلي، وكان قلبه ينقبض في كل مرة يسجد فيها. وبعد فترة طويلة دخل نور النهار للمسجد وكان السائق هو الوحيد الذي لاي بداخله. فخرج السائق فإكتشف ان ملك الموت لم يأخذ روحه ولكنه أخد التاكسي وفرَّ .

حاولت التظاهر بالضحك على هذه القصة رغم شعوري بالمرارة. وعندما وصلنا إلى سينما ميامى، حكى لي حسام أن هذا المكان شهد منذ عام اكبر حادث تحرش جنسي عرفته مصر.. حيث راحت مجموعة من الشباب تُحاصر البنات في الشارع وتمزق ملابسهن وتتحربش بهن.

ضاعفت هذه القصة من شعوري بالإختناق. رحت أتفحَّص وجوه المارة من حولي وانا أتساءل مَن منهم جاء إلى هنا للتحرّش ومَن منهم جاء للسرقة! وفجأة سمعنا صرخة أنثوية مروّعة لفتت إنتباه المارة رغم الضوضاء الشديدة في الشارع:

* "يوسف.. إبقى.. بووووسف!!"

راحت إمرأة بدا من لهجتها انها غريبة عن القاهرة تصرخ بحدة وتُنادي على طفلها الصغير الذى تاه منها بين حشود البشر. أصابت صرخات الأم الشارع كله بشلل تام. توقف كل الناس بلا إستثناء عن المسير وراح كل منهم يُنادي " يوسف.. يوسف!" أحسستُ لأول مرة في حياتي أنني جزء من هذه الجمع ورحتُ أُنادي بأعلى صوت "يوسف.. يوسف!" بدا لي مصير هذا الطفل وكأنه مصيري أنا.. كأنهُ مصيرنا جميعاً.

كُنّا نبحث عنه وكأننا نبحث عن شيء ما تائِه بداخلنا.. وكأننا نبحث عن أنفسِنا.

جاء رجال الشرطة بسرعة غير معهودة وراحوا يسألون الأم الباكية أمام سينما ميامي عن عمر الطفل ولون ملابسه. ولكن الجموع واصلت النداء بإسم الطفل لأنه تعلم بحكم التجربة أن الحكومة بالها طويل.

راح كل مَن يسمع إسم الطفل يُنادى به ويسأل مَن حوله أن يفعل نفس الشي.

إنصهر شارع طلعت حرب كله وصار كياناً واحداً. بل إن النداء قد وصل إلى شارع 26 يوليو حيث كان الطفل يوسف يمشي باكياً.

سأله أحد الشباب إذا كان إسمه يوسف، وحملهُ وراح يسأل عن مكان الأم.

أفسحت الجموع الطريق له وهم يصيحون:

* " لاقينا يوسف.. لاقينا يوسف!"

وَصلَت هده الصيحة إلى إلأم قبل وصول الطفل. "لاقينا يوسف.. لاقينا يوسف!" صعقت حالة من النشوة كل من رأى يوسف يعود إلى أمه. كان من الصعب على كل من رأى هذا المشهد أن يتحكم في دموعه.

شَعَر كل منّا أنهُ جزء من هذا الحدث. أحَسَّ كل مَن كان في طلعت حرب وسليمان باشا و 26 يوليو أنه هو يوسف ..

شعرتُ في باديء الأمر بالسعادة، ولكن هذه السعادة سرعان ما تحولت تدريجياً إلى "تجهّم ثم إلى ميلانكولية شديدة". تركتُ شارع طلعت حرب وأنا أشعر بغضب غير طبيعي.. لستُ أدري بالضبط لماذا! ربما تذكّرتُ أن المدينة التي أتحدث اليوم لتُعيد طفلاً غريباً إلى أمه هي نفس المدينة التي إنتهكت طفلاً غريباً بلا رحمة منذثلاثين عاماً

***

عدتُ الى المانيا تملؤني مشاعر متضاربة. عدت أحمل تناقضات مصر وتناقضات أبي وأمي فوق ظهري ،وصرتُ لا أقوى على حمل متناقضاتي أنا.. حاولتُ أن أكتم موجة الغضب بداخلي بأي طريقة. إشتريت بروازاً جميلاً ووضعتُ به صورة أبى وأمي وهما يبتسمان وثبَّتُ الصورة بمكان بارز في غرفة المعيشة ورحتُ أُراقبها لفترة طويلة.

جلست كونستانس إلى جواري بحذر ثم قالت :

* "انت تعلم كم أُحِب والديك وأحترمهما ولكني أظن أن هذا ليس الحل ..

* "ماذا تقصدين؟"

* "أنت تُحاول تقديس أبيك وأمك لأنك عجزتَ عن مواجهتهما" ..

شعرتُ بصدق ما قالت فزاد غضبي وقلتُ لها بجفاف :

* "هذا ليس شأنك"

* "بالطبع هذا شأني أنا زوجتك وأنا أرى أنك تُخادع نفسك.. تتظاهر بالتسامُح مع مَن ظلموك ثم تُعاقِب نفسك في النهاية" ..

طلبتُ منها أن تغرب عن وجهي فرفضَت فأفلتت يدى وصفعتها بعنف على وجهها..نظرت كونستانس إليَّ غير مصدّقة وهي تضع يدها على وجهها ولم تنطق بكلمة. كان شيء ما بداخلي يدفعني أن أعتذر لها فوراً وشيء آخر يوسوس لي أن أُواصل ضربَها. صفعتُها مرةً أخرى، ثم إنهَلْتُ عليها ضرباً ورحتُ أرطمها وأركلها دون وعي حتى سقطت على الأرض بلا حِراك.

وبعد أن أفقْتُ من سكرة الغضب وجدتُها تبكي وآثار العنف واضحة على وجهها. سألتها إذا كانت تُريد الذهاب إلى الطبيب فلم تسمعني. فقد كنت في غباء حقيقي قد خرقت طبلة أذنها الرقيقة. أخذتها بسرعة للمستشفى فأُجريَت لها جراحة عاجلة. ولكنها ثلاث شهوراً بعدها لا تسمع..

كنتً أشعر بالخزي كل مرة آخذها فيها إلى الطبيبة التي كانت تنظر إليَّ بإحتقار وكأنها تقول أهذهِ هي ثقافتكم وحضارتكم يا مسلمين؟

كان عقابي الوحيد أن قررت كونستانس أن تستمر في العيش معي رغم أني قلتُ لها أني غير قادر على مواصلة الحياة الزوجية بصورة طبيعية، فما بدا مني ما هو إلّا أول القصيد وقمة جبل الجليد.. رفضت زوجتي الرحيل وقالت إن إنفصالنا سيكون عقابا لها وحدها وليس عقاباً لي، فهي تريدني أن أراها كل يوم وآثار عنفي على وجهها حتى أُواجه ما فعلت فلا أكررهُ مرةً أخرى كنتُ أراها وهي تُحاول الرجوع إلى طبيعتها وأشعر بالألم الشديد عندما أقول لها شيئا فلا تسمعه.

أحسستُ بالخزي والعار لأني تشبعتُ بالعُنف الذي كنت أرفضه فمن يغسل عن روحي قرَفَها وعَناءَها ؟ من سيُعطيني تفسيراً مقبولاً لحياتي؟؟

لقد ورثتُ – مثل جميع البشر– من أبَوَيَّ حزمة من التصورات والقضايا والمهام الحياتية. وكان بجب عليَّ أن أفهمها وأتغلَّب عليها. لكنني لم أفهم شيئآ ولم أتغلب على شيء. هذه هي طبيعتي الأولى التي وُلدتُ بها وما زالت تكتم أنفاسي. كان على أن أسلك مسلكاً آخراً، ولكنني ذهبت إلى آخر الدنيا كي أكرر ما فعله أبي.. عجز أبي عن الإمساك بالعدو الإسرائيلي فعاد يصب إنتقامه على أمي وعليَّ أنا، وراح يهرب إلى عالم الحشيش.

وعجزت أنا عن الإنتقام ممن إنتهكوني فصببتُ عضبي على مَن لا حول لهم ولا قوة. كان عليَّ أن ..... أهرب مرتين وأنا طفل ممن لا يرحم.. ولأنني لم أتمكن من ذلك فقد قضيتُ حياتى كلها هارباً ..

كنتُ في حياتي أكثر من رجل واحد. وهاهم هؤلاء الرجال الذين كنتُ والطفلُ الذي رفض أن يكبر، كلهم يتصارعون بداخلي أيُّهُم أنا وأيُّهُم يملك لجامب!

يفترسني الخوف الجائع من أحشائى وتدفعني قوة سواء أن ألقي بكل شيء في حياتي وأهرب من جديد، كي أبدأ بداية جديدة بعد فترة..

كي أفتح صفحة جديدة.. ولكن كتاب حياتي كله لا يتكون إلّا من صفحة واحدة كتبتُ عليها وشطبتُ ثم أعدتُ الكتابة ومسحتُ.. فلم يختفِ شيء من حياتى؛ ولكن صار كل شيء غير مقروء وغير مفهوم وقفت أمام تلامذتى في الجامعة فإنعقد لساني وعجزتُ أن العب أمامهم دور المعلم. خرجتُ من قا عة المحاضرات دون إعتدار وعدتث إلى بيتي وأغلقتُ عليَّ بابي.

قضيت ثلاثة شهور مختفياً في بيتي لا أذهب إلى الجامعة ولا أرد على التليفون..

عادت الكوابيس والهواجس ترافق ليلي الطويل.. شَمَمْتُ رائحة الجنون تقترب وعدتُ الى مستشفى الأمراض العقلية.. ملجئي الاخير بقدميَّ..

وكانت المستشفى مثل أسرة النساء التي عاشَرتُ ومثل سطح منزلنا بالقرية ومثل الجسر الذي تركني عليه الغجر. وببدو أن قصة الغجر هذه بالذات هي أصدق قصة في حياتي رغم انها لم تحدث بالفعل.

فأراني عند نهاية كل مرحلة في حياتي أعود إلى نفس الجسر واقف عليه حائراً..لا أبني جسوراً ولا أُحطّم جسوراً.. فقط أقف فوق الجسر وأنتظر أن يأتي أبوايَ الحقيقيان ويلتقطاني من جديد. ولكنني لا أرى شيئا ولا أحد حولي حتى الأفق. .يقف النسيم متحجراً ولا تهتز ورقة توت فوق شجرتها..

لا يسير لشيء في حياتي ولا يسيل سوى عَرقي ودموعي. لا أسمع شيئاً سوى نباح الكلاب الضالة. رائحة الخوف والعجز تتلا أنفي وتخدرني وكان الله دائماً ملاذي من الملاذ.. كنت أفر منه إليه. ولم يساعدني تظاهري بالإيمان ولا محاولتي التصنّع الكتر. لا أستطيع أن أكون مؤمنا ولا أستطيع أن أكون ملحداً..

لم أستطع أن أتنازل عن الله أبداً، لأنني لم أجد له بديلا. فكنت أفضل صمته الأزلي على "ضباب الشك الرهيب ..

مقابلة الرب في "ماكدونالدز

لو لم تكُن زوجتي معي لما صَدَّقت ما حدث لي في هذا اليوم. بعد شهور من العلاج بالمستشفى ،تَلتها شهور من العزلة والخوف وجدت الشجاعة أن أواجه قصة حياتي كاملة وأرصدها على الورق بدأت بكتابة الصفحات الأولى ورحتُ أبحث عن عنوان يُناسب قصة حياتي:

"**وداعاً أيتها السماء!**"

بدا لي كعنوان مناسب. إقترحتُ العنوان على كونستانس فقالت لي :"إن أمرك عجيب، فإن مَن يُريد أن يستغني عن "السماء "لايقول لها "وداعا!" كانت أثار عنفي قد إختفت تدريجياً من وجهها وبدأت تسمعني بصورة أفضل بعد شهور من العلاج المكثّف. وكانت تُحاول ان تُعيدني تدريجياً للحياة العادية ..

* "أنتِ على حق! فأنا لا أستطيع ان أعيش بغير تصوّر أن هناك إلاهاً، ولكني أعتقد أن هذا الإله مختلف تماماً عمّا يتصور جميع البشر" قلت لزوجتي.

فقالت كونستانس :

* "هذا كلام جميل جداً ولكن يجب أن نذهب الى المدينة الآن قبل أن يُغلَق مكتب البريد وتُسكِّر المتاجر" وكنتُ قد وعدتها أن أذهب معها إلى المدينة بعد شهور من إلعزلة "**وداعاً أيتُها السماء**" كتبتُ العنوان بالبنط العريض وتوَّجتُ بهِ قمة الصفحة الأولى من الصفحات العشرين الأولى" التي كتبتها فى الأيام الماضية.

قمتُ بحفظ ما كتبتهُ على "الكمبيوتر و تركته مفتوحاً وذهبتُ مع زوجتي الى وسط المدينة. قضينا حاجياتنا بسرعة ودخلنا مطعم "**ماكدونالدز**" لنأكل وجبة سريعة ولم يكن من عادتنا أن نأكل في "**ماكدونالدز**" لأن كونستانس نباتية،

ولكننا كُنا على عَجَل..

جلسنا نأكل كالمعتاد فإذا بطفل صغير لايتجاور التاسعة يقترب مني ويُعطيني ساندويتش "هامبورجر" ويقول :

* "هل تريد هذا ؟"فقلت له وأنا مُنشغِل بالحديث مع زوجتي

* "لا.. شكراً" فذهب بعيداً وبعد عشر دقائق تقريباً عاد إلى الطفل من جديد وكأنني الوحيد المتواجد في المطعم وقال لي:

* "هل من الممكن أن تعطيني ثلاثة يورو ونصف ؟ فسألتهُ :

* "هل أنت جائع وتُريد شراء ساندويتش ؟"

* "لا.. أنا فقط أُريد شراء اللعبة التي هناك "

فذهبتُ معهُ إلى إحدى البائعات وطلبتُ منها شراء اللعبة، فقالت إن اللعبة ليست للبيع ولكنها هدية مع وجبة"**هابي ميل**" الخاصة بالأطفال فإشتريتُ له الوجبة واللعبة فتهلل وجهه فرحاً... عدتُ لإرى زوجتي فلحق بي الطفل وسالني أن يجلس معنا. كان سؤاله بلا قيمة فقد كان قد جلس بالفعل. قام بفتح اللعبة ولم يهتم بالطعام. راح يُجرب اللعبة الإلكترونية البسيطة وهو يضحك وكأنه وجد كنزاً ..

* من أي البلاد تأتي صديقتك الجميلة؟" سأل الطفل..

* "من اليابان، هل تعرف أين تقع اليابان؟" سألتُهُ ..

* "نعم .. هناك .. وراء ال .... هناك!" قال وهو غير متاكد

* "وما هو إسمها؟"

* "إسمها كونستانس" قلتُ له

* "حًا؟ أمي أيضاً إسمها "كونستانس" قال وهو ينظر إلى زوجتي بفرح ..

* وأنت؟ من أي بلد تأتي ؟

* "من مصر. هل تعرف مصر؟"

* "نعم. إنها البلد الغني توجد فيها الأشياء المربعة الشكل.. ما أسمها؟.. نعم تذكرت: الأهرامات"

* "وانت؟ ما إسمُك؟" سألته وأنا أنتظر إسما المانيا مُعتاداً مثل "كيفين" أو "ماريو " قالها فكاد الطعام يسقط من فمي من فرط الدهشة. فقد كان "Gott Steven إسمي "ستيفين جوت"

هو كلمة "الرب" وهو إسم نادر جداً يكاد لا يوجد في المانيا ..... "Gott" إسم عائلته ..

* "إسمك الرب؟ " سألته باستغراب"

* "نعم.. أبى إسمه السيد الرب" قال بروتينية وكانهُ إعتاد إستغراب الناس عندما ينطق إسمه..

* "واو! يال الدهشة : الرب يأكل في **ماكدونالدز**. ربما كانت هذه آية من السماء!" قلتُ وأنا أُحاول المزاح. ولكن زوجتي لاحظت أني متاثّر جداً ..

شيء غريب للغاية أن يقابلني طفل إسمه "الرب" في نفس اليوم الذي قررت فيه أن أقول للرب وداعاً .

لا ..لا.. قد قررتُ أن أقتص الغيبيات والروحانيات من حياتي. هد ا طغل كان يُريد لعبة، وهاهو أخذ لعبته وإنتهت القضية!" حاولت تهدئة نفسي بنفسي في سري حتى بعدما سمعت من الطفل أن بيته لا يبعد عن بيتي أكثر من مائة متر لم أُغير منطقي ولم أنساق لإغراء الإعتقاد بمعجزة صغيرة.

ولم يكن الطفل يبدو كالملاك على الإطلاق، ولكن كطفل فقير لا يجد الإهتمام الكافي من عائلته ولا يأخد منهم مصروفاً يكفي لكي ياكل في "**ماكدونالدز**".

كان النهم الذي يأكل به قطع الدجاج وأسنانه الصفراء وعيناه التائهتان ينمّوان عن طفل محروم منسي.

توقف " ا لرب" الصغير فجاة عن الطعام وذهب إلى المنضدة الجانبية وجاء بشفاطة عصير وطلب من زوجتي أن تُشاركه عصير البرتقال..

* "وانا؟ هل نسيتني؟ أَلَستُ مَن إشترى لك هذه الوجبة؟"سألتُهُ بلومٍ ساخر..

* "إنها إمراة والرجل يجب أن يكون عطوفاً مع المرأة أولاً " قالها فأحسستُ بأ لم شديد وأنا أتذكّر ما فعلتهُ بزوجتي منذ شهور ..قمت واقفاً من من فرط الأ لم وقلتُ لزوجتي "هيا بنا إلى المنزل ..

فقام "الرب" أيضاً وكان لم يكمل طعامه بعد وقال: "وانا أيضاً شبعتُ فهل ممكن أن أذهب معكم؟ هل لديكم سيارة؟" سأل بإلحاح :

* لا للأسف ليست لدينا سيارة. سنذهب بالترام" قالت زوجتي له ..

* هذا حسن سأذهب معكم بالترام. سانزل في محطة " **كنيسة لوثر**"..

* "بالطبع! ففي أي المحطات يجب للرب أن ينزل؟

وقد كانت بالفعل نفس المحطة التي سننزل فيها. وعندما نزلنا من الترام وأردنا الذهاب لبيتنا طاردنا الطفل الصغير وهو يسال :

* "هل لديكم اطفال؟ "

* " لا.. ليس بعد" رددتُ عليه..

* "وهل لديكم جهاز كمبيوتر؟ ..

* "نعم .. لدينا كمبيوتر"..

* "والعاب كمبيوتر أيضاً؟"-

* "لا للأسف.. ليس لدينا في البيت ما يُدخِل السرور على قلبك" قلت له..

* "هل نسمحوا لي أن أذهب معكم للبيت؟ اعدكم أن أكون طفلاً مهذَّباً"

قال بإلحاح غريب ..نظرت زوجت إليَّ وهزَّت رأسها راجيةً مستحسنة.

لو كنت وحدي ما وافقت أبداً. فأنا لا أثق بنفسي أن أختلي بالأطفال منذ فعلتي ازنبئة فق منزل أقربائي في القاهرة

فتحتُ باب البيت فاندفع "ستيفين" إلى الدار قبلنا وتوجَّه مباشرة إلى غرفة العمل وجلس على مكتب الكمبيوتر كأنه يعرف البيت تماماً وضغط بإصبعه على زر التشغيل والإغلاق فانطفأ الكمبيوتر .يا إلهي.. "**قصة حياتي!**" إنتابتني إحساس غريب أن كل ما كُتِب قد ضاع. وبالفعل فإنني بعدما أعدت تشغيل الكمبيوير لم أجد مما كتبتُ شيئا. وجدتُ الملف ولكنه كان تالفاً.. لم أجد فيه نصاً ولكن أرقام وعلامات غريبة

* "ماذا فعلت أيها الغلام؟" سألتُهُ معنِّفاً. فإبتسم غير مُبالٍ وجرى إلى المطبخ وفتح الثلاجة وأخذ طبق " مهلبية" " كانت زوجتي قد أعدته بالأمس وراح يأكله كالمسعور.

جلست زوجتي بجواره مُستمتعة بوجوده، فتوقف عن الطعام وقام يفك ضفائرها فساعدته في ذلك. ثم اخدته إلى الحمّام وغسلت له يديه وعادت معه فراح يضع رأسه على كتفها ..

* "الا تقلق أمك عليك إذا عُدت متأخراً ؟" سألته زوجتي وقد لاحظت أن عقارب السا عة تُشير إلى العاشرة ..

* "لا.. أمي لا تقلق أبداً" قالها بلا إكتراث .. ولكني صممتُ على إصطحابه لبيته، وعندما أردنا الخروج من الشقة رأى بعض النقود على منضدة التليفون فاخدها ودسها في جيبه

* "ألم يعلمك أحد أن السرقة عيب؟!" قلتُ له لائما فلم يرد إلّا بإبتسامتهِ البلهاء المعهودة.

لم تكُن مشكله كبيرة فقد كانت فقط بعض الجنيهات المصرية مما تبقى من زيارتى الأخيرة لمصر .. خرجنا من البيت واخذت زوجتي معها مظلة لحمايتنا من المطر، فاخذ "**الرب**" منها المظلة وراح يُظلل عليها وتركني وحدي في المطر.

لابد أن يكون هذا هو الرب فعلاً ..

رحتُ أُفكّر فيما حدث. لماذا يطاردني هذا الطفل؟ وما معنى كل هذه الصدف؟

أعلم أن هناك نظرية مُعترَف بها في علم النفس إسمها "سببية المصادفة" وتقول هذه النظرية بأن الشخص إذا شغل باله بفكرةٍ ما لفترة طويلة فإنه يُصادف بطريقة غير إرادية أشياء كثيرة مُرتبطة بهذه الفكرة...

ولكني لم أجد في ذلك تفسيراً كافياً لما حدث.

كان علينا فقط أن ندخل في الشارع الموازي لشارعنا فوقفنا بعد أمتار أمام بيته.

ذهبتُ لباب البيت "أتفحّص الرب" مكتوبة بخط رديء5 بقلم أزرق.

شرحت "Gott" الإسم المكتوب على الجرس. وبالفعل قرأت كلمة له حقيقة النقود التي سرقها مني وقلت له أنه لا قيمة لها في ألمانيا. ولكنني قلتُ له أنه إذا أراد زيارة بلدنا الجميل خلف السحاب فأنه يستطيع أن يستخدمها هناك.

قَبَّل "الرب" زوجتي على خدها ثم لوَّحَ لي بيده مودِّعاً.. نظرتُ إليه بألم وأنا أقول "**وداعا أيها الرب!**" فضحِكَت زوجتي بينما كنتُ أُكافِح ضد دموعي..

وبعد إسبوع إنتهى بي المطاف في مستشفى المجانين من جديد "أتجرّع كل يوم حبة " تربفيلور" ضد الإكتئا ب وحبة "أوبى برامول" ضد نوبات الخوف والإضطراب الداخلي.

ولكن هذه الحبات تسبب لي الدوخة والغثيان فأتناول معها 60 قطرة من قطرات "إم بى سى" أما التشنجات فتعالجها الصعقات الكهربائية والحبوب المسكّنة للألم وأسمها "أركوكسيا".

وتسبب هذه الحبوب لي آلاماً في معدتي المصابة بالقرحة أصلاً فأتناول بعدها حب "نيكسوم موبس". وفي الليل أتناول حبة منوّمة ضد الأرق وقبل أن أسقط من موت منامي تنفلت من بين شفاهي نفس الجملة بتلقائية مثل كل ليلة وتكسر صمت الغرفة الرهيب : "**!!يا أرحم الراحمين أرحمنا يا رب**" ..

تَـمَّت

الكاتب في سطور

* وُلِدَ حامد عبد الصمد، المولود في قرية مصرية بالقرب من القاهرة في عام ١٩٧٢،
* درس اللغة الإنجليزية والفرنسية في القاهرة، فضلاً عن العلوم السياسية في أوجسبورج واللغة اليابانية في جامعة كفانساي جاكوين في اليابان.
* عمل لصالح اليونسكو في جنيف عام ٢٠٠٣، ثم محاضراً للعلوم الإسلامية في جامعة إيرفورت. منذ شهر أكتوبر/ تشرين أول ٢٠٠٨.
* يقوم بالبحث والدراسة في تاريخ اليهود في العالم الإسلامي في معهد التاريخ والثقافة اليهودية في جامعة ميونخ.
* حامد عبد الصمد هو أحد اعضاء مؤتمر الإسلام في ألمانيا ويعتبر أحد أشهر المثقفين الإسلاميين في المنطقة الناطقة باللغة الألمانية.